

تراث

شهرية تصدر عن نادي تراث الإمارات
السنة الثامنة – العدد ٨٩
ربيع الأول ١٤٢٧ هـ – أبريل ٢٠٠٦م

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين



- عبد الله الرميثي: عملت طواشا وعمري عشر سنوات
- ملف عن المولد النبوي
- القرصنة في الخليج أكذوبة أطلقتها بريطانيا وصدقتها .. ثم روجتها
- ٢٠ لغة أفريقية تكتب بالحروف العربية
- يوم في حياة قرية تراثية عُمانية
- وهؤلاء يكتبون عن:
  - سالم الزمر: النبطي الفصيح
  - د. فالح حنظل: سنة الحريجة
  - د. رضوان الداية: خرشنة
  - خميس بن زعل: الدايخة

■■ مع العدد هدية:

ثالث القمرين

ملصق ملون بمناسبة المولد النبوي

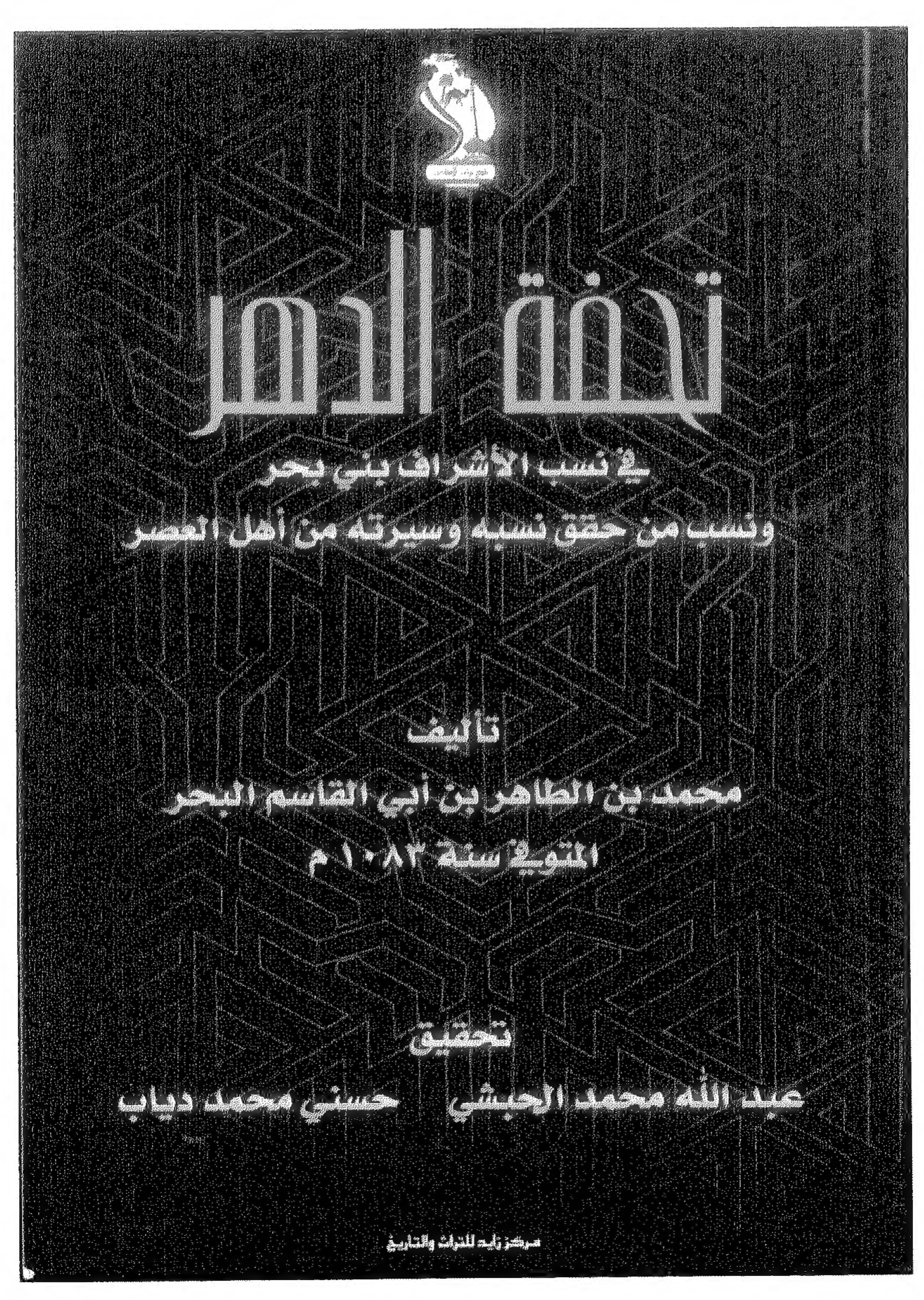
كما وصفها علي بن أبي طالب

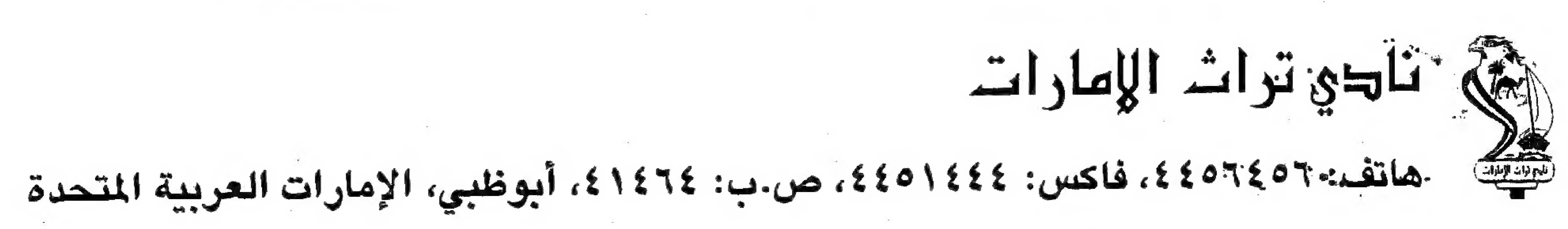
صورة الرسول ﷺ



صدر حديثاً

عن مركز زايد للتراث والتاريخ





هاتف: ٤٤٥٦٤٥٦، فاكس: ٤٤٥١٤٤٤، ص.ب: ٤١٤٦٤، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة

أول القرطاس

اختلافات مسلمي هذا الزمان كثيرة، بل إن زماننا هذا أصبح زمان التركيز على نقاط الاختلاف، وإن كانت قليلة، وبسيطة. وفي معظم الأحيان هامشية، وتجاهل نقاط الاتفاق والالتقاء فيما يسمى بالثوابت.. وهي الأكثر والأهم.

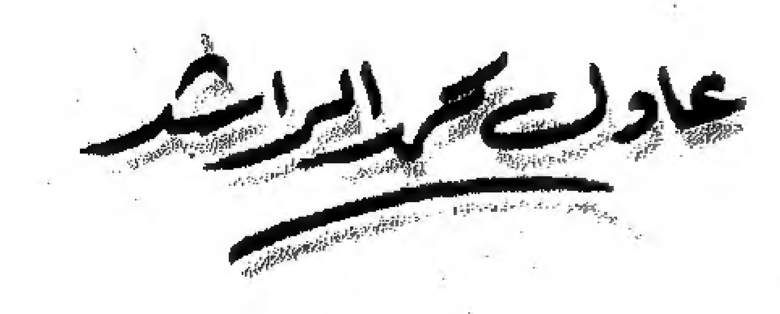
والاحتفال بالمولد النبوي الشريف واحد من تلك النقاط التي تثير الاختلاف في هذا الزمن، إلى درجة تبادل الاتهامات بين المؤيد والرافض لإحياء هذا اليوم، كما هو الحال في مناسبات وأيام أخرى تشكل منعطفات في ذاكرة الأمة، ومحطات مهمة في تاريخها.

ونحن في «تراث» لا يعنينا كثيراً الجانب الفكري أو الفقهي عندما نتوقف في إحدى هذه المحطات، ونبحث في أغوار منعطفاتها وتأثيراتها الثقافية والاجتماعية، وحتى السياسية في مجتمعات المسلمين، ليس ذلك من منطق تجاهل الرأي الديني والشرعي، معاذ الله، ولكن من منطلق اهتمام المجلة المنصب على الجوانب التراثية والثقافية في أنماط تفكير وسلوك الشعوب العربية والإسلامية على مر العصور.

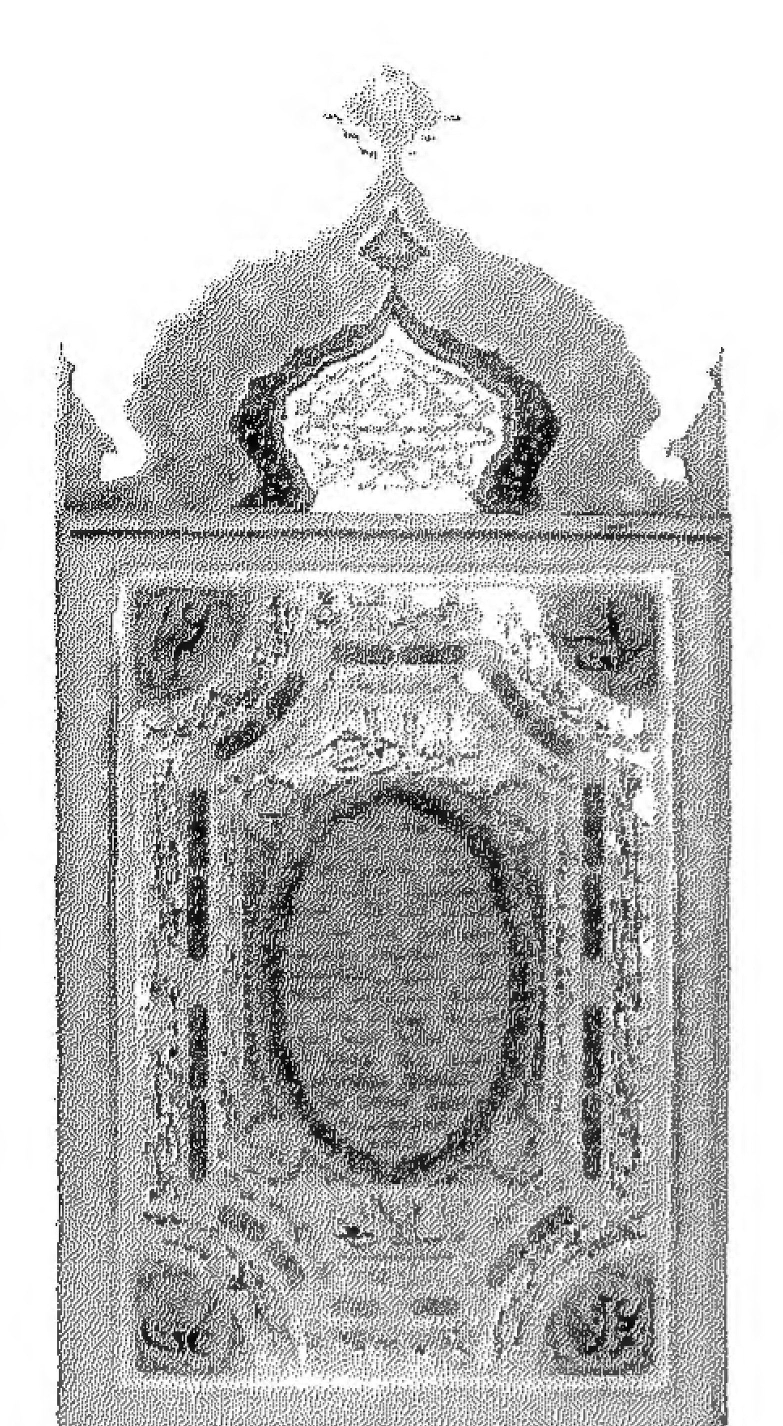
والوقوف في محطة المولد النبوي الشريف هذا العام يمثل أهمية خاصة بالنسبة للأمة قاطبة، وبالنسبة لوسائل الخطاب الإعلامي والثقافي العربية والإسلامية على وجه الخصوص.

و«تراث» جزء من هذه المنظومة التي أصبحت في مواجهة واضحة وصريحة مع تحدي مسّ الثوابت، والتعريض بالهوية، وإصابة ثقافة وعقيدة العرب والمسلمين في نخاعها الشوكي. فإذا كانت التحديات الثقافية والحضارية.. وحتى السياسية تحوم حول حمى الإسلام، وتحاول قضم أطرافه فيما سبق من تعديات وحملات ظالمة ومتحاملة من دول ومؤسسات غربية، فإن هذه التحديات تجاوزت الآن خطوط الدفاع الأخيرة للاسلام.. كدين وحضارة وثقافة ورموز وثوابت. ووصلت إلى أحد أهم أركانها، وهو شخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.. فيما عرف بحملة الرسوم المسيئة التي بدأتها صحيفة دانماركية، ثم استشرت في عدة مطبوعات وصحف ووسائل إعلام أوروبية. وقد بدت هذه الرسوم وكأنها طلقة اختبار لجبهة المجتمعات الإسلامية ومدى تماسكها، كانت تشي بإساءات أكبر وأشد على العقيدة الإسلامية وبنائها الحضاري والثقافي. ولكن ردود الفعل، غير المسبوقة وغير المحسوبة، في مجتمعات المسلمين عطلت هذا المخطط، ولكن دون أن تلغيه. ويكفي المتابع أن يتساءل لماذا تأخر صدور قرار دولي يمنع التعرض للأديان حتى الآن؟ ولماذا امتنعت الحكومة الدنماركية عن الاعتذار بدعم وتأييد من كل الحكومات الغربية.. دون استثناء؟.

هذا التطور الخطير جعل للمولد النبوي هذه السنة معنى مختلف. مختلف في سياقه الديني، والثقافي، والتراثي.. والسياسي كذلك. وهذا دفعنا في «تراث» لتجاوز ذلك الاختلاف المصطنع لنعيد الطَّرْق على ذاكرة أجيال الأمة بأن الخطوط الحمراء لا تزال حمراء، وأن خط الدفاع الأخير يجب أن يتقدم إلى ما قبل الخطوط الأولى، وأن اعتقاد المسلم، الإنسان الفرد والمجتمع، بثوابته ورموزه الدينية والحضارية والثقافية تزداد رسوخاً.. ولو كره الكارهون.■

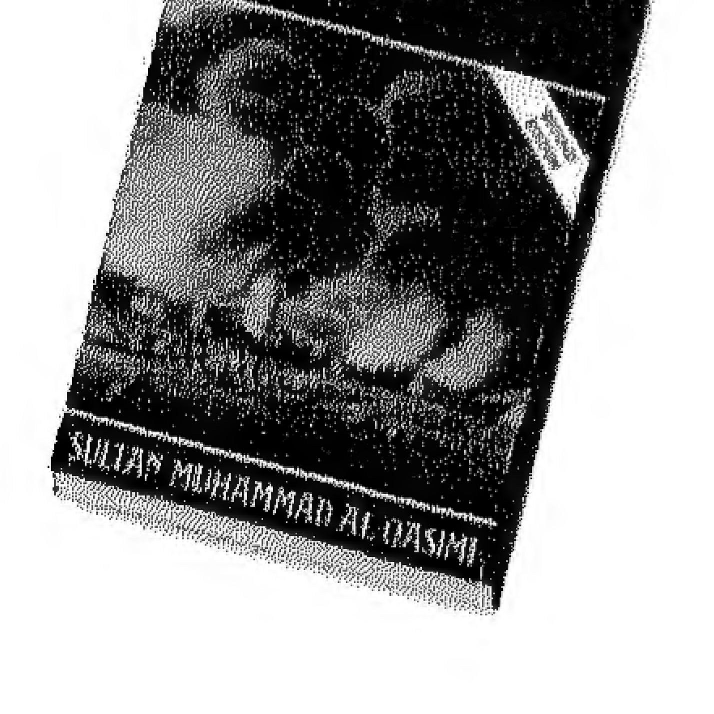


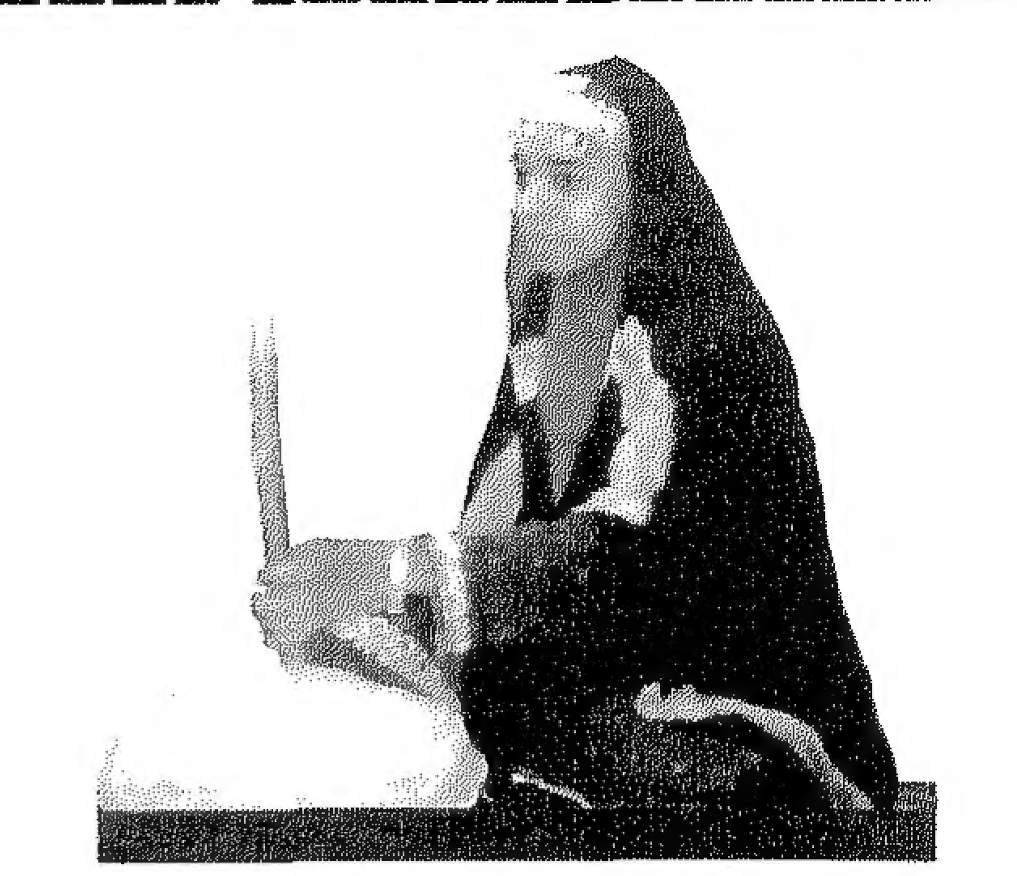
محتويات العدد





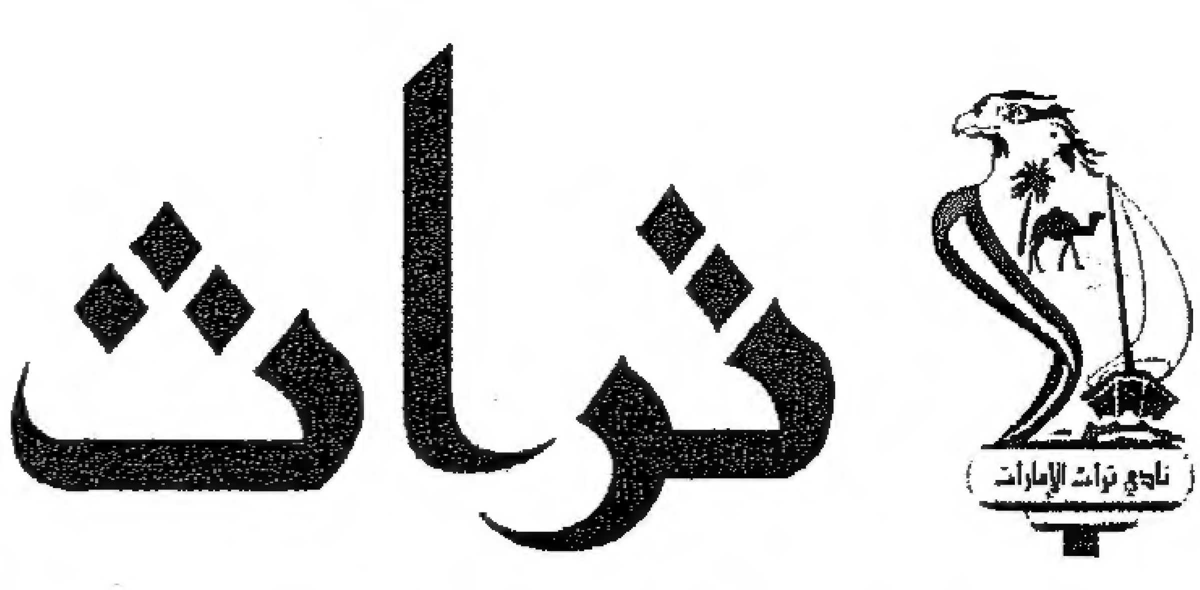








زوايا ثابتة



مجلة شهرية ثقافية منوعة تصدر عن
نادي تراث الإمارات - العدد (٨٩) - السنة الثامنة
ربيع الأول ١٤٢٧هـ - أبريل ٢٠٠٦م

المراسلات:
نادي تراث الإمارات، ص.ب: ٢٧٧٦٥ أبوظبي
الإمارات العربية المتحدة، هاتف: ٤٤٦٦١١٦
فاكس: ٤٤٣٠٨٨١ (٠٢)
بريد الكتروني
email: turathmag@yahoo.com

ثمن النسخة

الإمارات ٥ دراهم، قطر والسعودية ٥ ريالات
البحرين والكويت ٥٠٠ فلس، عُمان: ٥٠٠ بيسة
مصر: ٥ جنيهات، اليمن: ١٥٠ ريالاً
الأردن: دينار ونصف
الدول العربية دولار أمريكي واحد
أوروبا وأمريكا والدول الأجنبية ٢ دولار

مندوبو تراث:
■ القاهرة: عبد العال الباقوري
محمول: ٠٠٢-٠١٠-١٦١٠٢٠٩
■ الأردن: د. ثابت ملكاوي
محمول: ٠٠٩٦٢-٧٩-٥١١٨٨١٢
■ اليمن: محمد السيد
محمول: ٠٠٩٦٧-٧-٣٦٦-٤٦٩٦

الاشتراك السنوي (درهم)

	محلياً	خليجياً	عربياً
أفراد	٨٥	٢٠٧	٢٧٩
مؤسسات	١٥٠	٢٦٧	٣٣٩

التجهيز الطباعي

قسم الإعلام - نادي تراث الإمارات

أهلاً بكـم

ترحب مجلة «تراث» بمساهمات الكتاب والقراء والتي تتعلق بالتراث والتاريخ باعتبارهما الخط الأساسي للمجلة، موضحة أن المقالات التي يتم نشرها تعبّر عن وجهة نظر أصحابها وليس بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.. ونحن نرحب بالمقالات والمساهمات وفق المعايير التالية:

■ أن تكون المقالات جديدة.. ومخصصة لمجلة تراث فقط.. ولم يسبق نشرها.. ومرفقة بصور حديثة وملونة للموضوع.

■ أن تكون المساهمات مطبوعة على الحاسب الآلي أو الآلة الطابعة على وجه واحد من الورقة.. مذيلة بالمراجع التي تم استقاء البحث منها، مع تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

■ زاوية «خزانة الكتب» التي يتم فيها استعراض الكتب القديمة أو الحديثة هي من اختصاص هيئة التحرير فقط.. ونعتذر عن عدم قبول أي مساهمات في هذا المجال.

■ التحقيقات والاستطلاعات واللقاءات مع كبار المفكرين والشخصيات هي من اختصاص هيئة التحرير، أو بطلب مباشر منها.

■ المقالات التي يتم الاعتذار عن عدم نشرها ليس بالضرورة لعدم جودتها، وإنما قد تكون المجلة سبق لها أن نشرت موضوعاً أو عدة موضوعات حول الفكرة نفسها ولا ترغب في المزيد أو منعاً للتكرار.

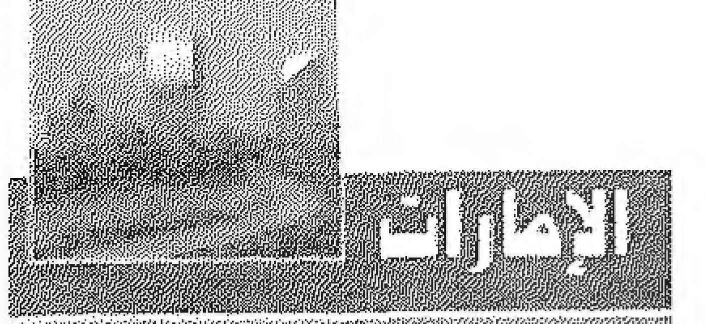
■ المجلة غير مسؤولة عن إعادة المقالات أو المساهمات - التي لم تنشر - إلى أصحابها.

■ قد يتأخر نشر بعض المساهمات نظراً لارتباطها بمناسبة معينة، أو لكثرة المساهمات التي تصل من السادة الكتّاب.

■ المساهمات أو المكاتبات التي تنشر في زاوية «رسائلكم وصلت» لا تخصص لأصحابها مكافآت مالية.

■ عند استلام المساهمة.. يتم إخطار الكاتب بوصولها موضحاً إن كانت تحت الدراسة أو الاعتذار عن عدم النشر، وفي حال النشر يتم إرسال نسخة من العدد المنشورة فيه للكاتب.

■ ترجو المجلة من السادة الكتّاب أن يوضحوا في ورقة منفصلة اسم الكاتب ثلاثياً على الأقل، وأرقام الهواتف أو الفاكسات أو البريد الإلكتروني والعنوان البريدي الذي يمكن الاتصال به عن طريقه، ورقم حسابه في البنك الذي يتعامل معه حتى يمكن إرسال المكافآت المالية بطريقة أسرع وأكثر سهولة، وفق النظام المالي المعمول به في المجلة.





سلطان بن زايد يسلم أحد الفائزين الجائزة وفي الصورة الشيخ منصور بن محمد بن راشد آل مكتوم

سلطان بن زايد يشيد بنجاح سباق الهجن

أشاد سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات بالجهود المبذولة لدعم الأنشطة التراثية وإحياء التراث، مؤكداً على ضرورة الاستمرار والاهتمام برعاية الشباب وتقديم البرامج المتواصلة لتعليمهم أصول التراث والتدريب عليه.

جاء ذلك عندما تفقد سموه القرية التراثية التي أقيمت على هامش سباق الهجن السادس عشر الذي أقيم في سويحان نهاية الشهر الماضي، معرباً عن ارتياحه لما رآه باعتباره جهداً طيباً لغرس التراث في نفوس أبناء الوطن، كما أعرب سموه عن سعادته بالنجاح الكبير الذي حققه سباق الهجن السادس عشر، وهنأ سموه الفائزين وأعضاء اللجنة العليا المنظمة للسباق على حسن الإعداد والترتيب للسباق، كما وجه التحية لكافة المشاركين في السباق وفي الفعاليات التراثية التي صاحبته، حيث قدم المشاركون لوحة تراثية رائعة عكست الصورة التلاحمية المشرقة بين أبناء الوطن أثناء منافسات السباق.

وكان سموه قد شهد الألعاب الشعبية والعروض الحية للصيد بالصقور، واستمع إلى العديد من القصائد الشعرية النبطية التي ألقاها الشعراء، وذلك بعد انتهاء فعاليات سباق الهجن الذي قام سموه بتوزيع الجوائز على الفائزين فيه، والتي تنوعت ما بين سيوف وخناجر ذهبية إضافة إلى الجوائز المالية.

وكان جمهور كبير من عشاق التراث قد شهدوا السباقات والمهرجان وفي مقدمتهم بعض أصحاب السعادة سفراء وقناصل عدد من الدول العربية والأجنبية في الدولة، وقد أعرب عبد العزيز بن معمر سفير المملكة العربية السعودية عن سعادته بما شاهده في السباق، ووصفه بأنه عرض إنساني حي لفعاليات تراثية، وأثنى على جهود سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث

الإمارات في الاهتمام بالتراث والمحافظة عليه، وتعزيز فرص اهتمام الشباب بالتراث، وقال: إنه لاحظ وجود عدد من السياح الأجانب وحرصهم على متابعة هذه الفعاليات التراثية.. مما يدل على اهتمام المسؤولين في نادي تراث الإمارات بنشر التراث المحلي وتعميمه عالميا.

وأعرب سيد محمد شهابي مستشار ونائب رئيس البعثة في سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية عن سعادته البالغة بما شاهده من مظاهر تراثية.

وأشار باتريس باؤلي سفير فرنسا لدى الدولة إلى التنويعات التراثية في المهرجان وقال: نحن ننظر باهتمام بالغ إلى سباقات الهجن وإلى التراث المحلي، وهذه فرصة ثمينة لنا لكي نقترب من الجانب الإنساني والتراثي لشعب الإمارات.■



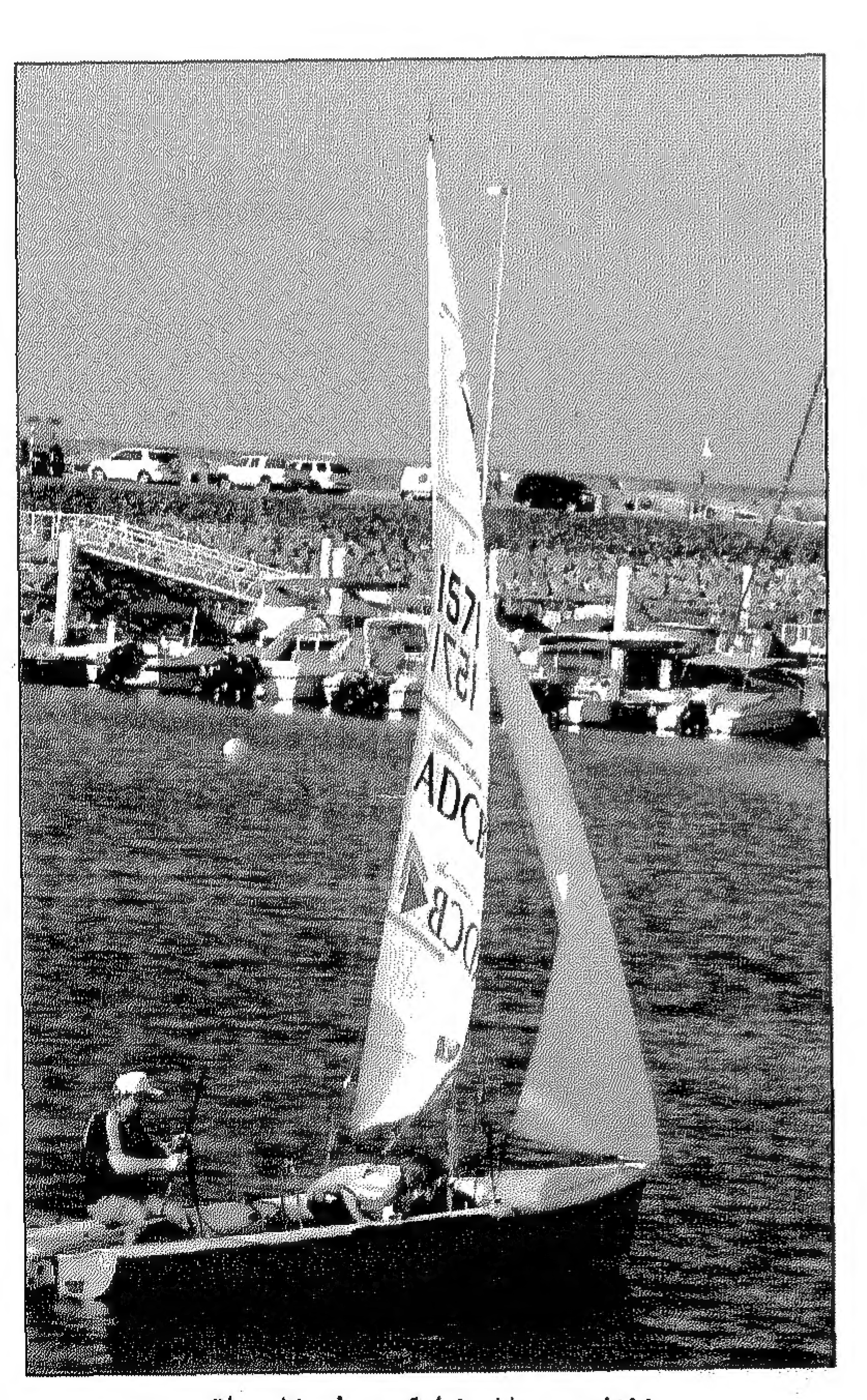
.. ولقاء أبوي مع أعضاء الفرقة الفنية

ونجاح كبير لبطولة اليخوت الشراعية

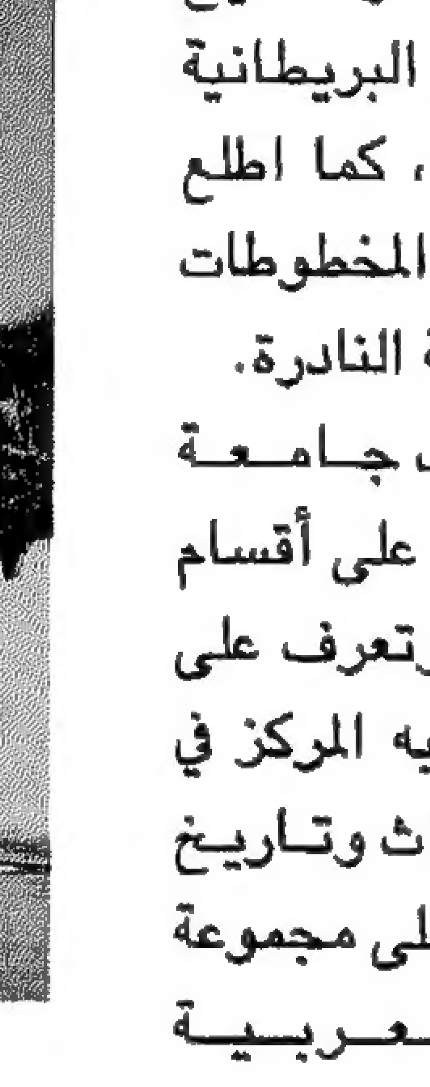
وحققت بطولة الإمارات الدولية المفتوحة لليخوت الشراعية الحديثة التي نظمها نادي تراث الإمارات تحت رعاية سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس النادي.. حققت البطولة نجاحاً كبيراً تجلى في التجمع الشبابي الذي شارك في المنافسات، وفي الجمهور الكبير الذي حرص على متابعتها.

مدرسة الإمارات للشراع التابعة للنادي أشرفت على تنظيم البطولة الذي جاء مثالياً وأشاد به المشاركون والمتابعون، شاركت في البطولة منتخبات وفرق من ١٦ دولة خليجية وعربية وآسيوية ممثلة في منتخبات: الإمارات العربية المتحدة، البحرين، سلطنة عمان، قطر، الكويت، المغرب، بريطانيا، إيطاليا، بلجيكا، أيرلندا، سيشل، ومشاركون من أندية الجاليات بالدولة وفريق الكلية البحرية.

ضمت البطولة مسابقات مفتوحة في الاوبتمست للمبتدئين والشباب والناشئين، والليزر ريديال والليزر ستاندرد، والكاتمران الزوجي المفتوح واليخوت وفقا للتصنيفات التي حددتها لائحة البطولة للفئات السنية ما بين سن ٧ سنوات وحتى ١٨ سنة بجانب الزوجي المفتوح وسباق اليخوت الكاتمران.■



واثنان من المشاركين في السباق



الإمارات

زيارات لأفرع نادي التراث

وفدان من جامعة زايد بأبوظبي ومن جامعة الإمارات زارا مركز زايد للتراث والتاريخ بالعين، ووفد من جمعية الهلال الأحمر زار جزيرة السمالية، وزار القرية التراثية على كاسر الأمواج بأبوظبي وفد من المشاركين في مؤتمر جودة إدارة المطارات الذي نظمته إدارة الطيران المدني بأبوظبي.

وفد طالبات جامعة زايد جاءت زيارتهن لمركز زايد للتراث والتاريخ بالعين ضمن خطتهن الدراسية لمساق الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية في الخليج، وفي إطار سعي المركز إلى تعزيز التعاون وتبادل الخبرات مع الهيئات والمؤسسات العلمية المهتمة بتراث وتاريخ الإمارات في المجتمع المحلي.. الوفد قام بجولة اطلع فيها على ما يقتنيه المركز من وثائق الأرشيف العثماني الخاصة بالمنطقة والخليج العربي، والوثائق البريطانية الخاصة بالإمارات، كما اطلع على مجموعة من المخطوطات العربية والإسلامية النادرة.



أما وفد طلاب جامعة الإمارات فقد اطلع على أقسام ووحدات المركز، وتعرف على الدور الذي يقوم به المركز في حفظ ونشر تراث وتاريخ الإمارات، واطلع على مجموعة المخطوطات العربية والإسلامية المهمة، والمصاحف الشريفة النادرة، والعملات العربية القديمة.

متطوعو الهلال الأحمر الذين زاروا السمالية تم تقسيمهم إلى أربع مجموعات توزعت في ميادين رياضة الفروسية والهجن والرماية والطيران الإلكتروني، حيث اطلعوا على تلك الأنشطة، كما زاروا المباني التراثية في الجزيرة وتعرفوا على إدارة البحوث البيئية وأقسامها وشاهدوا أشجار القرم والمناحل ومزارع تربية وتكثير الأسماك.

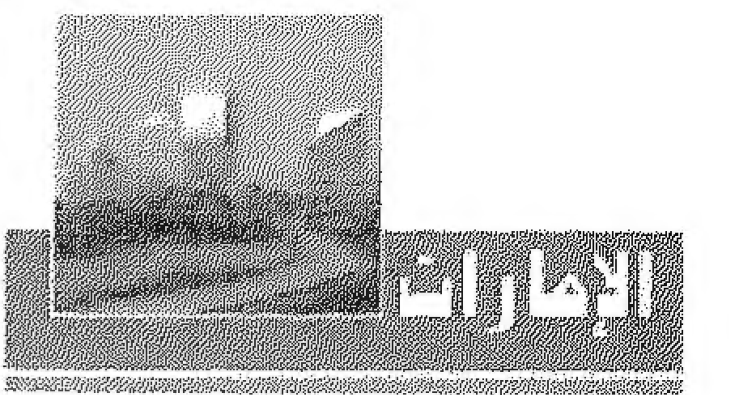
وفد مؤتمر الطيران المدني لقي من إدارة قرية التراث كل ترحيب حيث كان في استقبالهم عتيق بن قنون الفلاسي نائب المدير للشؤون التراثية في مكتب الرقابة والتطوير بنادي تراث الإمارات.. وقد أعدت لهم القرية جلسة عربية تناولوا فيها المأكولات الشعبية وشربوا القهوة العربية عنوان الكرم التراثي الأصيل، كما قدمت إحدى الفرق الشعبية فقرات من رقصة الحربية ترحيباً بالضيوف الذين قاموا بجولة ميدانية في السوق الشعبية، ودكاكين الحرف التراثية مثل صناعة الجلود، والزجاج والسيوف والخناجر والنسيج والطب الشعبي.■

مهرجان أسبوعي بالقرية التراثية

تنظم القرية التراثية التابعة لنادي تراث الإمارات مهرجاناً تراثياً شائقاً يومي الأربعاء والخميس من كل أسبوع، المهرجان يتضمن فتح أبوب القرية للزوار في الفترة المسائية خلال اليومين المحددين لمشاهدة الأنشطة التراثية متمثلة في المأكولات الشعبية والأدوات التراث وزيارات لبيوت البحر والبر للتعرف على حياة الآباء والأجداد بالقرية في الماضي، ومسابقات تراثية للجمهور الذي وجد متعة كبيرة في متابعتها.

ودورة للصقارين

كما تضمنت الفعاليات التي شهدتها القرية خلال الفترة الماضية دورة للصقارين نظمها فرع النادي بالزعفرانة لنحو ٢٤ طالبا من طلاب المرحلة الإعدادية، بواقع مرة واحدة يوم الثلاثاء من كل أسبوع في الفترة المسائية.. يتعلم خلالها المشاركون أصول وقواعد رياضة الصيد بالصقور وكيفية العناية بها وسلوكها وحياتها وتكاثرها وأنواع الطرائد الخاصة بها.■





نادي التراث يرصد خسوف القمر

تجمع عدد كبير من المواطنين والمقيمين عند قرية التراث ليشاهدوا خسوف القمر الذي حدث في الإمارات ليلة ١٥ مارس الماضي، الرصد قامت به رابطة هواة الفلك التابعة لإدارة البحوث البيئية بالنادي.■

اتحاد الكتّاب ينظم ملتقى باكثير في الشارقة

ينظم اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات مع مطلع شهر أبريل/نيسان الحالي في الشارقة الملتقى الأدبي والفكري الخاص بالشاعر والأديب علي أحمد باكثير.

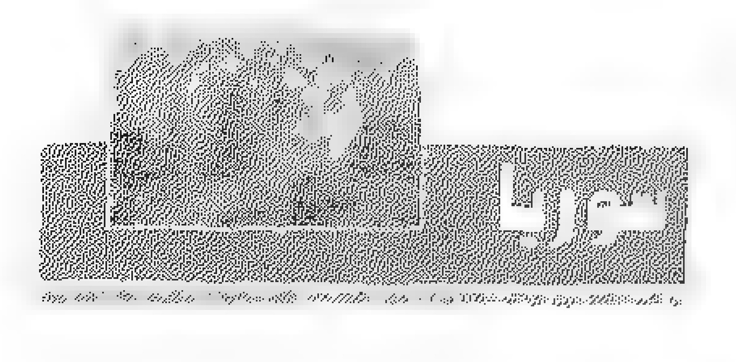
وسيتضمن برنامج الملتقى في اليوم الأول إلقاء د. محمد أبوبكر حميد (السعودية) سيرة حياة باكثير وأثرها في ثقافته وأدبه، بينما سيرصد د. عز الدين إسماعيل (مصر) مسرح باكثير الشعري وريادته للشعر الحر. وعن التجديد في شعر باكثير، سيقدم د. أحمد عبدالله السوميحي (اليمن) دراسة يتناول فيها ملامح ومرتكزات التجديد لدى باكثير.

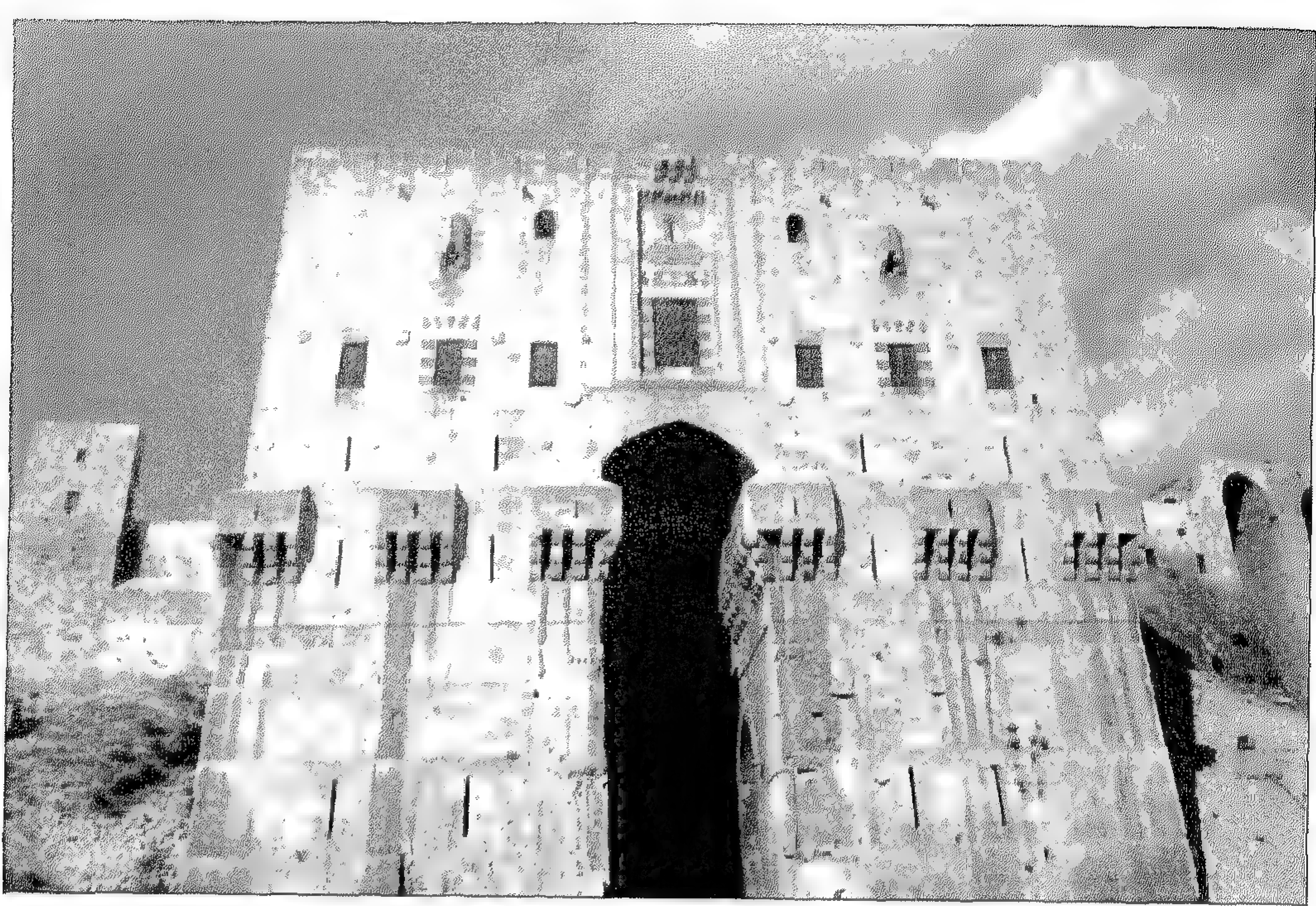
بينما ستختتم فعاليات اليوم الأول بالناقد د. حلمي محمد القاعود (مصر) الذي يرصد الرؤية الفنية والتصور الفكري في روايات باكثير التاريخية، بعدها تلقى قصيدة «إما نكون أو لا نكون» لباكثير وهي قصيدة لم تنشر من قبل.

أما فعاليات اليوم الثاني فسيبدأها الناقد د. حسن بن فهد الهويمل متناولاً علي أحمد باكثير أديباً إسلامياً، يعقبه د. أحمد السعدني (مصر) في دراسة حول مسرح باكثير السياسي قبل وبعد نكبة فلسطين، إضافة لمسرح باكثير النثري والقضايا التي تناولها.■

انطلاق فعاليات معرض أبوظبي الدولي للكتاب

انطلقت منذ أيام قليلة الدورة السادسة عشرة لمعرض أبوظبي الدولي للكتاب والتي تستمر حتى السابع من إبريل الحالي، وقد وصل عدد الدور المشاركة في المعرض قرابة ٣١٥ داراً تمثل ٢٠ دولة عربية وإسلامية توزعت ما بين ٢٢٢ داراً شاركت بشكل مباشر و٩٣ داراً عن طريق توكيلات، وبلغ عدد العناوين التي عرضتها دور النشر ٢٧٥ ألف عنوان عربي و١١٥ ألف عنوان أجنبي تعرض غالبيتها الإصدارات الإلكترونية في مختلف مجالات الثقافة والأدب والفكر والعلوم واللغات والتراث. المعرض إضافة إلى خطه الرئيس في بيع الكتب، يعتبر تظاهرة ثقافية دولية تجذب آلاف الزوار من داخل وخارج الدولة، وتتسم لياليه بنشاطات ثقافية متنوعة ما بين عروض مسرحية ومعارض تشكيلية وندوات ومحاضرات، ونشاطات خاصة بالأطفال، وقد حقق خلال الدورات السابقة نجاحاً كبيراً في دعم الكتاب والقارئ العربيين.■



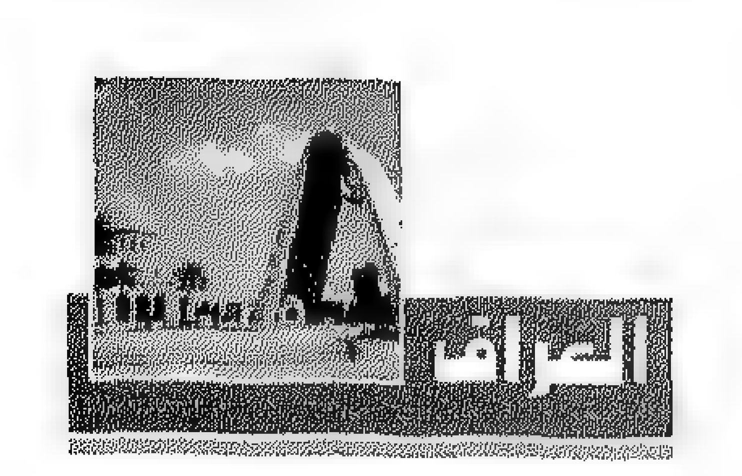


انطلاق احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية للعام ٢٠٠٦م

انطلقت ليلة السبت ١٨ مارس الماضي فعاليات احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م والتي تستمر عاماً كاملاً.

وشملت الاحتفالية إلقاء أكثر من مائتي محاضرة وعشر ندوات دولية شارك فيها باحثون من أنحاء العالم تناولت موضوعات حوار الحضارات وحقوق الإنسان والتسامح في الإسلام والعلاقة بين الأديان وحوار الأديان.

كما سيتم ضمن الاحتفالية طباعة أكثر من مائة كتاب حول حلب وتراثها وآفاق مستقبلها، وإقامة أكثر من عشرين معرضاً متخصصاً في الفن التشكيلي والتصوير الضوئي والصناعات التقليدية والأزياء التراثية والمخطوطات والوثائق والطوابع. فضلاً عن وضع خطة لترميم بعض المباني الأثرية في المدينة لتكون متاحف أو مدارس أو منتديات ثقافية.■



بغداد.. تفقد ذاكرتها

فقدت بغداد ذاكرتها الشهر الماضي على إثر وفاة المؤرخ العراقي المعروف الشيخ جلال الحنفي عن ٩١ عاما، وكان كاتباً وصحفياً ومؤرخاً ولغوياً، من مواليد ١٩١٥م في بغداد. ولكثرة اهتمامه بالتراثيات البغدادية أطلق عليه «ذاكرة بغداد». الحنفي بدأ حياته خطيباً لجامع المرادية في بغداد في ١٩٣٥م، ودرس في جامع الأزهر بمصر، وقام بتدريس اللغة العربية في معهدي اللغات الأجنبية في بكين وشنغهاي في الصين في ١٩٦٦م. ودرس علم التجويد في معهد الفنون الموسيقية في بغداد، وأجرى في علم العروض تصحيحات كثيرة ونشرها في كتاب. وله مؤلفات عدة في الفلسفة والسياسة ومعاجم اللغة الدارجة (الشعبية).

وكان الحنفي في آخر أيامه يقوم بعمله اليومي المعتاد كإمام لجامع الخلفاء، أقدم مساجد العاصمة العراقية.■



كما وصفها علي بن أبي طالب..

صورة الرسول صلى الله عليه وسلم

في ذكرى مولده الشريف صلى الله عليه وسلم.. تقدم «تراث» صورة قلمية وصفية لرسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم، وهي التي قدمها سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين سألوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «لم يكن بالطويل الممغظ. ولا بالقصير المتردد. كان ربعة من القوم ولم يكن بالجعد القطط. ولا بالسبط. كان جعداً رجلاً. ولم يكن بالمطهم. ولا بالمكلثم. وكان في الوجه تدوير. أبيض مشرب. أدعج العينين. أهدب الأشفار. جليل المشاش والكتد. أجرد ذو مسربة. شثن الكفّين والقدمين. إذا مشى يتقلع كأنما يمشي في صبب. وإذا التفت التفت معاً. بين كتفيه خاتم النبوة. وهو خاتم النبيين. أجود الناس صدراً، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة. وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أرَ قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم».

هذه الصفات.. برع الخطاطون وتباروا في رسمها بالخط العربي فيما سمي بالحلية الشريفة، ونالوا عليها أرفع الأوسمة في هذا المجال.. هذه الحلية كتب لنا عنها الدكتور إدهام محمد الحنش يستعرض تاريخها، وبراعة الخطاطين وتباريهم في إبداعها. ومنهم خطاطون إماراتيون نالوا عليها إجازة الخط من تركيا.. لكن قبل أن نسترسل مع الحلية والدكتور إدهام، نتوقف بضع أسطر مع الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية الذي تفضل مشكورا بتفسير معاني الكلمات التي وردت على لسان الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وصف الرسول:

المُمَّغِط: (بتشديد الميم الثانية وكسر الغين): وهو الطويل الذي ليس بالبائن الطول. ووصف عليٌّ رضي الله عنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: لم يكن بالطويل المُمَّغِط ولا القصير المتردِّد؛ أي: لم يكن بالطويل البائن، ولكنه كان رَبْعَةً.

المُتَردِّد: رجل مُتَردِّد: مجتمع قصير ليس بِسَبْط الخَلْق، وقول علي (رضي الله عنه) في صفته صلى الله عليه وسلم: ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردد أي المتناهي في القصر.

الرَّبْعَة: يقال: رجلٌ مربوع، ومُرْتَبَع (بفتح الباء)، ومرتبِع (بكسر الباء) وربع، وربعة (بسكون الباء) وربعة (بفتح الباء) أي: مربوع الخلق لا بالطويل ولا بالقصير.

قال ابن الأثير في ما نقل وروى في معجمه: في صفته صلى الله عليه وسلم: أطول من المربوع وأقصر من المُشَذَّب، فالمُشذَّب الطويل البائن، والمربوع الذي ليس بطويل ولا قصير، فالمعنى: أنه لم يكن مفرط الطول ولكن بين الربعة والمشذب.

الجَعْد: الشعر الجعد غير السبط: لأنَّ سبوطة الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب. فالسبط نقيض الجعد؛ والسبط هو المُسترسل غير الجعد، وفي صفته صلى الله عليه وسلم ليس بالسبط ولا بالجعد القَطط، فالسبط: المُنبسط المُسترسل، والقَطط: الشديد الجعودة، أي كان شعره وسطاً بينهما. وشعرٌ قَطَط: جَعْدٌ قصير: أو شديد الجعودة.

رَجِل: شعرٌ رَجَلٌ (بفتح الجيم) ورجِل (بكسرها) ورجْل (بسكونها) أي وسط بين السبوطة والجعودة. وفي صفته صلى الله عليه وسلم كان شعره رجلاً أي لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطة بل بينهما.

المُطَهَّم: الوجه المطهم: المنتفخ، والسمين الفاحش، والقليل اللحم، قال ابن سيده الأندلسي إنَّ المطهم في حديث علي رضي الله عنه يحتمل أن يفسر بالوجوه الثلاثة: أي لم يكن بالمدوَّر الوجه ولا بالموجن، ولكنه مسنون الوجه.

المكلثم: والمكلثم من الوجوه المستديرة الكثير اللحم، وقيل في شرح حديث علي (رضي الله عنه أي لم يكن مستدير الوجه، ولكنه كان أسيلاً. (ولا تكون الكلمة إلاّ مع كثرة اللحم).

أبيض مُشْرَب: أي مشرب حُمْرَة. أي بياضه ممزوج بِحُمرة.

أدْعج: الدعج شدة سواد العين، وشدة بياض بياضها؛ وقيل مع سعتها.

أهْدَب الأشْفَار: الأشفار جمع الشُّفْر (بفتح الشين وضمها) منبت الشعر في الجفن، والشعر الذي ينبت فيه: الهُدْب والجمع أهداب؛ والمراد أنه صلى الله عليه وسلم كان طويل شعر الأجفان.

المُشَاش (الواحدة مُشاشة) رؤوس العظام مثل المرفقين والكفين والركبتين، وجليل المشاش أي عظيم رؤوس العظام.

الكَتَد: مجتمع الكتفين من الإنسان (والفرس) وقيل أعلى الكتف وقيل هو الكاهل، وقيل ما بين الكاهل إلى الظَهر: وقيل من أسفل العنق إلى أسفل الكتفين (والكتَد) بكسر التاء وفتحها.

أجْرَد: الأجرد من الناس الذي لا شعر على جسده.

المَسْرُبة: اسم الشعر الذي ينبت وسط الصدر إلى البطن.

شثن الكفين والقدمين: أي أنهما تميلان إلى الغلَظ والقِصَر، وقيل هو الذي في أنامله غلَظٌ بلا قِصَر، ويُحمد ذلك في الرجال لأنه أشدُّ لقبضهم، ويُذَمّ في النساء.

تقلَّع في مِشْيَته: مشى كأنه ينحدر، أراد قوة مشيه وأنه كان يرفع رجليه من الأرض اختيالاً وتنعماً، ويقارب خطاه والانحدار من الصَّبب والتقلُّع من الأرض قريب بعضه من بعض.

العريكة: الطبيعة، يقال: فلان ليِّن العريكة، أي: ليِّن الخُلُق، قليل الخلاف والنفور، والعريكة أيضا النفس.

الناعت: الواصف.

وعن الحلية الشريفة يقول الدكتور إدهام محمد حنش:

ترجع الأصول اللغوية للفظة (الحلية) إلى الفعل

الثلاثي المجرد (حلا) الذي يستوعب في معجمه الخاص معاني عدة، تجمعها على العموم وتلخصها مباشرة، معاني[1]: الشكل، والهيئة، والصفة، والخلقة، والصورة.

ولكن السياق اللغوي والاصطلاحي لهذه اللفظة لم يكن حيادياً في دلالته على هذه المعاني، بل لم يكن مجرداً من الانحياز المعنوي والدلالي نحو الحُسن والجمال والزينة في مفهوم (الحلية) المتطابق في ما بين اللغة والاصطلاح. وربما لذلك، كانت (الحلية) اسماً لكل ما يُتَزين به، من مصاغ، أو جمال، أو خُلُق، أو غير ذلك، فأُطلقت اللفظة، في عهودها اللغوية والاجتماعية المتعاقبة حتى اليوم، بشكل عام وتلقائي، على زينة المرأة من مصاغ الذهب والفضة وقطع الأحجار الكريمة وغير ذلك من مواد الجمال، بعد أن كانت عبارة (حلية السيف) هي منطلقها في سياق هذا المعنى وهذه الدلالة، في عهودها اللغوية والاجتماعية المبكرة، على سبيل الحقيقة، كما يتضح من الحديث النبوي الشريف الذي يرويه الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) في صحيحه: «لقد فتح الفتوح قوم ما كانت حلية سيوفهم الذهب ولا الفضة...»، أو على سبيل المجاز في اعتبار (الوضوء: حلية المؤمن) استلهاماً من الحديث النبوي الشريف الذي يرويه الإمام مسلم (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م) في صحيحه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

وهكذا كان شيوعها على هذا المفهوم الجمالي الواضح، فتوالت بها أقوال الوصف الجميل للأشياء، حتى قيل في الأثر: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن: الصوت الحسن»، و«حلية المنطق: الصدق»، و «الخط الجميل: حلية الكاتب»، و «الفقر: حلية الأولياء».

وصارت (الحلية) تُطلق مصطلحاً على بعض الأشكال والعناصر التزيينية والوظيفية، مثل: (حلية الأحزاب) في المصحف الشريف، و(حلية الباب) في العمارة الإسلامية، وغير ذلك.

ولكن أهل اللغة والبيان جعلوا (الحلية) أو (التحلية) أكثر تحديداً في دلالتها على «وصف الرجل الذي يُفْصَلَ به، بينه وبين غيره، ممن يوافق اسمُه اسمَه»[2]، فدخلت (الحلية) بهذا المفهوم ركناً أساسياً في (فقه التوثيق)[3] الذي يعنى بإيراد صفات الأشخاص وشياتهم، بقصد التعريف التام والدقيق بهم، وهو ما كان الأساس المنهجي لـ (علم الرجال) في موازنة (الجرح والتعديل)، مثلاً، لتحديد كفاءة رواة الحديث النبوي الشريف.

وبعد هذا التحديد في دلالة اللفظة على وصف الرجل وصورته، نقترب نحو مفهوم أكثر تحديداً، وأدق خصوصية، يكاد يغلب في دلالته على ما كان يُعنى به أهل الحديث بعامة، ومؤرخو السيرة النبوية الشريفة وفقهاء السنة النبوية المطهرة بخاصة، من الصفات الخَلقية والخُلقية للرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهي ما أطلقوا جميعاً عليها مصطلح: «الشمائل النبوية» أو «الشمائل المحمدية».

ويكاد مصطلح (الحلية الشريفة) يغلب في دلالته على هذه الشمائل النبوية، عند أهل العلم والأدب والفن المسلمين بعامة، وعند الخطاطين منهم بخاصة.

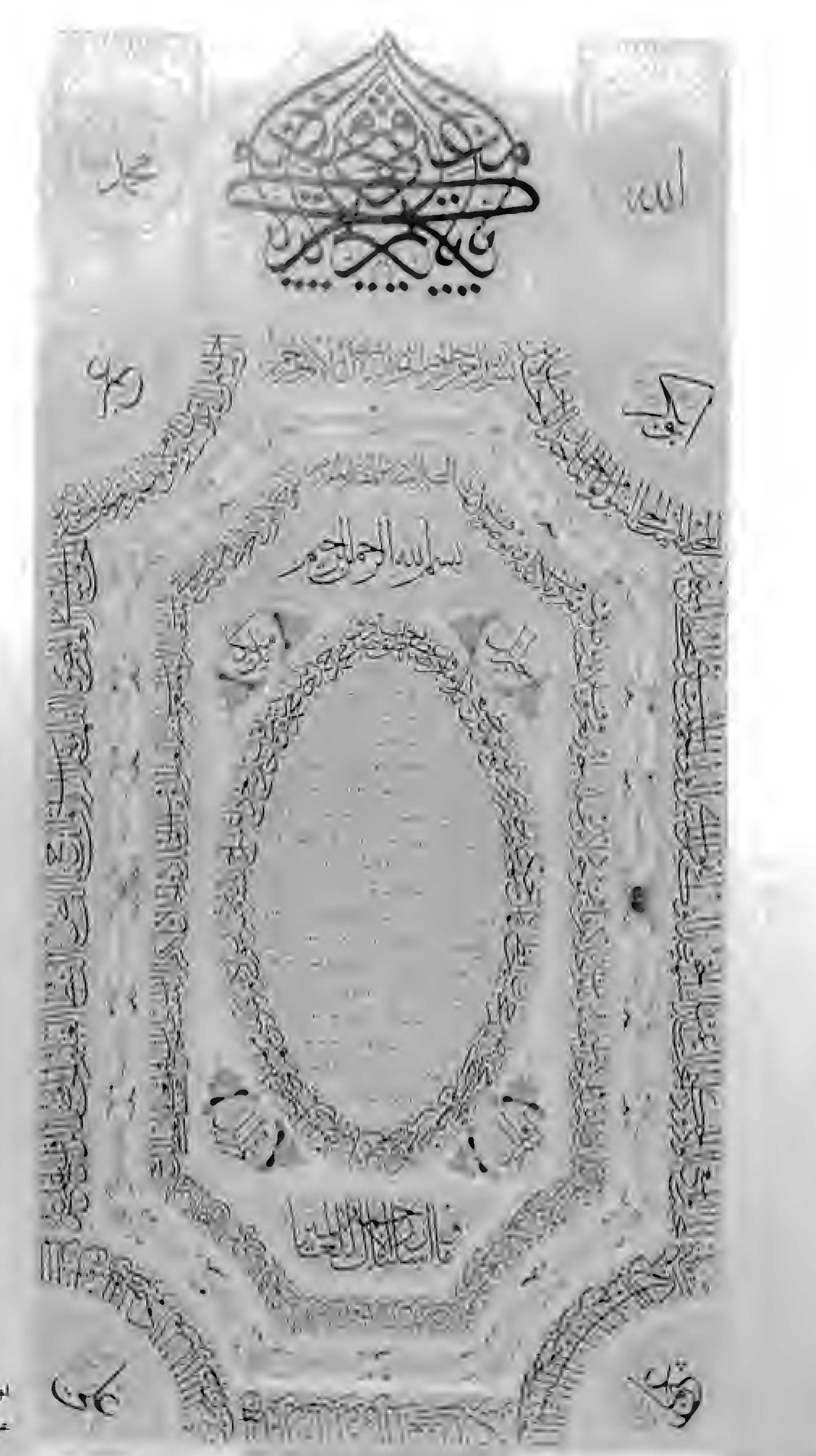
(الحلية الشريفة) فن الشمائل النبوية

حظيت (الشمائل النبوية) من الصفات البدنية للوجه والقامة والشعر واللون وغيرها، ومن الهيئات السلوكية كالمشي والجلوس والاضطجاع والفرح والحزن والأكل والشرب والضحك والمزاح والنوم والكلام وغير ذلك، ومن العوائد الشخصية كالخاتم واللباس والخف والسيف والعمامة وسوى ذلك، بعناية خاصة ومميزة عند أهل الحديث والسيرة والسنة الذين اهتموا كثيراً بتوثيق معالم هذه الشمائل، الفعلية والقولية والمادية، بوصفها عنصراً مهماً وأساسياً من عناصر السيرة، ومصدراً حيوياً ورئيسياً من مصادر السنة، من خلال ما رواه المحدّثون بها وعنها، حتى أثمرت عنايتهم هذه عن تصنيف هذه الشمائل النبوية وأحاديثها الصحيحة والمسندة، معرفياً، في مجال علمي خاص من مجالات السنة النبوية الشريفة.

وقد التزم الخط العربي في التعبير الجمالي الرائع والأخاذ عن أوصاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهيئاته السلوكية في الحركة والسكون.

لقد قدّم فن الخط العربي في هذا المجال عدداً من اللوحات الفنية المتباينة في بنائها الشكلي والمعماري، وفي مضمونها، وفي خصوصية وظيفتها الفنية. وأبرز هذه اللوحات، على سبيل المثال لا الحصر، هي[4]: (القطعة)، و(المرقعة)، و(الحلية الشريفة) هي الأبرز.

وتتميز (الحلية الشريفة)، بين هذه اللوحات الخطية وغيرها، بأنها الأبرز قيمة والأكثر تميزاً والأوسع شهرة والأوفر حظاً وقبولاً عند خاصة المسلمين وعامتهم. أخذت اسمها من حلية الرسول (صلى الله



لوحة الحلية الشريفة لمحمد عزيز رفاعي

عليه وسلم) ووصف شمائله، إذ كانت في المصطلح الفني للخط العربي عبارة عن لوحة خطية، مزخرفة ومذهبة أحياناً، ذات شكل فني خاص ومميز، وذات مضمون محدّد بحديث معّين من أحاديث الشمائل النبوية، ويغلب الحديث الذي يرويه الإمام علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه ورضي الله عنه، في وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) على جل، بل كل، لوحات (الحلية الشريفة) بدون استثناء يذكر[٥]، وهو الحديث الجامع لشمائله (صلى الله عليه وسلم).

بنيتها وخصائصها الفنية

تتألف بنية الشكل العام للوحة (الحلية الشريفة) من عناصر مكانية أساسية معينة ومرتبة على النحو الآتي[٦]:

– المقام: وهو عبارة عن مستطيل يقع في أعلى هذه اللوحة. وهذا المكان مخصص لكتابة البسملة لا غير.

– السرة: وتتخذ عادة شكلاً دائرياً أو بيضوياً، أو تأخذ أحياناً شكل المربع. وهي تحتل المكان المركزي والأكبر والمهم من البنية الكلية لهذه اللوحة، إذ يكتب في هذا المكان الجزء الأول والرئيس من حديث الشمائل الخاص.

– الهلال: ويأتي في التسلسل الثالث من حيث الأهمية والمكان، ليلتف عادة بأسفل الشكل الدائري أو البيضوي للسرة. وقد يغيب الهلال أحياناً عن اللوحة، أو يتلاشى داخل الدائرة أو البيضة، ولذلك يمكن القول: إن وجود الهلال لايعد شرطاً من شروط التكوين الفني في بناء لوحة الحلية، لأنه عنصر زخرفي تكميلي في الجمال أكثر من كونه مكاناً مخصوصاً لكتابة النص. – المحيط: مربع قد يستطيل بشكل عمودي قليلاً، ويكاد هذا المكان يكون مخصصاً في الغالب للزخرفة لا للنص، إلاّ نادراً في بعض لوحات الحلية التي يعمد صانعوها إلى توزيع دوائر في أركان محيطها، تحمل إمّا أسماء النبي (صلى الله عليه وسلم) أو أسماء خلفائه الراشدين (رضي الله عنهم) أو أسماء صحابته العشرة المبشرين بالجنة (رضي الله عنهم).

– المقام الثاني: وهو الآخر، مثل المقام الأول، عبارة عن مستطيل، يقصر طوله أحياناً ليكون مربعاً كاملاً في أبعاده العريضة الواضحة. وهذا المقام يتناظر مع سابقه في شاكلة الحرف ونوع الخط، ويتكامل معه في احتوائه على النص، وفي نوع الخط المكتوب به.

– الذيل: وهو مستطيل آخر، أو مربع، يقع في أسفل اللوحة، ويكاد يختص باحتوائه على دعاء الكاتب الخطاط، مع اسمه، وتاريخ فراغه من كتابة اللوحة عادة.

– الكرسي: هو عبارة عن إبط مستطيل الشكل، صغير المساحة، يقع على جانبي الحلية، وبذلك يكون هناك كرسيان اثنان في الحلية الواحدة التي تحتوي على هذا العنصر المكاني، وظيفتهما: الزينة بالزخرفة فحسب.

خصائص فنّية

أمّا الخصائص الفنية للوحة (الحلية الشريفة) فتبدو في كونها مصنوعة صناعة خاصة ومقصودة من حيث الشكل والمضمون أولاً، ومن حيث العناصر والمواد والفنون الداخلة في إنجازها ثانياً، لتكون بذلك أنموذجاً جمالياً صادقاً للفن الإسلامي.

فمن حيث الشكل والمضمون، جاءت (الحلية الشريفة) لتكون أصلاً فنياً من أصول الخط العربي الجمالية بخاصة، والفن الاسلامي بعامة، من خلال تلازم عضوي وحميم بين الشكل التقليدي شبه الثابت لها، إلا بعض الاستثناءات الفنية النادرة في الخروج على هذا الشكل الخاص[٧] والمميز بعناصره المكانية والتصميمية الأساسية المحددة والمصنوعة في ضوء الرؤية الإسلامية الناصعة عندها منجزاً ثقافياً، بالمعنى العام والشامل للثقافة، تجريدياً.. بعيداً عن التمثيل والتشخيص والتجسيم.. وبين المضمون الشريف الذي يتمثل في خصوصية النص القائمة على صحة الشهادة وسلامة التوثيق – كما يقول فقهاء التوثيق وعلماء الرجال في مصطلح الحديث – في وصف شخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتصويره على النحو الذي يدرك المتأمل في هذا النص ملامح هيئته الشريفة في الحركة والسكون. ولاشك في أن هذه الصورة البلاغية تُغني إلى حد كبير عن أية صورة أخرى، وبخاصة الصورة البصرية المحسوسة التي حذر منها الشرع الحنيف، بل وتستعيض عنها بما يمكن أن يستشعره المتأمل في (الحلية الشريفة) من أن شخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتراءى له كأنّه يراه.

أمّا العناصر والمواد الفنية الداخلة في صناعة الحلية فهي أساساً لاتخرج عن تلك المعروفة في الفن الإسلامي. فالعناصر الفنية الأساسية للوحة (الحلية الشريفة) تتمثل في فنون: الخط العربي، والزخرفة،

لوحة بخط مصطفى راقم



لوحة الحلية للخطاط حامد الآمدي

والتذهيب. أمّا مواد (الحلية) الصناعية فهي في الغالب: الورق والأقلام والأحبار والألوان المعروفة في الفن الإسلامي. ولابد من أن نشير هنا إلى أن لوحة (الحلية الشريفة) لا يصنعها فنّان مسلم واحد، فعلى الرغم من أن الخطاط يلعب الدور الأول والرئيس في صناعتها، وإليه تنسب بوصفها منجزه الفني الخاص، إلا أنه يشترك معه على سبيل إتمام الصناعة على أكمل وجه، فنانون آخرون كالمزخرف والمذهب.

أنواع الخطوط المستخدمة

وحسبنا أن نأخذ فنون (الحلية) هنا ونقول: إن أنواع الخط العربي المستخدمة بشكل عام وشبه محدّد في كتابات الحلية هي: الثلث، والنسخ، والتعليق، وعلى نحو محدود وقليل: المحقق، والرقاع، أمّا زخرفة الحلية وتذهيبها، فقد كانتا من أكبر عنايات أهل الفن الإسلامي، وبخاصة العثمانيون منهم، الذين ابتكروا أساليب زخرفية خاصة ومتميزة، تقوم على وحدات تقليدية معروفة فنياً وتاريخياً، فمن هذه الأساليب على سبيل المثال لا الحصر: (الهلكاري) الذي يغلب استخدامه على إنتاج أغلب لوحات الحلية، وهو أسلوب يعتمد على طلاء الفراغات الموجودة في ما بين الوحدات الزخرفية الواضحة في اللوحة بالذهب على نسق متدرج من كثافة اللون إلى تلاشيه تقريباً مع طلاء حواف هذه الوحدات الزخرفية بالذهب الغامق أو باللون الأسود.

وكثيراً ما كان صانعو الحلية يضعون في أعلى لوحاتهم، من الوحدات الزخرفية، شكلاً هندسياً نجمياً يعرف بنقش الخاتم أو خاتم سليمان، وهو يرمز إلى اليُمْن والبركة.

وتتوزع هذه الفنون مكانياً على عناصر الحلية ومكوناتها، ففن الخط يشغل المقامين والسرة، بينما تتوزع زخرفة الحلية وتذهيبها على أغلب الأماكن المحيطة فيها كالإطار العام والهلال والكرسي وغيرها.

أعمال (الحلية الشريفة) الحديثة

تعد (الحلية الشريفة) إبتكاراً عثمانياً في الفن الإسلامي، يأتي في سياق اهتمام العثمانيين الكبير، وعلى نحو خاص، بفن الخط، وربما لذلك كانوا يسمونها أيضاً: (حلية السعادة)[٨].

وينسب فضل السبق الأول في ابتكارها إلى الخطاط العثماني الشهير بالحافظ عثمان



لوحة بخط الحافظ عثمان

(ت١١١٠هـ/١٦٩٨م) الذي قيل بأنه كان أول من كتب الحلية في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، إذ نقلها عن إحدى الروايات الموثوقة في كتب السيرة النبوية المعتبرة عن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم وخصاله، ثم جعلها على شكل لوحة تصلح للتعليق على الجدران[٩].

وصارت الحلية عند الخطاطين أفضل الأعمال الفنية التي يطلبون تنفيذها في مسيرتهم الإبداعية والوظيفية، لذلك، يندر أن يكون أحد من هؤلاء الخطاطين لم ينجز الحلية، أو لم يحاول العمل على إنجازها، على أقل تقدير، بل إن بعض هؤلاء الخطاطين كان كأنّه أوقف حياته الفنية والعملية على كتابة الحلية وإنجازها، فكتب الخطاط العثماني المعروف بقاضي العسكر مصطفى عزت (ت١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، مثلاً، ما يزيد على مائتي حلية[١٠].

وتعد جهود الخطاطين، منذ القرن الرابع عشر

الهجري / العشرين الميلادي حتى الوقت الحاضر، مهمة متميزة بل وأساسية في سياق المنجز الفني للحلية، وجديرة بالتقويم والتحليل في سياق النقد الفني للخط العربي بخاصة، والفن الإسلامي بعامة. ولاشك في أن طبيعة هذه المقاربة الدراسية ووظيفتها في تناول (الحلية الشريفة) مادة لأثر الفن الاسلامي في خدمة السنة النبوية المطهرة، تستلزم الإشارة التاريخية والفنية العاجلة إلى بعض هذه الجهود، أكثر من أي عمل آخر معها، وبخاصة العمل النقدي التحليلي.

من هذه الجهود، على سبيل المثال لا الحصر: أعمال (الحلية الشريفة) للخطاط التركي محمد خلوصي يازغان [١١] (ت١٣٥٨هـ / ١٩٤٠م) الذي كان واحداً من أولئك الخطاطين القلائل الذين اختلفوا عن أقرانهم من الخطاطين الآخرين في كتابة الحلية، فكتبها بخط التعليق[١٢] وحده، بدلاً من خطوط المحقق والثلث والنسخ، بل يمكن القول: إن الحلية التي كتبها هذا الخطاط عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م، تعد أجمل الحليات المكتوبة بخط التعليق على الطريقة التركية. ويذكر صاحب كتاب (فن الخط) بأن الفنانة مهربان سوزر قد قامت بزخرفة هذه الحلية عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٣م.

وكانت أعمال (الحلية الشريفة) عند آخر رئيس

لوحة بخط هاشم البغدادي وزخرفها تحسين آي قوت

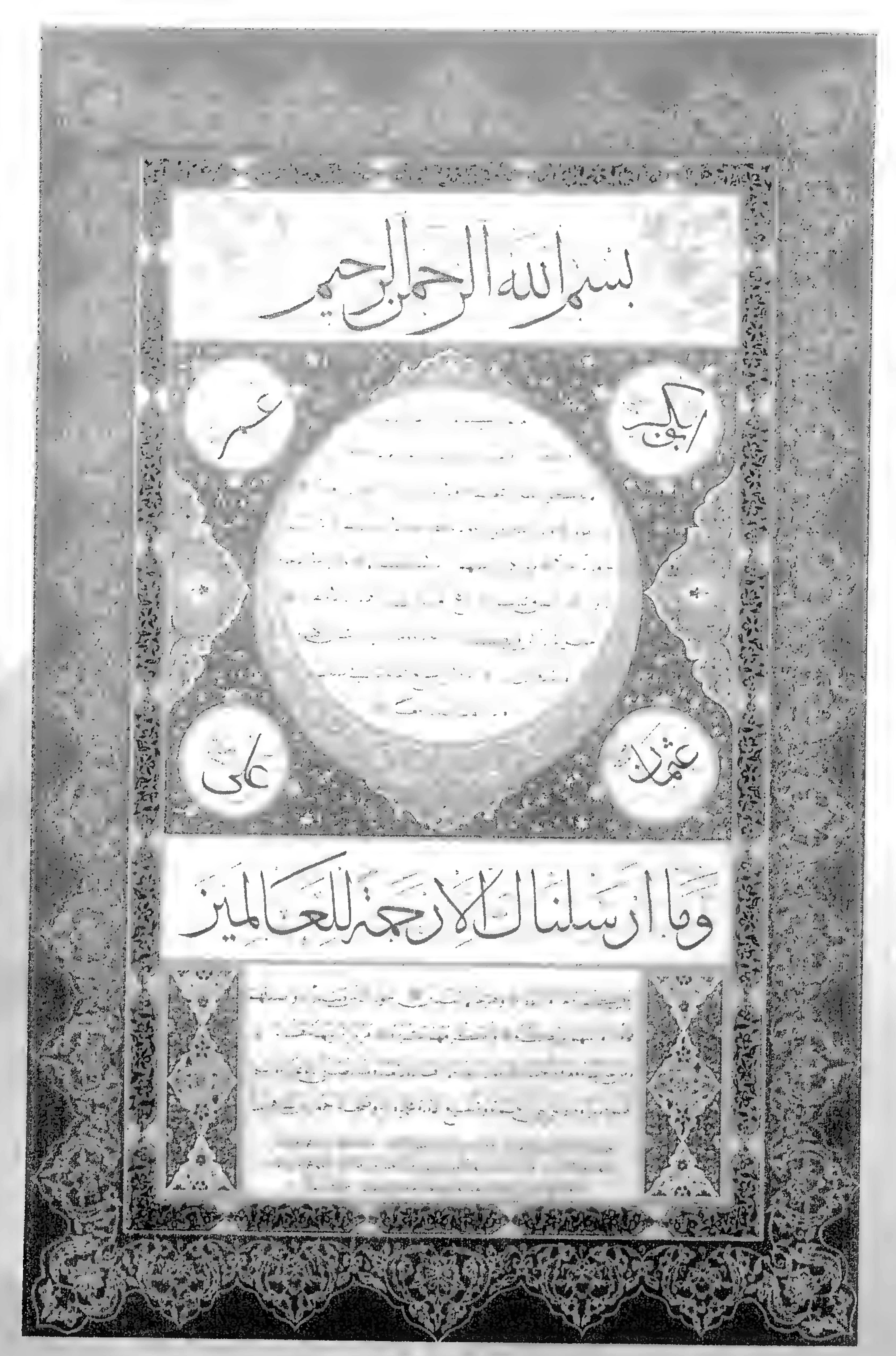
للخطاطين في الدولة العثمانية، الخطاط الحاج أحمد الكامل [١٣] (ت١٣٦٠هـ / ١٩٤١م) أكثر عناية بالفن التقليدي واهتماماً بالإنتاج، بحيث أن النظر في هذه الأعمال يحيل المتأمل مباشرةً إلى جودة الاتقان العثماني لفن الخط، وعظمة هذا الاتقان في خطي الثلث والنسخ بخاصة، وهما الخطان اللذان عُني بهما الخطاطون، تقعيداً وتجويداً وأداءً، لكتابة المصحف الشريف، أولاً وقبل كل شيء، ولكتابة (الحلية الشريفة). وكان الخطاط أحمد الكامل أستاذ هذين الخطّين في (مدرسة الخطاطين)، قد مضى على هذا التقليد العثماني للكتابة بهذين الخطين فأنجز عدداً من لوحات (الحلية الشريفة) لعل من أبرزها: الحلية المكتوبة عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

ومثله فعل زميله في (مدرسة الخطاطين) وفي الانتماء إلى هذا الفن الذي جعله خاتمة الخطاطين العثمانيين: حامد الآمدي [١٤] (ت ١٤٢٠هـ / ١٩٨٠م) في كتابة العديد من المصاحف الشريفة، والعديد من لوحات (الحلية الشريفة). وكان المزخرفون والمذهبون يتنافسون في زخرفة لوحاته هذه وتذهيبها. ولعل من أبرز هؤلاء الفنانين: محسن دميراوناط (ت١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ورقت كسونت (ت١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، وفاطمة جيجك درمان، أستاذة فن التذهيب الإسلامي المعاصر، التي قامت بزخرفة أعداد كبيرة من لوحات الخطاطين الأتراك الكبار، القدامى والمحدثين والمعاصرين، وتذهيبها.

وسار على منوال محسن دميراوناط، تلميذه المبدع الخطاط العراقي هاشم محمد البغدادي (ت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) الذي كتب أكثر من عشر لوحات من (الحلية الشريفة)، مزخرفة ومذهبة ببراعة تامة على أيدي الفنانين الأتراك والعراقيين الذين كان من أبرزهم: تحسين آي قوت ألب، وعصام الصعب[١٥].

وإذا كانت أشهر هذه اللوحات التي أبدعها الخطاط البغدادي هي تلك المكتوبة عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م، والتي حصل بها على الإجازة من أستاذه الخطاط حامد الآمدي، فإن من المفيد أن نشير هنا إلى ذلك التصرف الفني الابتكاري والمتميز الذي صنعه هذا الخطاط في إحدى لوحاته من (الحلية الشريفة)، وهي تلك المكتوبة عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، عندما وضع عبارة (محمد رسول الله) داخل متن حديث الشمائل في سرة الحلية[١٦].

وهكذا تواصلت (الحلية الشريفة) عبر أعمال هؤلاء



لوحة الحلية للخطاط الإماراتي محمد عيسى خلفان

الخطاطين وجهودهم في إبراز القيم الجمالية والإبداعية للفن الإسلامي، وهي ما تزال تتواصل حتى اليوم، من خلال نتاجات الخطاطين العرب والمسلمين المعاصرين، وبخاصة منهم الشباب الذين أبدعوا في مجال فن الخط بعامة، وفي كتابة (الحلية الشريفة) بخاصة، مثل: الخطاط السعودي ناصر عبد العزيز الميمون (ولد عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م) الذي كتب حلية رائعة بخطي الثلث والنسخ. والخطاط الإماراتي محمد عيسى خلفان (ولد عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م) الذي كانت لوحته المكتوبة عام (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، إجازةً قيمةً له في الخط من أستاذه الخطاط العراقي الكبير الدكتور صلاح الدين شيرزاد.. وأخيراً، وليس أخراً، الخطاط المغربي محمد أمزيل (ولد عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م) الذي كتب الحلية عام (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ليحصل بها على الإجازة من أستاذه الخطاط التركي المعاصر حسن الجلبي.

أثرها في خدمة السنة النبوية

تكشف أية مقاربة نقدية فنية عامة، أو نقدية إسلامية خاصة، تشتغل علمياً ومنهجياً على لوحة (الحلية الشريفة) ونتاجاتها الأولى والحديثة والمعاصرة على حد سواء، عن كونها، بلا شك، عملاً فنياً إسلامياً أصيلاً.

وتتمثل أصالة (الحلية الشريفة) في طبيعة هذا العمل الفني الابتكارية، وفي خصائصه الموضوعية والذاتية، وفي وظيفته الاجتماعية والدينية الرامية إلى خدمة الإسلام بعامة، وخدمة السنة النبوية الشريفة بخاصة. وهذه، بلاشك، هي الشروط المعرفية المتلازمة للبحث والتحليل في أهمية هذا العمل الفني الإسلامي ومكانته وآثاره النافعة، في ضوء الرؤى والمنطلقات الإيمانية الإسلامية الصحيحة بوصفها المرجع الفلسفي الجمالي الخاص لهذا العمل الفني الذي ينطلق، أولاً وقبل كل شيء، من حقيقتين اثنتين، تمثلان المدخل الشرعي الأمين إلى مقاربة (الحلية الشريفة) مقاربة نقدية فنية إسلامية ناجعة:

– الأولى تتمثل في المقام العظيم والمكانة السامية والمنزلة الرفيعة للرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) عند الله عز وجل وعند المسلمين. وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة، كما يقول الفقهاء، فهو (صلى الله عليه وسلم) رسول الله عز وجل إلى خلقه أجمعين. أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وقد رفع الله ذكره، وأعلى قدره، وصلّت ملائكته عليه، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، فهو (صلى الله عليه وسلم) سيد ولد آدم، وصاحب المقام المحمود. ولذلك، فإن الواجب على المسلمين حفظ هذا المقام العظيم وهذه المكانة السامية وهذه المنزلة الرفيعة للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في النفوس والقلوب والعقول والأعمال، واحترام شخصه الكريم (صلى الله عليه وسلم) وتقديره وتعظيمه التعظيم اللائق به شرعاً.

أما الحقيقة الثانية فهي: إن مكانة السنة النبوية الشريفة، بوصفها أحد أهم مصادر التشريع الإسلامي، تأتي بلا شك بعد مكانة القرآن الكريم في الإسلام وعند المسلمين. ومن هنا، تمثّل هذه السنة، في الفن الإسلامي على وجه الخصوص، النسق الجمالي النموذجي الثاني بعد النسق الجمالي الذي يمثله القرآن الكريم. وفي هذا السياق، تمثل (الشمائل النبوية)، بوصفها مبحثاً من مباحث السنة، مادة فنية أساسية ورئيسة لهذا النسق الجمالي النبوي.

وعوداً على ما تقدم، وفي ظل هاتين الحقيقتين، يمكن أن نستبين الشروط المعرفية لمقاربة (الحلية الشريفة) من عد الفقه الاسلامي للجمال بعامة، والفن بخاصة، من مقاصد الشريعة، تحت ما أسماه الإمام الشاطبي (أبو اسحاق إبراهيم بن موسى المالكي، ت ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) بـ (التحسينات)[١٧].

ولعل المقاصد التحسينية هذه هي التي عبدت الطريق أمام النقد الفني الإسلامي إلى البحث المعرفي في طبيعة الفن وتصنيفه ووظيفته، فأثمرت بعض المحاولات عن صياغة رؤية إسلامية، نابعة من الشرع الحنيف ومنسجمة معه، تنظر، في خلاصتها، إلى الجمال على أنه يتخطى الشكل إلى ما وراءه، وإلى الفن على أنه عمل ثقافي مركب من مضمون وشكل معاً.

وتحاول هذه الرؤية الإسلامية بناء تصنيفها المعرفي الخاص للفنون نابعاً من قول الله تعالى: (ولاتقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً)[١٨]، ليستند بذلك إلى كل من اللغة والحس، ويقسم الفنون إلى: لغوية، وسمعية، وبصرية، وسمعية بصرية.

وفي ضوء ذلك كله، تتحدد الطبيعة الفنية للوحة (الحلية الشريفة) عملاً فنياً إسلامياً خالصاً وأصيلاً من حيث المضمون ومن حيث الشكل، فمن حيث

المضمون اعتمدت (الحلية الشريفة) نصاً واضحاً ومعلوماً من نصوص الحديث النبوي الشريف الصحيحة، ومن حيث الشكل اعتمدت اللوحة الفنون البصرية أو التشكيلية التجريدية، وهي: الخط، والزخرفة، والتذهيب.

ومن هنا، يمكن أن ندرك أهمية هذه اللوحة في طبيعتها الفنية هذه، فهي بذلك تنتمي انتماءً كلياً إلى الفن الإسلامي، وتعبّر عنه تعبيراً شرعياً مقبولاً، في تصوير الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) تصويراً بيانياً يعتمد اللغة والحس في مستوياتهما اللفظية والكتابية والأسلوبية والبلاغية والموسيقية والبصرية، إذ أن (الحلية الشريفة) هي الصورة البيانية التجريدية المعبرة عن شخص الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في شمائله التي نصّت عليها السنة النبوية الشريفة.

ولا تقف خدمة (الحلية الشريفة) للسنة النبوية المطهرة عند هذا الالتزام الشرعي بتصوير رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والتعبير الفني الإسلامي عن (الشمائل النبوية)، حسب، بل وتذهب إلى إبرازوظيفة الفن الإسلامي العبادية والحياتية من خلال مطلب المسلمين الشرعي منها، في التقرب إلى الله عز وجل، وفي رجاء الشفاعة، والتماس البركة.■

الهوامش والمراجع:

(١) ينظر: المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لاروس، تونس ١٩٨٩م، ص٣٥٠.

(٢) البرهان في وجوه البيان: ابن وهب الكاتب (اسحاق بن ابراهيم بن سليمان، ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧م، ص٣٦٣.

(٣) بلاغة الوصف في فقه التوثيق: أحمد باكو، دعوة الحق (مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية. الرباط)، العدد ٣٦٧، ربيع الاول- ربيع الثاني ١٤٢٣هـ/ مايو- يونيو ٢٠٠٢م، ص١٠٠.

(٤) ينظر: الخط العربي في الوثائق العثمانية: إدهام محمد حنش، دار المناهج، عمان ١٩٩٨م، ص١٤٦-١٥٣.

(٥) يذكر أن بعض لوحات (الحلية الشريفة) قد كتبت، وعلى نحو محدود جداً، بنص حديث الشمائل برواية الإمام الحسن بن علي (رضي الله عنه)، المذكور في: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، تأليف القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

(٦) ينظر :

M. Ugur Derman: THe (Hilye) about the prophet in Turkish Calligraphic art, ILGI Mec.,1st, December 1979, no.28,p32.

(٧) حاول الخطاط العثماني عبد القادر شكري (ت ١٢٢١هـ/١٨٠٦م) الخروج على شكل لوحة (الحلية الشريفة) التقليدي بإضافة صورة شجرة السرو في المحيط على جانبي الصورة، وكتابة أسماء الله الحسنى داخل إطار صورتي شجرتي السرو هاتين، على جانبي متن الحلية، وكتابة حديث قدسي في مقام ثالث إضافه في أسفل اللوحة. ينظر: فن الخط، إعداد مصطفى أوغور درمان، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استنبول ١٩٩٠م، ص٢٠٤.

(٨) مصور الخط العربي: ناجي زين الدين، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٧٤م، ص ٢٠٤.

(٩) فن الخط: إعداد مصطفى اوغور درمان، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استنبول ١٩٩٠م، ص٢٠٦.

(١٠) المرجع نفسه، ص٢٠٥.

(١١) المرجع نفسه، ص٢١٦.

(١٢) أول من كتب (الحلية الشريفة) بخط التعليق هو الخطاط العثماني محمد أسعد اليساري (ت ١٢١٣هـ/ ١٧٧٨م)، وتلاه في ذلك ابنه الخطاط يساري زادة مصطفى عزت (ت ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م). ينظر: فن الخط ص٢٠٢.

(١٣) الخطاط التركي الشهير أحمد الكامل: ملك جلال، ترجمة إحسان هشام التركماني، منشورات جمعية الخطاطين الأردنيين، عمان ١٩٩٧م، ص١٤-١٥، وينظر: فن الخط ص٢١٧.

(١٤) حامد خطاط القرن العشرين (ملف)، حروف عربية مجلة فصلية تعنى بشؤون الخط العربي. دبي، العدد الثاني، السنة الأولى، شوال ١٤٢١هـ / كانون الثاني٢٠٠١م، ص ٢٢-٢٧. وينظر: فن الخط، ص٢٢٤.

(١٥) الأنامل والأثر (سيرة فنية للخطاط هاشم محمد البغدادي): إدهام محمد حنش، جمعية الخطاطين العراقيين، بغداد ١٩٩٧م، ص١٥.

(١٦) ينظر: شكل اللوحة المنشور في: البغداديون، أخبارهم ومجالسهم: إبراهيم عبد الغني الدروبي، مراجعة: أسامة ناصر النقشبندي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٠١م، ص٢٤٤.

(١٧) ينظر: الموافقات في أصول الشريعة: الشاطبي، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٥، ط٢، ج٢، ص٨.

(١٨) سورة الاسراء: ٣٦.

الشعر في رحاب المولد النبوي

■ عبد الرازق سالم علي

كانت البشرية تتخبط في ظلام دامس ، فالدولة الرومانية تبسط سلطانها على أوروبا كلها وتحتل بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب، حتى عندما نخرت في عظامها الوثنية والفساد الخلقي والطبقية والانحلال الاجتماعي. وأما في الشرق، فقد عاثت المجوسية فساداً، حين دانت للنار بالعبادة ونشرت التحلل، فتفسخ المجتمع، وأصبحت حياة الناس لا تطاق.

وفي الجزيرة العربية تفرقت كلمة العرب وأضلتهم عبادة الأوثان، وأنهكتهم الجاهلية بعاداتها، وألقت بهم في مهاوي الهلاك وأصبحوا بلا وزن ولا قيمة.

كان هذا هو حال العالم قبل مولد المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، وقبل أن يرسله الله سبحانه وتعالى بالرسالة هادياً وبشيراً، ولعلّ أروع تصوير لتلك الحالة المزرية هو ما عرضه أمير الشعراء أحمد شوقي متحدثاً عن تلك الحقبة السوداء في التاريخ الإنساني عندما قال:

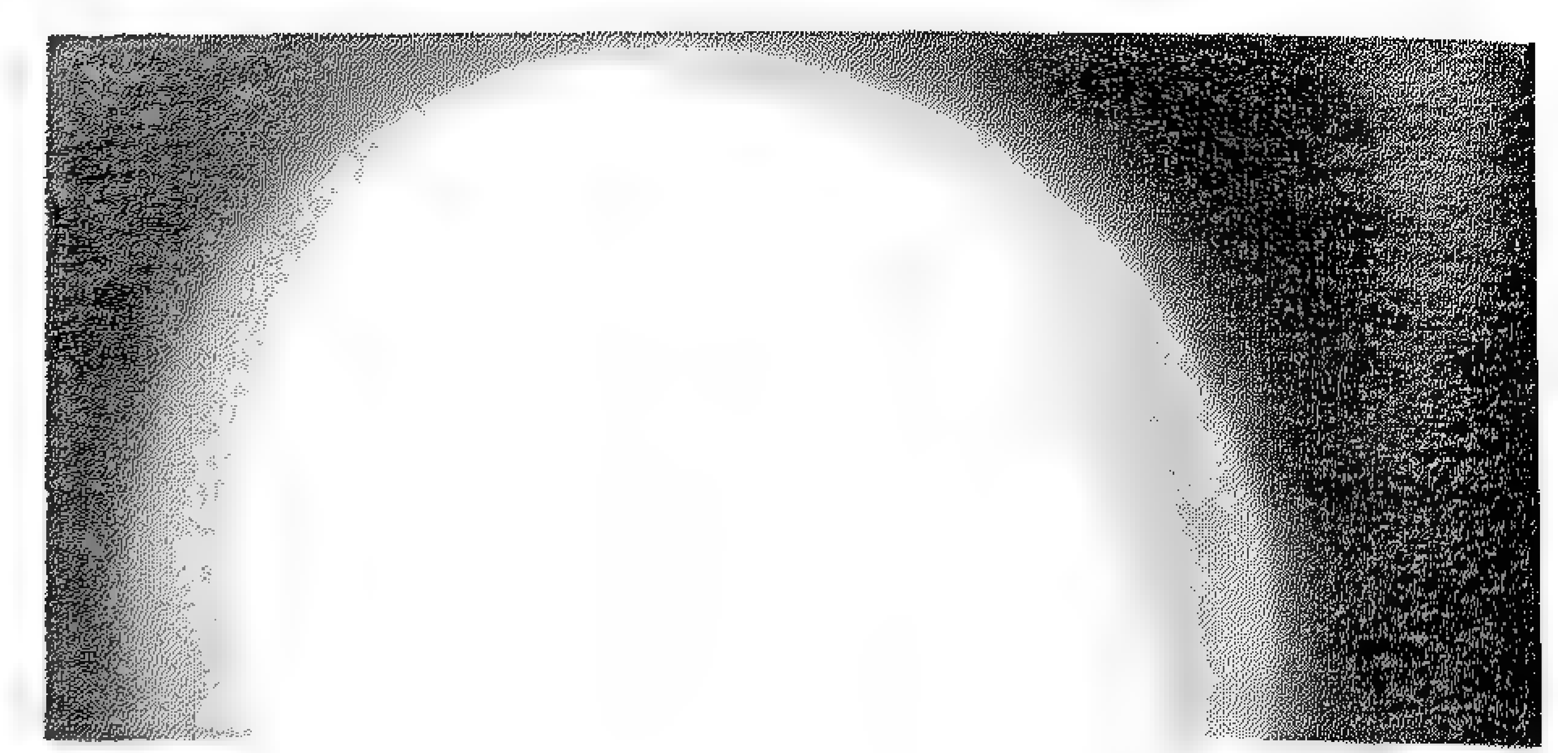
وأصبح الناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم
و الأرض مملوءة جوراً مسخرة
لكل طاغية في الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عم
يُعذبان عباد الله في شُبه
ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبَهم أو كالحوت بالبلم

في تلك الفترة من التاريخ البشري تدنت حياة البشر إلى أدنى مستوى، وانحدرت إلى منحدر سحيق، وازداد الأمر سوءاً لدى اليهود الذين كانوا يفاخرون بالوحي السماوي، حين عمدوا إلى وحي السماء، الذي نزل على قلب موسى الكليم عليه السلام، فبدلوه، وحرّف أحبارهم الكلم عن مواضعه، فابتعدوا تماماً عن وحي السماء وامتلأت الأرض جوراً وظلماً.

من هنا امتدت الرحمة الإلهية لتلك الإنسانية البائسة، وكان الغيث الذي تشوقت إليه الأرض الظامئة بمولد خير البشرية –محمد صلى الله عليه وسلم –نوراً بدّد الظلام وأحيا النفوس.

ولد صلى الله عليه وسلم من شجرة زكية الأصول، واقترن ميلاده المبارك بأحداث عظام هزت أركان الدنيا وعمت الجن والإنس على السواء، ونالت الأرض والسماء. يقول البوصيري:

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدأ منه و مختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم
قد أنذروا بحلول البؤس و النقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه و النهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
وَرُد واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلل
حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف و الأنوار ساطعة
والحق يظهر من معنى ومن كلم



عـمـوا و صـمـوا فـإعـلان الـبـشـائـر لم
تسـمـع وبـارقـة الإنـذار لم تُـشَـم
مـن بـعـد مـا أخبر الأقـوام كـاهـنـهـم
بـأن ديـنـهـم المعـوج لم يـقـم
وبـعـدمـا عـايـنـوا في الأفـق مـن شـهـب
مـنـقـضـة وفـق مـا في الأرض مـن صـنـم
حـتـى غـدا عن طـريـق الـوحـي مـنـهـزم
مـن الشـيـاطـين يـقـفـو إثـر مـنـهـزم

وكان المولد حدثاً جللاً به اتصلت الأرض بالسماء، و تعانقا فرحاً بأعظم أيام الدنيا على الإطلاق.

يقول شوقي في همزيته الشهيرة:

بك بشـر الـلـه السـمـاء فـزيـنـت
وتضـوعت مسـكـاً بك الـغبراء
وبـدا محيـاك الـذي قسـمـاتـه
حـق وغـرتـه هـدى وضـيـاء
وعـلـيـه مـن نـور الـنـبـوة رونـق
ومـن الخلـيـل وهـديـه سـيـمـاء
يـوم يـتـيـه عـلـى الـزمـان صـبـاحـه
ومسـاؤه بمحـمـد وضـاء
والآي تترى والخوارق جـمّـة
(جبريـل) رواح بـهـا غـدّاء

وفي خير بقعة من بقاع الأرض؛ وفي أحب بلاد الله إلى الله ولدت آمنة بنت وهب خير مولود. فجاء مولده على قدر، أرج مكة و باركها، وضوّع يثرب ونواحيها.

يقول شوقي في غزليته البائية الرقيقة:

وأسـدت لـلبريـة بـنـت وهب
يـداً بـيـضـاء طـوقت الـرقـابـا
لـقـد وضـعـتـه وهـاجـا مـنيرا
كـمـا تـلـد السـمـاوات الشـهـابـا
فـقـام عـلـى سـمـاء الـبيت نـوراً
يضـيء جـبـال مـكـة و الـنـقـابـا
وضـاعت يثرب الـفـيـحـاء مسـكـاً
وضـاع الـقـاع أرجـاء وطـابـا

وما أروع هذه الصورة البديعة، وأشكالها المزدانة التي رسمتها ريشة أمير الشعراء في هذه اللوحة الشعرية عذبة الموسيقى.

تجلـى مـولـد الـهـادي
يضـيءُ الـكـون مـوسـمـه
بـدا تسـتـقـبـل الـدنـيـا
بـه خيراً تـوسـمـه
ويـحـلـيـهـا تـبسـمـه
يـجـمـلـهـا تـهـلـلـه
يـقـوم بـه عـن الأب
ويـن جبريـل و يـخـدمـه

حتى الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) وهو من كبار شعراء النهضة وممن لم يدينوا بالإسلام؛ هز شاعريته هذا الحدث واعتبره عيد الخلق أجمعين:

عـيـد البريـة عـيـد المولـد الـنـبـوي
في المشـرقين لـه و المغـربين دوي
عـيد الـنـبـي بـن عـبـد الـلـه مـن طلعت
شـمس الـهـدايـة مـن قـرآنـه الـعـلـوي

وما كان هذا المولد إلا بشرى موسى الكليم وعيسى المسيح عليهما السلام.

يقول صاحب هذه السطور:

لـيـهـنك مـن سـنـا الميلاد ذكـرى
ورشـفك مـن كـؤوس الحب خـمـرا
وبشـرى الـنـور يـبـعـثـهـا يسـوع
تضـوع والـكـلـيـم يسـوق بشـرى

ومن الشعراء المعاصرين نردف بالصورة التي رسمها الشاعر محمد التهامي حين قال:

كـل لحن راح يـطـوي سـنـة
تـبـعث الأنـغـام حـيـنـاً بـعـد حين
تـعبر الأنـغـام في سـمـع الـورى
لا صـدى فـيـهـا ولا فـيـهـا رنين
غير لحن عـبـقـري خـالـد
فـيـه نـور مـن جـلال الخالـديـن
رحـمـة المولى تـبـدي نـورهـا
وأضـاءت في خـتـام المرسـلين
صـاغـه الـرحـمـن نـوراً وهـدى
وارتضـاه رحـمـة لـلـعـالمين■



تربية النشء ضرورة.. وأسس التربية السليمة في تعاليم الرسول الكريم

الإعجاز التربوي في عصر النبوة

■ أ.د. علي أسعد وطفة

في الوقت الذي كانت فيه أوروبا في العصر الوسيط غارقة في الظلام كان الشرق العربي الإسلامي يومض بالنور ويتدفق بالحضارة. فالإسلام دين الحق والحقيقة هبة الله للبشرية، وقد أكرم الله بلاد العرب بنور النبوة ورحمة الإسلام وحمّل النبي الأعظم رسالة كونية إلى البشرية جمعاء قوامها التوحيد والعدل والإخاء والإنسان.

جاء الإسلام نور هداية للعرب والمسلمين، وكان العرب قبل الإسلام يعيشون في جحيم جاهلية لا ترحم. في جاهلية تتغذى على سفك الدماء ووأد البنات، جاهلية رفعت من الأصنام آلهة، ومن عبودية المرأة دستوراً، ومن الجهل فلسفة، جاهلية مزقت الأرحام وهتكت الأعراض وقتلت الأنفس. ثم جاء الإسلام بنور النبوة ليحقق للعرب المشتتين المهزومين ما يفوق أحلامهم ويتجاوز حدود طموحاتهم في حياة إنسانية أفضل وأرحب.

ولم يكن الإسلام مجرد عقيدة إيمانية فقط بل كان دعوة إنسانية تتسم بطابع الشمول والعمق. فالإسلام كان رسالة أخلاقية ودعوة اجتماعية وحركة سياسية هدفت إلى تحرير الإنسان والانتقال به من دنيا التعصب والعصبية إلى دنيا المحبة والسلام، ومن خواء الروح إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره[1].

فالإسلام يشكل منطلق نظرة شاملة إلى الكون والحياة الإنسانية بمختلف جوانبها وتجلياتها الروحية والعقائدية. وتتجلى هذه الرؤية الشمولية في صورة فلسفة قدسية تميزت بطابع الشمول والعمق الإنساني. لقد تبلور في البيان القرآني قول فصل بأن النبي محمد هو رسول الله إلى البشر أجمعين وارتسم في البيان الإلهي قوله تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)[2]. ويتألق شمول هذه الفلسفة الإنسانية بأسمى أبعادها في قوله الكريم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[3]).

لم يكن الإسلام مجرد عقيدة سماوية روحية خلاقة فحسب، بل كان ومازال يشكل وسيشكل أبداً منهجاً فكرياً خلاقاً يشتمل بذاته على منظومة من الأنساق التربوية والفكرية والاجتماعية للوجود الإنساني برمته.

كان النبي محمد عليه صلوات الله وسلامه نبياً ومبشراً ومعلماً ونذيراً وسيبقى أبد الدنيا مربياً للإنسانية وهادياً لها. إنه قدر الإنسانية والخير فيها إذ جاء ليعلم البشرية بفيض أنواره وتجليات أسراره منهج الحياة والتفكير والعمل، إنه قدوة الإنسانية وأسوتها، وفي هذا يقول رب العرش العظيم: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»[4].

مصادر التربية الإسلامية

تستمد التربية الإسلامية منهجها وغايتها وطرائقها وأهدافها ونسغ مبادئها من مصادر إسلامية أربعة رئيسة: القرآن الكريم بوصفه منهج الإسلام ودستوره ونسغ حركته الروحية، ثم السنة النبوية الشريفة، وسيرة النبي وخلفائه الراشدين، وأخيراً المفكرون العلماء من المربين المسلمين. ولا يمكن الحديث عن تربية إسلامية ما لم يستند الباحث إلى هذه المصادر الأساسية الأربعة. ولا يمكن لنا أن نجد نظرية تربوية واضحة المعالم في نسق هذه المصادر، بل يتوجب على المفكرين استنباط الدلالات والإشارات التربوية في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة. فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يضع نظرية تربوية يمنهج فيها الروح الإسلامية للتربية، بل كان في سلوكه وتعاليمه وأحاديثه النبوية يعلن منهجا تربويا يتسم بالوضوح والدقة والرهافة، وما على الباحث غير العمل على تصنيف هذه الإشارات وتنظيم الدلالات واستخراج الكنوز الفكرية والعملية للتربية الإسلامية السمحاء.

كانت التربية هي السبيل الذي سلكه محمد عليه الصلاة والسلام (٥٧١-٦٣٢م) لإحداث أعمق تغيير روحي وأخلاقي عرفه التاريخ في نفس الإنسان[5]. واستطاع النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يدك معاقل الشرك في الجاهلية والوثنية في مكة، وأن يقيم للإسلام دولة في الجزيرة وبعدها ليؤسس أتباعه أكبر إمبراطورية إسلامية في التاريخ[6].

لقد أحدث الإسلام ثورة شاملة في المعايير والقيم التي كانت سائدة في الجاهلية، واستطاع أن يحدث طفرات تربوية هائلة في تكوين الإنسان وفي تركيبته العقلية التي كانت تهيمن عليه. لقد تغيّر منظور الإنسان إلى الكون والحياة كما تغيرت نظرته إلى نفسه وإلى طبيعة الوجود. لقد أنهض الإسلام في الإنسان عشق الحقيقة وحب التضحية وسما به إلى آفاق أخلاقية يندر مثيلها في التاريخ قديمه وحديثه. ويمكن أن نورد مثلا لهذا التحول الإنساني الشامل في الشاعرة العربية الخنساء التي بكت أخاها «صخرا» في الجاهلية دهرا من الزمن تندبه وتذرف الدمع، سجلت عبر حزنها هذا أروع وأجمل ما في أدب الرثاء من قصائد خالدة. فلما جاء الإسلام وشرفها أنها دخلت فيه وآمنت بنبيه وبرسالته، حدث لها من تغيّر في أحوالها بتغير انتقالها من الجاهلية إلى الإسلام ما يصعب على التصديق وما يتجاوز حدود الخيال والوهم. فها هي في موقعة القادسية تنادي أولادها الأربعة، وتدعوهم للتضحية في سبيل العقيدة الإسلامية، وكان أولادها في مقتبل العمر وعزة الشباب وعظمة الخلق ورهافة الحس، شباب وفتيان صقلهم الإيمان بالإسلام وهذبتهم الشريعة وأغدق الله عليهم عطفه الشامل وحبه الكامل بالشهادة، ها هي تناديهم وتقول لهم بلغة إسلامية وبيان استلهم معين وجوده من أدب القرآن: يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنت حبكم، ولا غيرت نسبكم، وأعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية فاصبروا

وصابروا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أرواقها فتمموا وطيسها، وجلدوا رسيسها تتقربوا إلى الله وتظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة. فلما أضاء لهم الصبح، باكروا إلى مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية أمهم لهم حتى قتلوا عن آخرهم، فلما علمت بمصرعهم جميعا قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

فالتربية كانت المنهج الذي اعتمده النبي عليه الصلاة والسلام (٥٧١-٦٣٢م) لإحداث أعمق تغيّر أيديولوجي عرفه التاريخ في نفس الإنسان، وهو المنهج الذي استطاع به أن يجند رجالا يقضون على معاقل الشرك والوثنية في مكة، ويقيمون للإسلام دولة في الجزيرة العربية، ثم يقيم أتباعه من بعدهم إمبراطورية كبرى تحل محل أكبر إمبراطوريتين في ذلك التاريخ وهما إمبراطوريتا الفرس والروم وكل ذلك في أقل من ثلث قرن في عمر الزمان[٧]. وغني عن البيان أن التربية التي أحدثها نبي الله لم تكن تربية مدرسية بالمفهوم الضيق للكلمة، وإنما كانت تربية شاملة: مدرسية وغير مدرسية: في المسجد والشارع، في المنزل والمدرسة، في ميدان القتال، في الصلاة والصوم والزكاة والحج، وفي كل لحظة من لحظات النهار والليل[٨].

دلالات التحول العظيم

ويمكن الإشارة إلى هذا التحول التربوي والعقائدي العظيم في التكوين الروحي والإنساني والعقائدي للمسلمين عبر المقارنة



■■

النبي يضع أسسا عملية ونظرية تربوية متكاملة في تربية الأطفال سيكولوجيا

■■

بين وضع أهل مكة قبل الإسلام وبعده، ولنا عبرة في قصة هذا الجيش الذي قدم به أبرهة من الحبشة إلى مكة لهدم بيت الله الحرام، إذ يروي التاريخ الهلع الذي أصيب به أهالي مكة فخرجوا منها من فرط خوفهم وهلعهم، فلجأوا مذعورين إلى سفوح الجبال، ينتظرون حكم القضاء في أرضهم ومقدسهم، ولم يظهروا أية مقاومة بل كانت تعمهم روح الاستسلام والهزيمة بمطلق أحوالها. ولكن النبي بنهجه القرآني وتربيته الإسلامية استطاع أن يغير منهج حياتهم وأن يحدث ثورة إسلامية في نفوسهم، وهاهم هؤلاء الضعفاء قبل مجيء الإسلام، يظهرون شجاعة وجسارة يندر مثيلها في تاريخ الأمم والشعوب بتحديهم وصمودهم هذه المرة لأعتى وأشد قوى الدنيا في زمنهم بطشاً وفتكاً، لقد وقفوا في وجه الفرس والروم في الآن الواحد، واستطاعوا أن يخوضوا أعظم الحروب، ويفتحوا هذه البلدان العظيمة التي تساقطت أمام بطولاتهم وتضحياتهم وتفانيهم في خدمة الإسلام والظفر بأعدائه. تلك هي المدرسة المحمدية وذلك هو النصر العظيم الذي انتقل بالناس من حالة الضعف الشامل والهزيمة الروحية والانحدار الأخلاقي إلى حالة الانتصار والإحساس العظيم بنشوة النصر الإسلامي في مختلف جوانب الحياة والوجود. هذه هي الرسالة وتلك هي المدرسة التي غيرت وجه التاريخ وحركة الكون في عالم الإنسان.

التربية الإيمانية

يشكل الإيمان بالعقيدة الروحية للإسلام مبتدأ الوجود وخبره. فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله يشكل غاية كل غاية، ونهاية كل طموح تربوي في

الإسلام، فالعقيدة الإسلامية بجوانبها الإيمانية هي الأساس المكين لكل فضائل الوجود قاطبة.

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس يولي الإسلام الجانب الديني العقائدي والروحي أهمية فائقة تتجاوز أبعاد التصورات. فالتربية تهدف في نهاية الأمر إلى تحقيق الغاية من الخلق وهي الإيمان بالله تعالى وتوحيده. وتأسيساً على ذلك يرسم الإسلام منهجا تربويا أصيلا ومباركا لترسيخ أسس العقيدة الإيمانية في نفوس الأطفال ومنذ المراحل المبكرة لولادتهم.

والتربية والتعليم في هذه المرحلة يفضّلان أن يكونا بالتدرج ضمن منهج متسلسل متناسب مع عمر الطفل العقلي. ففي الخامسة من عمره يعلم الصلاة والسجود، وعندما يبلغ العاشرة من العمر يعلّم الوضوء ويؤمر بالصلاة ويضرب عليها.

ويعتمد الإسلام في تعليم الطفل الصلاة على مبدأ القدوة الحسنة لأن الطفل يقلد والديه بالدرجة الأولى حين يراهما يصليان، وهذا يعني أن سلوك الوالدين يشكل الأساس الذي ينطلق منه الأبناء إلى الإيمان بالله وممارسة العبادة.

وتعد محبة النبي وتعظيمه إحدى ركائز الإيمان في الإسلام. ومن هنا يشدد الإسلام على أهمية تربية الأطفال على حب نبيهم، حيث لا يكون إيمان من غير محبة صاحب الرسالة وحبيب الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أدبّوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن»

وتؤكد المدرسة النبوية على أهمية تعليم القرآن وتلاوته في الصغر لأن ذلك يؤصل مشاعر الإيمان بالله عند الطفل، ويرسخ كل القيم والمعاني الإسلامية التي يتضمنها المنهج القرآني، والتي تجعل الطفل في المستقبل من أصحاب الإيمان ومن دعاة الهداية والتقوى. وينصح بتعليم الطفل في البداية الآيات والسور القصيرة التي يمكنه فهمها وإدراك معانيها، والطفل في مرحلة الطفولة أكثر قدرة على استظهار الآيات القرآنية وحفظها.

ومن هذا المنطلق وعلى أساس ما تقدم يمكن القول بأن التربية الإسلامية للطفل تنطلق من التوجهات التالية:

– وجوب تربية الطفل منذ الصغر على مبدأ الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه وقضائه وقدره. وأن يتم تلقين الطفل هذا الإيمان بأسلوب تربوي فعال يتميز بالبساطة والمرونة ويعتمد على مبدأ القدوة الحسنة.

– الطفل يحتاج وبصورة مستمرة إلى قراءة القرآن والتفقه فيه ما أمكنه إلى ذلك سبيلا، لأن منهج الإسلام يستقر في آيات الله وفي كتابه العظيم.

– تأصيل محبة النبي عليه الصلاة والسلام في نفوس الأطفال وفي قلوبهم وهذا شرط مطلق في إيمان المسلمين كافة.

– تعريف الطفل بالسيرة النبوية والسنة المحمدية بما تنطويان عليه من أحاديث ومواقف وحكم أخلاقية وتعاليم روحية.

– تعليم الطفل وبصورة مستمرة أداء الفروض الدينية من صلاة وصوم وزكاة وعبادة وحج، لأنها السبيل إلى مرضاة الله وتأصيل الروح الإسلامية في الإنسان المسلم المؤمن.

– معرفة الطفل منذ نعومة أظفاره أن رحمة الله لا تنقطع أبدا وأن غفرانه قريب دائما وأن أبواب التوبة إلى الله مشرعة دائما وأبدا. وهذا يبعد الطفل عن الإحساس باليأس والقنوط أمام حوادث الزمان.

– إيقاظ إحساس الطفل بالمسؤولية أمام الله وحثّه على الشعور بواجبه، وتعليمه بأن الله يراقب ويرى ما يقوم به العبد، وأنه تعالى لا يخفى عنه شيء وأنه يجازي ويعاقب ويحاسب.

التربية العاطفية والانفعالية

جاء محمد نبي الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وجاء للطفولة دفق محبة ورحمة سماوية أغدقها الله على الأطفال المسلمين. ولم يشهد تاريخ الإنسانية أبداً مربياً كان أكثر حناناً وحباً للأطفال كما كان هو النبي العربي الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

فقد كان رؤوفاً بالأطفال رحيما بهم، يداعبهم ويناغيهم ويسهر على راحتهم ويعلي من شأنهم. ويُروى عن نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرى في تقبيل الأطفال ومداعبتهم واحترامهم منهجاً تربوياً أصيلا. وقد جاء في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قبّل الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا فقال الأقرع: «إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء إعرابي إلى النبي صلى الله

المنهج النبوي يؤكد على أن الأخلاق هي جوهر الرسالة ومنطلق العقيدة

عليه وسلم فقال تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»[٩]. وتقبيل الطفل من أفضل الوسائل التربوية في تشكيل الطفل عاطفياً وإنسانياً، وفي هذا الأمر يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا من قبلة أولادكم، فإن لكم بكلّ قبلة درجة في الجنة» ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من قبّل ولده كان له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة».

وليس هناك أجمل من الهدهدة ولمسات الحب والحنان التي كان صلى الله عليه وسلم يكرم بها الأطفال ويغدقها على أحفاده وأبناء صحابته الأكرمين. فقد ثبت في الصحيحين، عن أبي قتادة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو يحمل أمامه بنت زينب بنت رسول الله، وهي لأبي العاص بن الربيع فإذا قام حملها وإذا سجد وضعها[١٠]. وفي هذا الحنان تتألق عظمة النبي ويتجلى حبه للطفولة. وكثيرا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يضم الحسن والحسين وهما صغيران إلى صدره يقبلهما ويضعهما في حجره الشريف.

وفي غمرة الشواهد التاريخية على حب النبي للأطفال ومداعبته لهم، يشار إلى رواية عبد الله بن شداد، وفيها أنه بينما كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته، قالوا قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر، فقال: إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجاته[١١].

وما أكثرها من شواهد وإشارات على عظمة هذا الحب ونقاء هذا العطف وصفاء هذه الروح النبوية. فالنبي

الأكرم صانع أمجاد الأمة وملهم حضارتها كان يداعب الأطفال الصغار ويلاعبهم. ويروي الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمشي على أربعة (أي على يديه ورجليه) وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول: «نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما»[١٢].

وقد وصل النبي في تكريمه للأطفال أنه كان يبادئهم السلام على ما هو عليه من عظم الشخصية ونبل الرسالة السماوية، وبذلك كان يحترم شخصيتهم ويكرمهم. وهكذا يجب على المسلمين أن يبدأوا الأطفال بالسلام لأن منهج النبي عليه الصلاة والسلام يؤكد هذا التوجه وهو توجه تربوي أصيل يهدف إلى بناء الشخصية الإسلامية، وهذا البناء هو شرط انتشار الإسلام وتفتق قيمه الحضارية في مستقبل الأيام.

ولم يقف النبي عند حدود ممارسته الخاصة في حب الأطفال والعناية بهم بل كان يوجه الدعوة إلى إسعاد الأطفال وإحياء الفرحة في قلوبهم، وفي هذا يقول «من فرّح ابنته فكأنما أعتق رقبة من وُلد إسماعيل، ومن أقر عين ابن فكأنما بكى من خشية الله»[١٣].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيد محبة الأطفال «أحبوا الصبيان وارحموهم»، وكان يقول ويكرر داعيا إلى الرحمة وإلى المحبة: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا»، وهو في هذا الاتجاه كان يكيل المديح لنساء قريش لما يتميزن به من حنان وحب تجاه أطفالهن. وكان عليه الصلاة والسلام يقول «من كان عنده صبي فليتصاب له». أي يلاعبه، ثم كان يردف صلى الله عليه وسلم: «رحم الله عبدا أعان ولده على بره، بالإحسان إليه، والتألف له، وتعليمه وتأديبه».

أسس العلاقة بين الكبار والصغار

في استعراضنا لمنظومة من الإشارات النبوية في تربية الأطفال والعناية بهم نستطيع أن نقول بأن هذه الإشارات والإفادات التربوية تؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام قد وضع أسسا عملية واضحة ونظرية تربوية متكاملة في التوجه نحو تربية الأطفال سيكولوجيا. إذ تبين لنا أن النبي عليه الصلاة والسلام يؤكد المبادئ التالية في علاقة الراشدين بالأطفال:

- احترام الطفولة والأطفال، فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يبادئ الأطفال التحية والسلام.
- اللعب مع الأطفال، ويشهد على أن النبي كان يداعب ويلاعب أحفاده وأولاده وهو يقرّ مبدأ تربويا تؤكده التربية الحديثة حول أهمية اللعب مع الأطفال.
- حب الطفولة والأطفال، وإغداق كل العطف والحنان عليهم. ويكون النبي صلى الله عليه وسلم أسبق من أرسى هذا المبدأ الذي ينظر إليه على أنه مبدأ تربوي حديث.

التربية العقلية

يؤثر الإسلام العقل ويرفع من شأن العقلاء. ولا يرد ذكر العقل في القرآن الكريم إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه. والمؤمن مطالب في كل موقف من مواقف حياته أن يحكم العقل وأن يلجأ إليه[١٤].

إن أولى الآيات نزلت على الرسول الأكرم معلنة بدء الوحي والرسالة قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)[١٥]. وللعلم شأن كبير ومكانة عالية في الإسلام، ومن قرأ القرآن الكريم والحديث الشريف عرف منزلة العلم في الإسلام، وعلو شأنه وحضه عليه، ومن ذلك: قول الله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[١٦].

وفي تعظيم العلم يقول رب العرش العظيم: (وقل ربِ زدني علما)[١٧]. وهنا يربط القرآن الكريم بين العلم والعبادة، ويرى بأن العلماء والعقلاء هم أصحاب النعيم لأنهم يستطيعون ببصيرة العقل إدراك الله وتعظيمه وتوحيده، وقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[١٨]. والإسلام يفضل العلماء على غيرهم ويقدمهم في الدنيا والدين يقول تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)[١٩]. ويحض القرآن الكريم على تفضيل العلماء وتكريمهم، ويأمر بأن تفسح لهم صدارة المجالس بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير)[٢٠]. وفي السيرة النبوية فيض من الإشارات والتنبيهات النبوية التي تحض على أهمية العلم وتذكر بأسبقية العلماء. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ويقول عليه الصلاة والسلام: «ومن سلك طريقاً يلتمس

فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة». وفي موضع آخر يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[31]. وقال صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». ويؤكد النبي فيض التأكيد القرآني في تمجيد العلماء وتقديرهم إذ يقول صلى الله عليه وسلم «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم». ولا يقف الرسول الأكرم عند هذا الحد بل يساوي بين العلماء وذكر الله، حيث يقول صلى الله عليه وسلم «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً» رواه الترمذي. وكم كان صلوات الله وسلامه عليه يكرر ويقول بأن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[32]. وقد ورد في الأدب النبوي أن مداد العلماء خير من دماء الشهداء، فأي تعظيم هذا للعلم والعلماء في منهج الإسلام وتعاليمه السمحاء.

تربية الولد ثروة

وليس كالإسلام دين جعل العلم فريضة وشعيرة، وحث على طلبه في كل مكان واكتسابه بكل الوسائل، ومن ثم فإن حق الأطفال في التعليم يصبح واجبا دينيا لا سبيل إلى التهرب منه. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله»[33]. يتفق مع هذا الحديث المثل الصيني، «لأن تطعم طفلك دون أن تعلمه خطيئة كبرى لا تغتفر». ومن «ربى ماله ولم يرب ولده، فقد ضيع الولد والثروة»[34].

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يؤكد في مناسبات كثيرة حق الأولاد على آبائهم في تعلم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم. وفي هذا يروي أبو رافع عن النبي قوله: «قلت يا رسول الله للولد حق كحقنا عليهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم، حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة وألا يرزقه إلا طيبا». وفي رواية عن رافع بلفظ قلت: يا رسول الله: لأولادنا حق كحقنا عليهم؟ فذكر صلى الله عليه وسلم «من حقهم على آبائهم تعليم كتاب الله والرمي والسباحة»[35]. وهذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤكد على أهمية تعليم الأطفال ما ينفعهم في حياتهم وكان غالبا كما جاء في الخبر يدعو الله قائلا «اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني وزدني علما والحمد لله على كل حال». ولا بأس فالنبي كان يحض على طلب العلم في أي مكان وفي أي زمان.

التعليم المبكر

ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم أهمية تعليم الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة، وتبدى هذا في قوله «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»[36]. وكان المسلمون الأوائل فقهاء وعامة حريصين كل الحرص على تأصيل الأخلاق الإسلامية السامية في نفوس أطفالهم وأولادهم. وقد روي ابن خلدون أن الرشيد قال لمعلم ولده الأمين (يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع لك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فاجعل يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وأمنعه من الضحك، إلا في أوقاته... إلى أن يقول: وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة).

وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل الأخذ بالرأي حين سأل معاذ بن جبل وقد ولاه قضاء اليمن: بماذا تقضي؟ قال: أقضي بكتاب الله وسنة رسوله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أقضي برأيي، لا آلو (أي لا أقصر) فأثنى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، لما يحب الله ورسوله.

التربية الأخلاقية

يسمو الإسلام برسالته الأخلاقية سموا لا يضاهيه سمو، ويرفع من شأن القيم الأخلاقية إلى أعلى مراتب التبجيل والتقدير. فالأخلاق في الإسلام كما يؤكد المنهج النبوي تشكل جوهر الرسالة ومنطلق العقيدة وجوهرها. فالمولى عزّ وجلّ يخاطب نبيّه الكريم واصفا إياه بالخلق العظيم (وإنك لعلى خلق عظيم)[37]. وقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان خلقه القرآن»[38]. كذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ويروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي». وفي هذا دعوة صريحة ومضمرة مفتوحة الأبعاد والاتجاهات لتأكيد التربية الخلقية وتأصيلها في

المسلمين صغارا وكبارا، وفي رسول الله لنا وللمسلمين جميعا القدوة الحسنة تيمنا بقوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)[٢٩]. ووضع في شخصه صلى الله عليه وسلم الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي نموذجا حيا على مدار التاريخ. وتأسيا بنبي الله وروح العقيدة الإسلامية شرعا وقرآنا وسنة نبوية انطلق المسلمون المؤمنون والعلماء منهم إلى تأصيل الروح الأخلاقية في الأطفال.

أهمية أن نكون القدوة

وخير وسيلة ومنهج لبناء الأخلاق في الأطفال هو الصلاة، حيث يدعو النبي إلى تمرس الأطفال بالعبادة والصلاة، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. يقول صلى الله عليه وسلم في هذا «مُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصلاة إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ[٣٠]».

وكان عليه الصلاة والسلام يوجه المسلمين إلى غرس الأخلاق في أبنائهم عن طريق القدوة الحسنة، ويؤكد على هذا المنهج التربوي تأكيدا منقطع النظير: فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله: تعال أعطيك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمرا. فقال: أما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة[٣١].

وقد نهى النبي عليه سلام الله ورضوانه الآباء عن التمييز بين الأطفال لأن التمييز يورث الأطفال أحقادا ويبدد فيهم الفضائل الأخلاقية. وفي هذا الخصوص يروي النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى رسول الله فقال: أني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قل: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، قال: فرجع فرد عطيته[٣٢].

إن إيثار بعض الأبناء على بعض هو من أقبح الفعال وأرذل الخلال التي حاربها الإسلام، فعن النعمان بن بشير قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»[٣٣]. عن النعمان بن بشير أن أباه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أني نحلت ابني هذا غلاما كان لي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا، فقال: فأرجعه»[٣٤]. وذكر البيهقي عن أنس رضي الله



القدوة الحسنة هي الطريق السليم لغرس القيم الإسلامية في نفوس النشء

عنه قال: إن رجلا كان جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم فجاء ابن له فقبله وأجلسه في حجرة، ثم جاءت بنته فأخذها إلى جنبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم «فما عدلت بينهما»[٣٥]. ويروي أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال لصبي هاك ثم لم يعطه فهي كذبة»[٣٦].

وتنطلق التربية الإسلامية الأخلاقية من الإيمان بالفطرة الخيرة للإنسان والطبيعة الإنسانية، فالإنسان خير بطبعه ولا يوجد فيه نزع للشر أصيل في جبلته وتكوينه الإنساني. لأن الإنسان يولد على الفطرة، والفطرة هي فطرة الخير المطلق، وفي هذا يقول النبي الأكرم: يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه. وهو يعني بأن الخير ماهية أصيلة في الإنسان، بينما الشر صفة عارضة يكتسبها الإنسان بعارض انتمائه إلى حالة اجتماعية تنمو فيها بواعث الشر والكراهية.

إعداد الطفل على منهج القرآن والسنة

وهناك وسائل لإعداد الطفل روحيا وأخلاقيا على منهج القرآن والسنة وتتحقق وفقا للنقاط التالية:

– تأصيل الأخلاق وما تقتضيه القيم الإسلامية من حب الخير، عبر منهج العبادة بمعناها الواسع الذي يشمل الحياة، وتلك هي الوسيلة الفعالة لتربية الأخلاق وتهذيب النفس. والتأكيد في هذا السياق على أهمية العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وصيام وحج، لصقل الأخلاق وترسيخ الإيمان بالقيم الإسلامية منهجا سلوكيا في الحياة والنظر.

– تأكيد منهج القدوة الحسنة في تأصيل الأخلاق وغرس القيم الإسلامية، وهذا يقتضي أن يكون المربون من آباء ومعلمين ومرشدين وكبار أمثالاً صالحين لأبنائهم وفلذات أكبادهم، لأن الأطفال يقتدون بآبائهم ويتشبهون بهم ويحاكونهم في أقوالهم وأفعالهم، والقدوة الصالحة ما هي إلا عرض مجسم للفضائل، وفي هذا يقول الغزالي مؤكدا مسؤولية الوالدين في إكساب الطفل الفضائل أو الانحراف عنها بقوله: «من أوائل الأمور التي ينبغي أن تراعى في تربية الصبي حسن الخلق، فإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين»[٣٧].

– تلقين الطفل مبادئ الدين، وتمرينه على العبادات، وتعويده ممارسة فعل الخير فإن ذلك يجعل منه نواة صالحة لمجتمع سليم.

– على الآباء والمربيين أن يتأسوا بصاحب الرسالة الخالدة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في طرائق مواعظه، وفي أساليب إرشاداته لأن النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يمكن أن يصل إلى كماله بشر ولا يبلغ مرتبته إنسان.

لقد أكد الفقهاء وسار على نهجهم العلماء بأن التربية الخلقية هي روح التربية الإسلامية، والوصول إلى الخلق الكامل هو الغرض الحقيقي من التربية، لأن النبي عليه الصلاة والسلام جاء لإتمام مكارم الأخلاق.

تلكم هي الرسالة النبوية. وتلك هي القيم التربوية التي تفيض بأنوار القرآن الكريم والعقيدة السمحاء. إنها العقيدة التربوية التي تنبثق من الأعماق وتستمد رحيق وجودها من ضياء الإسلام ونور الرسالة وعطاء النبوة. ■

المراجع والمصادر:

– منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٩٨٠م، ج١، (ص) ١٨٠.

– إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج٢، مطبعة عثمان خليفة، القاهرة، ١٩٣٣م.

– أصول التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل علي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣م.

– تاريخ التربية في الشرق والغرب، محمد منير مرسي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٥م.

– تاريخ التربية وعلم النفس عند العرب، ملكة أبيض، مطبعة الإنشاء، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٢م.

– تاريخ التربية، محمود عبد الرزاق شفشق، منير عطا الله سليمان، دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٨م.

– التربية الإسلامية، أحمد شلبي، نظمها وفلسفتها، وتاريخها، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

- تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، ط٦، ج٢، ١٩٨٣م.
- التربية عبر التاريخ، عبد الله عبد الدايم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- التربية قبل المدرسة، علي وطفة و خالد الرميضي، مكتبة الطالب، الكويت، ٢٠٠٤م.
- تطور الفكر التربوي الإسلامي، فيصل الراوي رفاعي وآخرون، مكتبة الفلاح، الكويت، ٢٠٠٠م.
- الخنساء شاعرة الرثاء، يحي شامي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٩م.
- دراسة مقارنة لتاريخ التربية، عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- زاد المعاد من هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، ج٤، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، الجزء الأول، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٣م.
- الطفولة في الإسلام، أحمد ربيع، المؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام، القاهرة ٩-١٢ أكتوبر ١٩٩٠م.
- الطفولة في الإسلام، أحمد عمر هاشم، المؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام" القاهرة ٩-١٢ أكتوبر ١٩٩٠م.
- القرآن الكريم.
- قطوف من أدب النبوة، أحمد حسن الباقوري، ج١، مؤسسة الأخبار، نوفمبر ١٩٨٨م.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس،العجلوني،ج٢، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥١هـ.
- مدخل إلى تطور الفكر التربوي، سامي محمد نصار، وجمان عبد المنعم أحمد، ذات السلاسل، الكويت، ٢٠٠٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، (١٤٢٢هـ ٢٠٠١م). موقع: WWW.Almohadiddith.com.
- مقدمة في تاريخ التربية، عبد المحسن حمادة، جامعة الكويت، ط٢، الكويت ١٩٩٥م.
- نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، ج٤، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.

الهوامش:

١ - انظر: التربية قبل المدرسة، علي وطفة و خالد الرميضي، مكتبة الطالب، الكويت، ٢٠٠٤، ص ص١١-١٢٥.
٢- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية ١٥٨.
٣- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
٤- القرآن الكريم، الأحزاب، ٢١.
٥- دراسة مقارنة لتاريخ التربية، عبد الغني عبود، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٧٨، (ص) ١٩٨.
٦- دراسة مقارنة لتاريخ التربية، عبد الغني عبود، مرجع سابق، (ص) ١٩٨.
٧- دراسة مقارنة لتاريخ التربية، عبد الغني عبود، مرجع سابق، (ص) ١٩٨.
٨- دراسة مقارنة لتاريخ التربية، عبد الغني عبود، مرجع سابق، (ص) ١٩٨.
٩- متن البخاري، (ص) ٥١.
١٠- قطوف من أدب النبوة، أحمد حسن الباقوري، ج١، مؤسسة الأخبار، نوفمبر ١٩٨٨، (ص) ١٧٠.
١١- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج٢، مطبعة عثمان خليفة، القاهرة، ١٩٣٣، (ص) ١٠٣٨.
١٢- تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، ط٦، ج٢، ١٩٨٣، (ص) ٩٣٧.
١٣- مكارم الأخلاق للطبري، (ص) ١١٤.
١٤- دراسة مقارنة لتاريخ التربية، عبد الغني عبود،مرجع سابق، (ص) ١٩١.
١٥- القرآن الكريم، سورة العلق، ١.
١٦- القرآن الكريم، آل عمران، ١٨.
١٧- القرآن الكريم، طه، ١١٤.
١٨- القرآن الكريم، فاطر، ٢٨.
١٩- القرآن الكريم، الزمر، ٩.
٢٠- القرآن الكريم، المجادلة، ١١.
٢١- صحيح مسلم.
٢٢- رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان.
٢٣- إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ج٢، (ص) ٥٢٩.
٢٤- التربية الإسلامية، نظمها وفلسفتها، أحمد شلبي، وتاريخها، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، (ص) ٢١١.
٢٥- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس العجلوني، ج٢، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥١هـ،(ص) ٩٥.
٢٦- رواه البيهقي والطبراني.
٢٧- القرآن الكريم، القلم ٤.
٢٨- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٩٨٠، ج١، (ص) ١٨٠.
٢٩- القرآن الكريم، الأحزاب، ٢١.
٣٠- مسند أحمد.
٣١- «الطفولة في الإسلام»، المؤتمر الدولي للطفولة في الإسلام، أحمد ربيع، القاهرة ٩-١٢أكتوبر ١٩٩٠. مجلد١، (ص) ٩٧.
٣٢ -رواه البخاري.
٣٣- نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني، ج٤، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت، (ص) ٦.
٣٤- الشوكاني، المرجع سابق، (ص) ٦.
٣٥- زاد المعاد من هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية، ج٤، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت، (ص) ١٥٥.
٣٦- الحديث رواه أحمد. معنى «هاك» أني أقبل وخذ شيئا بعده به.
٣٧- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، مرجع سابق، (ص) ٧٣.



تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب العربي والأندلس في العصر الوسيط

■ د. مزاحم علاوي الشاهري

وجد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف منذ عهود مبكرة في الأقطار العربية، وأصبح يوم الثاني عشر من ربيع الأول عيداً يحتفل به المسلمون، وإذا كانت المعلومات التاريخية لا تقدم لنا البدايات الأولى للاحتفال بهذه المناسبة العظيمة، إلا أنه من المؤكد أن الخلافة العباسية في بغداد قد احتفلت به، يذكر ابن خلكان في وفياته أن ابن دحية السبتي ت (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، وهو من أبرز علماء العصر الموحدي، لما رحل إلى المشرق قدم إلى أربيل سنة ٦٠٤هـ متجها إلى خراسان، فشاهد الملك مظفر الدين ابن رزين الدين مهتما بالمولد النبوي والاحتفال به، فألف له كتاب «التنوير في مولد السراج المنير» وقرأه عليه بنفسه وقد ختم الكتاب بقصيدة طويلة أولها:

أعــداؤنــا مــا وهــمــوا
لـــولا الـــوشـــاةُ وهــمُ

وقد دفع له الملك ألف دينار[1]، كما شاهد الرحالة بن جبير سنة (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م)، احتفال المسلمين به في مكة فقص لنا خبراً تحدث فيه عن الموضع المقدس الذي ولد فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث يفتتح هذا الموضع المبارك (فيدخله الناس كافة متبركين به، في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه وهو يوم مشهور بمكة دائما)[2].

وزيادة على ذلك فقد اهتم الفاطميون في مصر وتونس باحتفالات المولد النبوي الشريف حتى ساد الاعتقاد بأنهم كانوا أسبق من غيرهم في حين أن حقيقة التاريخ غير ذلك[3]. أما على صعيد المغرب والأندلس فإن الإشارات الأولى التي تسلط الضوء على الاحتفال بالمولد تشير إلى ماقام به قاضي سبتة أبو العباس أحمد بن محمد العزفي ت٦٣٣هـ/ ١٢١٣م من دعوته إلى الاحتفال به والأسباب التي دفعته إلى ذلك، تلك التي أوردها في مقدمة كتابه الدر المنظم. إذ وقع في نفسه أن ينبه أهل زمنه على الاعتناء بمولد الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم رأى أن تلقين ذلك للنشء الصغير أنجح وأنفع، فأخذ يطوف على الكتاتيب القرآنية بسبتة ويشرح لصغارها مغزى هذا الاحتفال، حتى يسري ذلك لآبائهم وأمهاتهم بواسطتهم[4].

ولما تولى ولده أبو القاسم محمد العزفي إمارة سبتة، حقق دعوة والده واحتفل في مدينة سبتة بالمولد النبوي في أول ربيع بعد ولايته عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م وقد وصف احتفالاته ابن عذاري بقوله «ومن مآثرة العظام قيامه بمولد النبي- عليه السلام- من هذا العام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام، ويؤثر على أولادهم ليلة المولد السعيد- بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقون عليه المحاضر والصنائع والحوانيت يمشون في الأزقة، يصلون على النبي عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام بالفرح والسرور والإطعام الخاص والعام، جرى ذلك على الدوام في كل عام من الأعوام، وتوفي رحمه الله عام سبعة وسبعين فكانت مدته نحو ثلاثين سنه»[5].

وعمل بوصية الفقيه أبي القاسم العزفي الخليفة المرتضى الموحدي الذي كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والإنعام. جاء ذلك بعد أن أرسل له أبو القاسم العزفي بنسخة من كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» وأشار بذلك الرأي عليه[6].

ولما قامت الدوله المرينية في المغرب الأقصى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م بعد زوال حكم الموحدين منه، كان أول من احتفل بالمولد النبوي مؤسس دولتهم السلطان يعقوب بن عبد الحق، فهو أول من أقام ليلة المولد بعاصمتهم فاس، واستمع إلى القصائد والكلمات التي تخص هذه المناسبة الدينية الجليلة، ثم احتفل المغاربة في جميع بلادهم بالمولد النبوي سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م على عهد ولده السلطان يوسف بن يعقوب[7]، إذ شهدت السنة نفسها مراسيم الاحتفالات وبإشراف خطيب جامع القرويين في فاس محمد بن أبي الصبر، وبهذا صار يوم الثاني عشر من ربيع الأول عيداً مولدياً عاماً بالمغرب، ثم سار على نهجه السلاطين الذين حكموا البلاد من بعده نخص بالذكر منهم السلطان علي بن عثمان ٧٣١-٧٥٢هـ/ ١٣٣١-١٣٥٢م الذي أفاض المؤرخون بذكر مراسيم احتفالاته بالمولد النبوي وسجلوا القصائد «المولديات» التي أنشدها الشعراء بذلك اليوم تعظيماً لتلك المناسبة ومن بين المؤرخين الذين ذكروا احتفالات المولد على عهد السلطان أبي حسن علي بن عثمان المؤرخ ابن مرزوق الخطيب الذي قال: لازمت حضوره والإختصاص بالإطلاع عليه من سنة ٧٣٨هـ.. فأذكر من عادته المستمرة ما حفظته كان رضي الله عنه يقيمها سفراً وحضراً، لا يشغله عن إقامتها شاغل، حتى لقد كنا بسبتة مقيمين مقابلين لنزول النصارى على الخضراء وكان في تعب وملازمة مقاومة لجيوش المسلمين من أهل العدوتين.. فحضرت ليلة المولد، فلم يصل أهل البلاد قاطبةً على جري العادة، حيث كان يصل الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء من أهل البلاد لشهودها، ووصل من أهل فاس خطيبها.. فلما حضر وكان وصوله ليلة المولد، سأله، فاعتل لما سمعوا إشتغال السلطان بمهمة الجهاد، فتخلفوا، فتغير لذلك رضي الله عنه وسأل زعيم المزمزمين.. فأخبره بذلك عن بقية أهل صنفه، فصدر أمره بإيقاف جرايات من لم يصل تنبيهاً لهم على أنهم أخطأوا إذ ظنوا به الاشتغال عن هذا المهم، وأمر بعقوبة المتخلفين من المزمزمين.. ومن العادة أن يستعد لها بأنواع المطاعم والحلاوات وأنواع الطيب والبخور مع إظهار الزينة والتأنق في إعداد المجالس، حتى إذا حلت الليلة وأدى السلطان صلاة المغرب ونافلتها حضر السلطان والناس حسب مراتبهم إلى مكان الاحتفال فتقدم لهم المأكولات والحلويات، ثم يبدأ

بعد ذلك قارئ العشر فيرتل حصة من القرآن الكريم ويتلوه عميد المنشدين فيؤدي بعض نوبته، ثم يأتي دور الشعراء، فيلقون قصائد المديح والتهاني بليلة المولد الكريم، من نظم شعراء المملكة والزائرين، فتلقى على نظام محفوظ، وترتيب محكم على قدر المنازل والرتب والمناصب، وبعد هذا تسرد المعجزات النبوية. وتكثر الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قضيت صلاة الصبح تقدم ألوان الطعام المختصة بهذا الوقت، وجميع ما يفضل من بخور وشموع يقتسمه الفقراء والمسافرون على قدر استحقاقهم، ثم يجري توزيع العطاء صباح يوم سابع المولد على الأشراف وأعيان الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين، فيعطي كل على قدره كسوة تخصه وإحسانا للبعض..»[٨].

ولقد أخبرنا ابن الحاج النميري أن السلطان أبو عنان المريني لما دخل قسنطينة أمر بإجراء بعض الأعمال كان من بينها ما يخص ليلة مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) فأشاع مواسم الفرح وأوقد الشموع وأمر أن تقاسم الموائد للعامة، يرافق ذلك المغنون لامتداح من خصه الله بالتعزيز والتوقير[٩].

ومن مظاهر الاحتفال بالمدارس المرينية بهذه المناسبة قيام كل والد بإعطاء ولده شمعة كبيرة تساوي مبلغا من المال يصل وزن بعضها ثلاثين رطلا حسب ثروة الأب، توقد أول الليل حتى الشروق، ويأتي المعلم بعدد من النشدين يتغنون بالأناشيد النبوية طول الليل[١٠]. وزيادة على ذلك فقد أدخلت «المنكانة» وهي الساعة الميكانيكية لتخبر بالمواقيت تتكون من اثني عشر طاقا يعلوها هلال يدور عليها، وفي داخل كل طاق صورة جارية فأذا حلت ساعة ما أعلن عنها الطائر الجاثم على الساعة بواسطة صنجة تلقى على طست فتظهر جارية في يمينها رقعة بالساعة المحددة لتغصها بين يدي ابي عنان، بينما تجعل يسراها على فيها كالمبايعة[١١].

وقد كان لاحتفالات المرينين بالمولد النبوي صدى عند الدول المجاورة، فقد سعى الحفصيون في تونس على عهد سلطانهم أبي يحيى على إقامة رسمه على العادة الغربية، من الاحتفال في الأطعمة، وتزيين المحل، بحضور الاشراف، وتخير القوالين للاشعار المقرونة بالاصوات المطربة[١٢]. أما في الأندلس، فقد احتفلت غرناطة بالمولد النبوي منذ عهد سلطانها يوسف الاول ٧٣٣– ٧٥٥هـ، أكدت ذلك القصائد الثلاث التي رفعها الشاعر لسان الدين بن الخطيب إلى سلطانه بمناسبة الاحتفال النبوي ومطلع الأولى:

أثار سناها والديار نوازح
سنا بارق من مطلع الوحي لائح

والثانية:

هاجتك اذ جئت الورى فزرودا
ذكراك أوطانا بها وعهودا

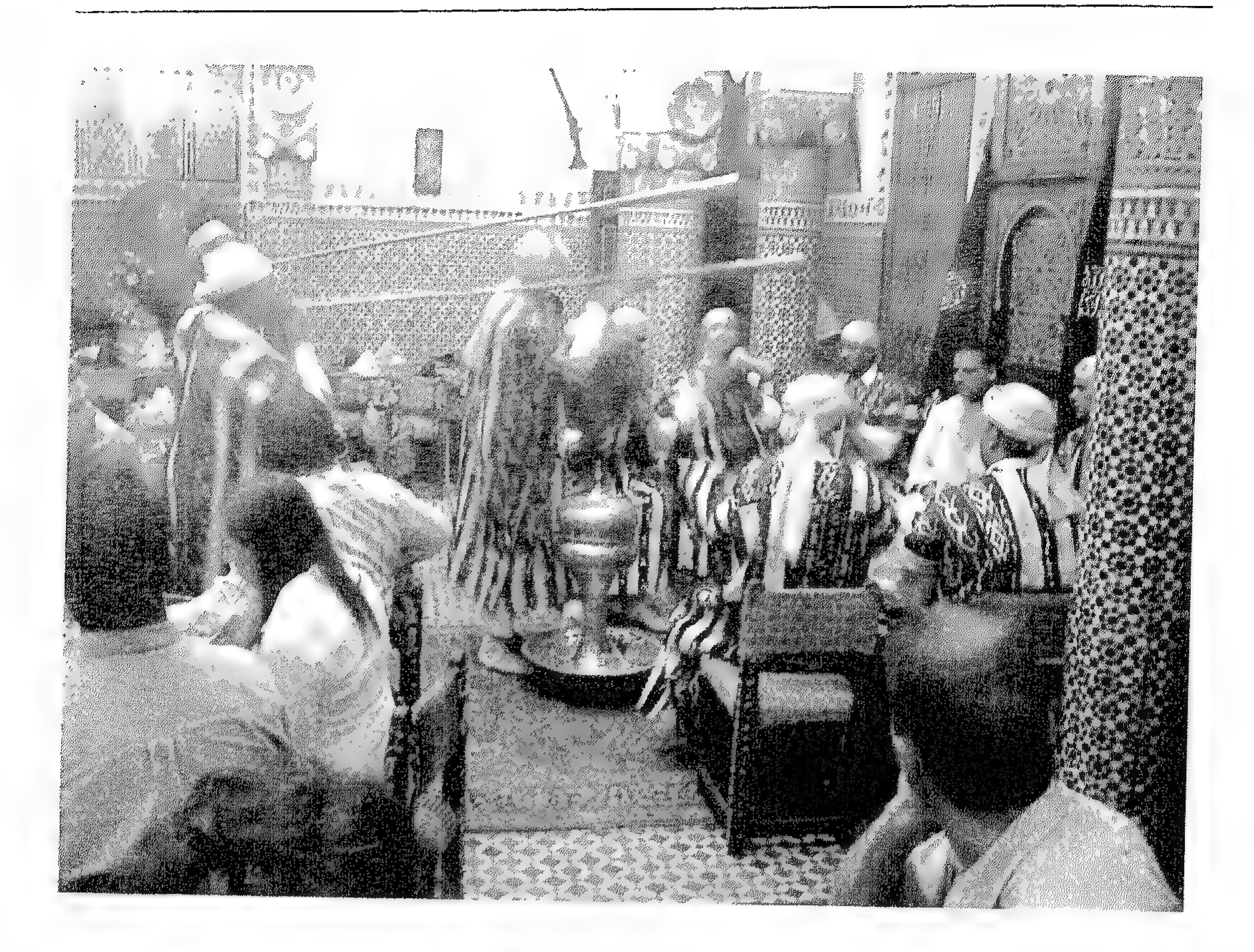
والثالثة التي أنشدها سنة ٧٣٧ هـ:

إذا انا لم أؤثر هواي على عزمي
فنفسي في طوعي وأمري في حكم[١٣]

وسار ولده محمد الخامس الغني بالله على نهج والده يقول ابن خلدون «ثم حضرتُ المولد النبوي لخامسة قدومي، وكان يحتفلُ في الصنيع فيها والدعوة، وإنشاد الشعراء، إقتداءً بملوك المغرب، فأنشدته ليلتئذ:

بواكف الدمعِ يرويها ويضميني[١٤]
حي المعاهد كانت قبل تحييني

وكان للسلطان العبد موسى الثاني المكنى بابي حمو (٧٦٠ –٧٩١ هـ/ ١٣٥٩–١٣٨٩)م البدء بالاحتفالات النبوية في المغرب الأوسط، وقد عرض لنا المقري وصفا لاحتفالات المولد النبوي بقوله «كان يقيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان المحروسة، مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وبسط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة، وشمع كالاسطونات، وموائد كالهالات ومباخر صفر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر من تبر مذاب، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر، رتب الفاس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال.. وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفرات ترغب في الاقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب. ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب وبالقرب من السلطان.. خزانة المنجانة (المنكانة) قد زخرفت كأنها حلة يمانية، لها أبواب موجفة، على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها، وبرزت منه جارية



صورت في أحسن صورة في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة، هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادي حي على الفلاح»[١٥].

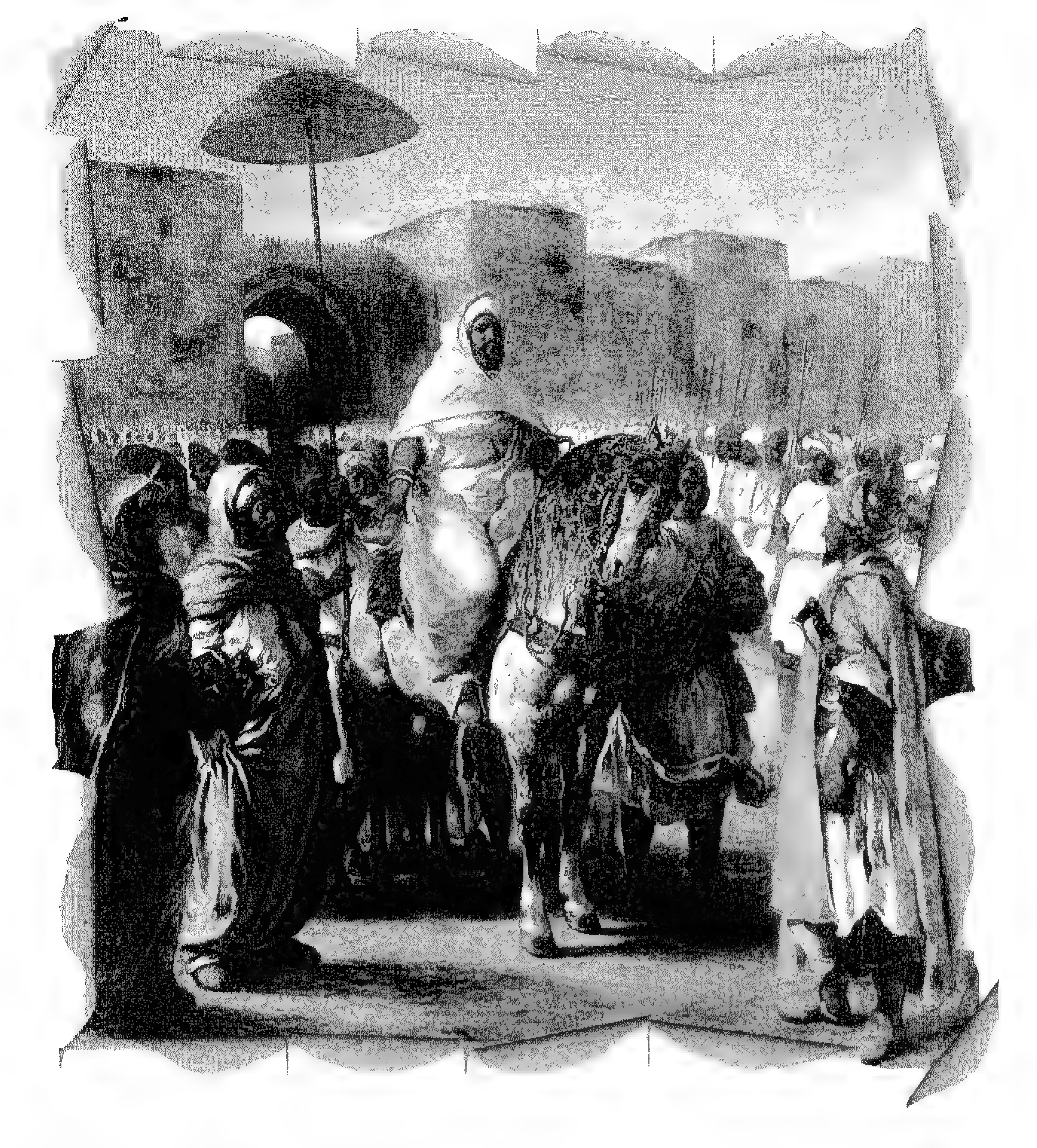
وذكر التنسي أن السلطان أبا حمو كان ينظم في كل ليلة مولد قصيدة في مدح المصطفى، وأول ما يبتدئ المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه في تلك الليلة نظماً، ومما قاله في بعض تلك الموالد الشريفة قوله:

قـفـا بين أرجـاء الـقـبـاب وبـالحي
وحـي ديـارا لـلـحـبـيب بـهـا حـي
وعـرج عـلـى نجد وسـلـع ورامـة
وسـائل فـدتك الـنـفس في الحي عن حي[١٧]

وزيادة على ذلك فقد شاعت الاحتفالات بالمولد النبوي على عهد الدول التي حكمت المغرب، فيذكر أن للسعديين. وبوجه خاص على عهد المنصور السعدي تقاليد رسمية وشعبية تناولها بالعرض الوافي مؤلف كتاب مناهل الصفا، أشار فيها إلى الاستعدادات الكبيرة التي تبذلها الدولة السعدية لهذه المناسبة العظيمة ابتداء من دخول شهر ربيع الأول، فتستعد لها الأوساط الرسمية والشعبية بالشموع والقصائد والمديح النبوي حتى إذا كانت ليلة الميلاد بدأت مراسيم الاحتفال الرسمي بحضور السلطان لأداء صلاة الفجر بالناس، ثم يجلس على أريكته، وقد ازدهى الحفل باعلام الدولة، وجمال المشهد وباصطفاف جذوع الشمع الموازية للمآذن والنخيل ضخامة، وتعددت ألوانها بين بيض وحمر وخضر، وقد تقسمت جذوعها قباباً مستديرة، وبعد مجموعة من المراسيم الأخرى، يتقدم أهل الذكر والانشاد يقدمهم مشايخهم من بعد أن يفرغ الواعظ من قراءة ما يناسب المقام من الاستفتاح لفضائل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يردد المحتفلون المولديات، يعقب ذلك كلام القوم من المتصوفة تتخلل ذلك نوبات المنشدين لبيتين من نفيس الشعر يفتتحون بهما المناسبة، ثم يحضر الشعراء لإنشاد قصائدهم.

بعدها تعطى الجرايات والاحسان لكتاب الدولة والشعراء، بعد أن يرش على المحتفلين «ماء النعيم المصعد من نثير الورد والأزهار» ثم تمد بعد ذلك من أبواب القصور السلطانية الموقعة بأمر السلطان[١٨].

بقي أن نذكر أن الاحتفال بالمولد رافقه نتاج غزير



كتبه علماء المغرب منذ القرن السادس للهجرة، يقسم على ثلاثة فنون: أوله في السيرة ومنها كتاب شفاء الصدور لأبي الربيع سليمان بن سبع دفين سبته، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ونهاية السول في خصائص الرسول لدحيه السبتي، وثانيها في الموالد يتقدمها كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم للعزفي، وثالثها الشروح والحواشي والمقصود بها الشروح التي وضعت على أشهر قصائد المديح النبوي نذكر منها شرح البردة لسعيد بن سليمان السملالي المتوفى سنة ٨٨٢هـ، وشرح عبد العزيز القشتالي لمقصورة عبد الرحمن المكودي النحوي المشهور المتوفى ٨٥٧هـ والتي يقول في أولها:

أرقني بارق نجد اذ سرى
يومض ما بين فرادى وثنى

أما في ميدان الشعر، فقد ظهرت كتب مشهورة في السيرة كأرجوزة أبي علي حسن الرهوني المراكشي المتوفى سنة ٦٦١ هـ، وهي طويلة تنوف على ستة آلاف بيت، والمعارضات والتخمسيات وما إليها وهي كثيرة منها وتريات ابن رشيد البغدادي التي عارضها حمدون بن الحاج، وقد تأثر بها مالك بن المرحل السبتي بوترياته التي يقول أولها:

إلى أحمد اهديت غر ثنائي
فيا طيب اهدائي وحسن ثنائي

كما ظهرت دواوين خاصة بالمديح النبوي منها ديوان «نوادر النظام في شرف سيد الأنام» لمحمد بن القاسم السلوي من أهل القرن التاسع فضلاً" عن الأنماط الأخرى من قصائد مفردة وموشحات وملحون[١٩].

الهوامش

١- / ٤٤٩٣- ٤٥٠.
٢- الرحلة، دار الكتاب (بيروت - القاهرة، بلا) ٩٣
٣- المقريزي - المواعظ والاعتبار، مطبعة الساحل لبنان: م٢ / ٢٨٩.
٤- المنوني- ورقات عن الحضارة المغربية، ٢٦٥-٢٦٦.
٥- البيان المغرب، القسم الموحدي ٣/ ٤٠١-٤٠٢.
٦- ابن عذاري- البيان المغرب، ٣/ ٤٥٢.
٧- ابن أبي زرع . الأنيس المطرب ٣٨٣، ابن السكاك- نصح ملوك الإسلام، ورقة ١٠٩.
٨- المسند الصحيح الحسن: ١٥٢ -١٥٤.
٩- فيض العباب: ١٤٩-١٥٠ الماحي- المغرب في عصر السلطان ابي عنان ٢٦٦-٢٦٧.
١٠- أي يقدر وزنها بعشرة كيلو غرامات تقريباً. ينظر الحسن الوزان - وصف أفريقيا:٢٦٤.
١١- محمد المنوني - المولد النبوي الشريف في المغرب المريني في كتاب ورقات عن الحضارة المونية ٢٦٩.
١٢- أبو الحسن النباهي، المرقبة العليا، ١٦٢ منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت ٩٨٣).
١٣- لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام٢٦٧-٤٨٤-٥٧٥.
١٤- ابن خلدون- العبر:٧ / ٨٨١ المنوني - ورقات عن الحضارة المغربية، ٢٧٩.
١٥- المقري- أزهار الرياض: ١/ ٢٤٣. نفح الطيب: ٩ / ٢١٥-١٢٢١٦.
١٦- التنسي نظم الدرّ، مقدمة المحقق؛ ٢٧-٢٨.
١٧- التنسي، نظم الدرّ ١٦٤.
١٨- مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، أبو فارس عبد العزيز القشتالي- تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف «الرباط ١٧٢-٢٣٥-٢٥١»
١٩- للمزيد عن هذه المواضيع ينظر عباس الجراري- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ط٢ مكتبة المعارف (الرباط، ١٧١٩) ١ /١٤٧-١٦٧.

المصادر

١- التنسي / محمد بن عبد الله (ت ٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م) نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بو عيان (الجزائر ١٩٨٥).
٢- ابن جبير محمد بن احمد، رحلة ابن جبير، دار الكتاب (لبنان-القاهرة، بلا).
٣- ابن الخطيب / لسان الدين بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م.
- ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام، دراسة تحقيق محمد الشريف قاهر، ط١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، ١٩٧٣).
٤- ابن خلدون /عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المتوفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبناني للطباعة (بيروت ١٩٧٨).
٥- ابن خلكان /ابو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر المتوفى سنة ٦٨٠هـ /١٢٨٢م.
- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة (بيروت ١٩٧٠).
٦- ابن ابي زرع / ابو الحسن على بن عبد الله المتوفى سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م.
- الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،نشر دار المنصور (الرباط ١٩٧٣).
٧- ابن عذاري/ابو العباس احمد بن محمد كان حيا سنة ٧١٢/١٣١٢م
- البيان المغرب في اختصار ملوك الاندلس والمغرب.
عني بنشره امبروسي هويس ميراندة بمساهمة محمد بن تاديت ومحمد ابراهيم الكتاني القسم الثالث نشر معهد مولاي الحسن (تطوان١٩٦٤)
٨- ابن السكاك / محمد بن ابي غالب المتوفى ٨١٨ / ١٤١٥م
نصح ملوك الاسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام ، مخطوط لدى المؤلف عن نسخة الخزانة العامة في الرباط تحت رقم ٧٧٢د،
٩- القشتالي / عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفاسي المتوفى ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م.
- مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الاوقاف (الرباط ١٩٧٢) .
١٠- ابن مرزوق / محمد بن احمد بن محمد التلمساني المتوفى سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م.
- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، ١٩٨١).
١١- المقري / شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م.
- أزهار الرياض في أخبار عياض تحقيق مصطفى السقا وآخرين، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي (الرباط ١٩٧٨).
- نفح الطيب من غصن الاندلس الطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب.تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد بيروت ، دار الكتاب العربي ١٩٧٨.
١٢- المقريزي / تقي الدين احمد بن علي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
١٣- النباهي / ابو الحسن بن عبد الله
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا منشورات دار الافاق الجديدة (بيروت ١٩٨٣).
١٤- النميري / ابراهيم بن عبد الله ت بعد سنة ٧٧٤/ ١٣٧٢م فيض العباب وإفاضة قداح الاداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون(الرباط ١٩٨٤).
١٥- الوزان / الحسن بن محمد الزياني المتوفى سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م
وصف افريقيا ترجمة عبد الرحمن حميدة نشر جامعة محمد بن سعود (السعودية)



عبد الله الرميثي:

عملت «طواشا» وعمري عشر سنوات

■ حمدي نصر:

«مبروك عليكم الرحمة».. تهنئة فرضتها الظروف المناخية وأنا أدخل جارياً إلى مجلس عبد الله سلطان راشد الرميثي، حيث جاء موعدنا في «عز المطر» كما يقولون، فكان اللقاء نديا بلطف الرحمة الربانية، ودار عن ذكريات زمان في الإمارات.

أمطار آخر شهر فبراير الماضي قال عنها «بو سلطان» ونحن نقف على باب المجلس نستمتع برؤيتها ونحمد الله عليها، وندعوه أن يجعلها سقيا رحمة، هي من أكثر الأمطار غزارة التي شهدتها أبوظبي من فترة طويلة، لكنها ليست أغزرها، ففي عام ١٩٧٦م جاءتنا أمطار غزيرة استمرت عدة أيام، وكانت المنطقة التي تراها أمامك (كورنيش القرم في منطقة المرور) خالية من الفيلل، فاتصل ماء البحر بماء المطر الذي وصل إلى ما فوق خصر الإنسان، وكم من بيوت تضررت بسبب المياه، لكن الحمد لله الآن البيوت قادرة على مواجهة المطر ونسأل الله أن يجعلها خيراً وبركة.

«مبروك عليكم الرحمة» هي عبارة تهنئة يتبادلها أبناء الإمارات فرحا عند سقوط الأمطار، وزمان كانت فرحتهم بالتجوال تحت المطر وتفقد أماكنه وآثاره، واليوم يركبون السيارات من ذوات الدفع الرباعي وينطلقون إلى السهول والوديان ومجاري السيول يعبرون عن فرحتهم بها، لكن عبارة التهنئة أصبحت تكنولوجية بعد أن حملتها وطيرتها إلى كل مكان رسائل الهاتف المحمول. بو سلطان من أهل الخير والبركة الذين يسعدنا أن نلتقي بهم في حديث الذكريات.. نتعرف منهم على الماضي وكيف كان، وكيف كانوا يعيشون ويدبرون أنفسهم في ظل شظف العيش وقسوة الطبيعة من حولهم.

قال عبد الله سلطان راشد الرميثي: كانت المنطقة فقيرة.. والناس تعيش على كد البحر، فهم في الصيف يذهبون إلى الغوص لصيد اللؤلؤ في رحلة عذاب شاقة تستمر ثلاثة أشهر، قد يعود بعدها الإنسان إلى أهله وقد لا يعود، أما نساء وأولاد بعض الأسر فإنهم يذهبون إلى العين، وكانت تسمى زمان ساحل عمان، أو إلى المنطقة الغربية حيث بساتين النخيل والرطب والمياه العذبة، ويبقون هناك إلى انتهاء موسم الغوص فيعود الرجال في رحلة تسمى القفال، أي انتهاء موسم الغوص، وتعود الأسر من العين وليوا للالتقاء برجالهم، وفي الشتاء كانت معيشتنا- كما يقول بو سلطان- على صيد السمك بالليخ والخيط، والقراقير والسكار، ولا شيء غير ذلك، حياة صعبة جداً، وبسيطة جداً، لكنها رغم صعوبتها كنا مرتاحين فيها نفسيا، فلا مشاغل الحياة تكدر نفوسنا، ولا تشغلنا عن أهلنا وأسرنا طوال العام مثلما يحدث هذه الأيام، حيث تجد الأب في ناحية، والأم في ناحية، والأبناء في ناحية ثالثة، وكل مشغول بما يهمه، ولا يهمه غير نفسه.

مضيفنا عبد الله سلطان راشد الرميثي (٦٦ عاما) نشأ في الظاهرة بأبوظبي، وهي مكان سوق أبوظبي حاليا، وكان يسكن مع أسرته وقبيلته في بيوت معظمها من العشيش، وتجاورهم أسر من قبائل المرر، والهوامل، والقبيسات، ومن بيت حامد.. وجاءت نشأته بسيطة مثل نشأة باقي أولاد الفريج، حيث اللعب على شاطئ البحر والحياة المفتوحة بلا قيود الحياة الحديثة.

طواش وعمري ١٠ سنوات

ويواصل بو سلطان الحديث عن نشأته في أبوظبي قائلا: نشأنا بالقرب من البحر فلابد أن يكون هو كل شيء بالنسبة لنا، وحقيقة الأمر لم يكن هناك غيره، فسرت مع والدي في رحلات الغوص من طفولتي، ووالدي كان طواشا (تاجر لؤلؤ)، وكانت كل مهمتي على السفينة المساعدة في الأمور التي أقدر عليها كطفل صغير، والجلوس إلى والدي لأتعلم منه أسرار تجارة اللؤلؤ، وكان رحمة الله عليه يشجعني، حيث اشتري الخشرة (أقل أنواع اللؤلؤ قيمة) وأبيعها لأربح فيها عدة ربيات، وذات يوم اشتريت خشرة بـ ٣٠٠ ربية، ودخل معي ثاني بن مرشد رحمة الله عليه شريكا، وبعنا ما اشتريناه فورا وربحنا فيه ٧٠٠ ربية.. وكان عمري وقتها عشر سنوات، وكانت أكبر عملية شراء وبيع لي في هذه السن.

المرة الثانية كانت مع علي بن فردان، وكان دائم الحضور مع أقاربه إلى مجلس الوالد للسوالف والتجارة أيضا، وحدث أن جاء إلى المجلس أحد الشرقيين يعرض بيع كمية من اللؤلؤ، فتدخل علي لشراء الكمية لكن الرجل قال: لا.. أنا جئت لأبيعهم على عبد الله (يقصدني) فتدخل علي كشريك، وفعلا اشترينا الكمية كلها، وقام علي وفرز حبات اللؤلؤ كل صنف على حدة، وبعناهم على شخص يدعى شرف بسبعين ألف ربيه، وبعد قليل باعهم بتسعين ألف ربية، قلنا: أرزاق سبحان الله.

تزوجت وعمري ١٢ عاما

سألناه فقال مبتسماً: سالفة الزواج هذه سالفة عودة (كبيرة) .. ونحن لا نملك من أمرها شيئا، فهي قدر مقسوم من الله سبحانه وتعالى، فقد كنت في البحر أصيد السمك بقارب صغير يقال له هوري، وفوجئت بأهلي يقولون لي سنزوجك من ابنة خالك، كان عمري وقتها ١٢ عاما ولا أدري من أمور الزواج والحياة إلا القليل، وفعلا.. زوجوني في هذه السن الصغيرة.

■ *حدثنا عن الزواج في ذلك الوقت*

- الحياة كانت بسيطة والكل يد واحدة.. يتكاتفون ويتعاونون فلا يشعر العريس وأهله بأي ضيق أو ضائقة مالية، وكان أهل العريس هم الذين يختارون العروس، ولم يكن بيدها أن ترفض، والحمد لله أعيش حياة هانئة سعيدة، فقد أنجبت من ابنة خالي ٥ أولاد، ومن الزوجة الثانية ولدا واحدا.

■ ***وماذا عن تكاليف العرس؟***

- بطبيعة الحال تكفل والدي بكل التكاليف، وأنا لا أكاد

أدري مما حولي شيئا، وأخذوني إلى "المحناية" لتحني يداي ورجلاي، وكنت لا أتحمل ذلك وأضحك بشدة، وكانت "المحناية" تستغرب كيف سيتم تزويج هذا الصبي الذي يضحك على أمور لا تستوجب الضحك.

■ *المهم: كم تكلف العرس؟*

– لم يتكلف كثيرا.. فقد أخبروني أن كل التكاليف والمصاريف لم تتعد ٢٠٠٠ درهم، فجونية العيش كانت وقتها لا يزيد سعرها عن ١٥ درهما، ثم، القناعة كانت عند الجميع والحياة بسيطة، في مثل هذه الأيام يتكلف العرس البسيط أكثر من مليون درهم، وفي رأيي أن هذا إسراف مبالغ فيه ولا داعي له، وقد حث زايد رحمة الله عليه شباب اليوم على ضرورة الاقتصاد في التكاليف، وعدم النظر إلى المظاهر والغيرة، وكل منهم يريد أن يكون أفضل من ربيعه، وكذلك الحال بالنسبة للبنات أيضا، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحثنا على الاقتصاد في التكاليف وكان يقول ما معناه أقلهن مهراً أكثرهن بركة، وقد نبه الشيخ زايد رحمه الله على الشباب بضرورة الاقتصاد في التكاليف حتى لا يبدأ الشاب حياته مثقلا بالديون، والحمد لله، فقد تجاوب الشباب المواطنين مع دعوة المغفور له بإذن الله الشيخ زايد وعاشوا في راحة واطمئنان.. لا تطاردهم بنوك ولا تنغص حياتم ديون.. والأهل لهم دور كبير في ذلك.

ختم القرآن الكريم

ويواصل بو سلطان الحديث عن فترة الصبا فيقول: ختمت القرآن الكريم عند المطوع محمد رفيع، وهو من فارس، جاء ليعلم الأطفال القرآن الكريم وبعض الأحاديث الدينية، كنا قرابة ٢٠ ولدا وبنتا، وكانت له خيمة يعلمنا فيها، وكان الأهل يحتفلون بمن يختم القرآن، وعندما أردت السفر إلى البحرين لأواصل العلم رفض والدي، وكان رأيه أنه ما قصر معي ووفر لي كل ما أريده، فلا داعي للغربة والتعب.. ثم أشار إلى بندقيته وسألني: هل يفارق الإنسان هذه؟.. قلت له أبدا.. قال: وكذلك أنت.. لن تفارقني أبدا.

ويبتسم بو سلطان وهو يروي لنا كيف بدأ حياته العملية.. قال: تركت مهنة الطواشة والبحث عنها، ليس برغبتي ولكنني مضطرا، فقد أصيبت سوق اللؤلؤ بكساد كبير نتيجة الحرب العالمية، ونتيجة ظهور اللؤلؤ الصناعي، ونتيجة تأثر المغاصات، فلم يعد الطلب على اللؤلؤ كبيرا كما كان سابقا فتراجعت مهنة الطواشة إلى حد كبير، وكان لابد أن أبحث عن عمل يعينني، فذهبت إلى الشيخ شخبوط بن سلطان رحمة الله عليه وكان وقتها حاكماً لأبوظبي.. وأذكر أن أول درس تعلمته كيفية استخدام البندقية، وقتها كان سني وجسمي صغيرين، وأذكر أنهم عندما علموني كيفية إطلاق النار، كانوا يضعون «القدو» هدفاً قرب باب القصر، ويعلموني كيف أرميه، وكنت كلما انطلقت الرصاصة ترميني البندقية بارتدادها إلى الخلف حتى أكاد أقع على الأرض من صغر وضعف جسمي، لكني واصلت الاجتهاد حتى أصبحت من رجال الشيخ شخبوط فيما بعد.

■ *وكيف رأيته؟*

– كان حكيماً رحمة الله عليه، ولم تكن تصادفه مشكلة إلا وحلها، وكانت القبائل تلجأ إليه ليوفق بينها وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، وكان حازماً، وذكياً، ورحب الصدر، ثم جاء من بعده الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمة الله عليه، وكان نعم الأب والأخ والقائد، وأوتي من الحكمة الكثير، ثم جاء من بعده صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة– حفظه الله– فكان خير خلف لخير سلف هو وإخوانه الشيوخ حفظهم الله ووفقهم لما في الخير، ساروا على نهج والدهم، وقدموا الكثير للوطن والمواطن، نسأل الله أن يوفقهم لما فيه الخير للجميع.

خدمة المواطنين

تدرج بو سلطان في الوظائف والمهام التي تخدم أبناء الوطن.. فتم تعيينه في المجلس الاستشاري، وفي لجنة الأراضي ببلدية أبوظبي.. وهي وظائف هدفها خدمة المواطنين وفقا لتوجهات القيادة الحكيمة التي وضعت عملية بناء الإنسان هدفها الأهم والأسمى، والآن.. انشغل بو سلطان في أعماله الخاصة وعن ذلك يقول: الحمد لله فقد أكرمني ووفقني في تربية أولادي تربية حسنة وأهلتهم ليقوموا بدورهم خير قيام في خدمة الوطن.

بو سلطان يجد الآن متعته في متابعة الركاب (الهجن) ورعايتها، فهو يقطع قرابة ٦٠ كيلومتر ذهابا ومثلها إيابا لمتابعة هجنه وتفقد أحوالها وتقديم الطعام لها في أوقاته رغم وجود راع لها.. وعن ذلك يقول أيضا: أحيانا أسير عدة مرات في اليوم للعزبة حتى أطمئن عليها وأجد متعة كبيرة في متابعتها.. خاصة وأنني أجد منها اهتماما عند قدومي إليها، فالإنسان منا يعتقد أنها بهائم لا تفهم، لكن سلوكها يقول غير ذلك، فهي تدور



عبد الله مع ابنه سلطان في حوار عن أيام زمان

حول السيارة عندما أحضر إلى العزبة، وتسعد عندما أقدم لها الطعام بيدي.. وتظل على هذا الحال حتى أغادر المكان فتعود إلى أماكنها في العزبة التي اعتادت عليها، ويقول بو سلطان: إن الهجن تشعر بالحنين والحنان، فهي تحن للمكان الذي نشأت أو تربت أو تعيش فيه مهما بعدت بها المسافات، فإنها تعود حتى لو كان غيابها لأيام وبعدها لعدة كيلومترات، وتشعر بالحنان إذا تعامل معها شخص به، فهي تحن إليه وتقترب منه وتتشمم رائحته كنوع من الود، وهي أيضا تتفقد بعضها بعضا، فإذا غابت ناقة عن العودة إلى الحظيرة فإنها تترقب عودتها، وحدث ذات مرة أن وجدت الركاب «ترزم» (تحن وتحدث صوتا) وهي تنظر غرباً ناحية بوابة العزبة، فلما تفقدتها وجدت إحداها لم تعد بعد.. ركبت سيارتي وسرت في الاتجاه الذي كانت الإبل تنظر إليه، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا وجدت الناقة وقد ولدت وهي تعتني بوليدها، فقدمنا إليها طعاما وتركناها ترعى وليدها حتى يستطيع المشي ثم تعود به إلى العزبة.

سوالف السفر

بو سلطان سافر إلى العديد من بلاد العالم، وهو يصور لنا ذلك بقوله: «ما خلينا بلد ما سافرنا لها».. وله في البلاد التي سافر إليها قصص تروى.. فعندما سافر إلى الكويت وبلاد الخليج بشكل عام كانت سفراته في تجارة السمك حيث يصيدونه، ويجففونه، ويسافرون به إلى الكويت وقطر والبحرين أو البصرة في العراق لبيعه هناك.

ويتذكر بو سلطان أنه ذات مرة سافر إلى الكويت لشراء خيام للشيخ شخبوط بن سلطان رحمة الله عليه، وكان معه عدد من الأفراد، ونزلوا إلى الكويت حيث تركوا جوازات سفرهم عند موظفي الجوازات لختمها بختم الدخول كما تقتضي الأصول، وذهبوا للمدينة ليتجولوا ويبحثوا عن مبتغاهم، وظلوا على هذا الحال عدة أيام، وفجأة أبلغهم ربان السفينة التي جاءوا عليها أن المغادرة «غدا الجمعة»، تذكروا أنهم تركوا جوازات السفر عند قسم الجوازات، فهرولوا إلى هناك وكان الدوام قد انتهى، فقالوا لهم ليس أمامكم فرصة الحصول على الجوازات إلا يوم السبت، احتاروا ماذا يفعلون والسفر في اليوم التالي، وضياع الموعد معناه أشياء كثيرة وقد يترتب عليه البقاء في الكويت لأيام وأسابيع حسب حظهم ونصيبهم، فربما يجدون مركبا يسافرون عليه وربما لا. وإذا حدث فمتى؟!. فقد وضعهم هذا الخبر المفاجئ في موقف لا يحسدون عليه.. احتاروا ماذا يفعلون؟ ولم يجدوا بداً من الذهاب إلى المدينة لمقابلة الشيخ سعد العبد الله – شفاه الله وعافاه– وعرضوا عليه الأمر، فقال لهم: «فالكم طيب»، وقبل صلاة المغرب كانت عندهم جوازات سفرهم، وغادروا إلى أبوظبي في موعدهم.

شراء الصقور

وسافروا إلى سوريا عدة مرات لشراء الصقور.. وفي

إحدى المرات كان معه أحمد بن جمعه، قابلهم شخص قائلا: لقد تأخرتم.. فلم يعد هناك صقر واحد للبيع في سوريا.. طبعا هذا الخبر جعلهم في غاية الضيق، فهل قطعوا آلاف الأميال ليعودوا بخفي حنين؟.. لكن عبد الله كان يعرف شخصا سورياً اشترى منه قبل ذلك عدة صقور فذهب لاستشارته والتعرف على الأخبار من عنده، فأكد لهم الرجل صحة الخبر وأن تجار الكويت وقطر قد سبقوهم هذه المرة، وأمضوا ١٥ يوما في سوريا من البحث المضني ولا فائدة، وعندما يئسوا، كانت اراده الله فوق كل شيء، فبينما هم جالسين عند صديقهما السوري يتدبرون أمرهم، إذ دخل عليهم فجأة رجل جاء يعرض صقورا للبيع، وبعد فحصها.. اشترى بو سلطان ٢٠ صقرا.. وفي زيارة ثانية ١٧ صقرا، وفي زيارة ثالثة ١٣ صقرا.. وحملوهم وعادوا بهم إلى أبوظبي فيما يشبه الغنيمة الكبيرة.. بعد أن اعتراهم الخوف وبلغ بهم اليأس مبلغه.

حادث مؤلم

وعلى ذكر الصقور والقنص.. يروي لنا بو سلطان حادثة تعرض لها، فقد كان مع الشيخ شخبوط بن سلطان رحمة الله عليه في رحلة قنص في منطقة الفوعة قرب العين، ولم يكن الصيد وفيراً، فقرروا السفر إلى مسقط لمواصلة الصيد هناك، ولما وصلوا إلى مسقط، اشتروا دعونا (سياج من جريد النخيل).. وحملوها على السيارة التي كان فيها الشيخ سعيد بن شخبوط، ومبارك بن فاضل المزروعي وأحمد بن بطي وبو سلطان وشخص أخر من الظواهر كان اسمه صوايح، السيارة كانت تسير متثاقلة على طريق قريبة من البحر.. وفجأة وجدوا رجلا (شيبة) على الطريق يشير لهم ليأخذوه معهم ولو لنصف الطريق، اقترح بعضنا أن نحمله فوق الدعون والخيام التي تحملها السيارة في الخلف، بينما رفض آخرون لعدم وجود مكان، وانتصر الرأي الآخر وواصلناالسير، وفجأة انفجر اطار السيارة فتدهورت ثلاث مرات، ولم أدر بعدها إلا وأنا أحاول النجاة من الغرق، فقد قذفني تدهور السيارة إلى مياه البحر، وبقيت أقاوم الغرق ولم أفكر فيما حدث وكيف حدث، وعندما تمكنت من الوقوف على رجلي رأيت الشيخ شخبوط رحمة الله عليه وقد جاء مهرولا ناحيتنا ليساعدنا، ووجدت نفسي والحمد لله سليما إلا من بعض الرضوض التي أثرت عليّ، كما أنني كنت أضع خنجراً حول خصري كالعادة في تلك الأيام، فأصابني بوخذ في جنبي ظل يؤلمني فترة طويلة، ومات في الحادثة صوايح رحمة الله عليه، وعندما تأكدت من سلامتي واستعدت وعيي، وقفت أتأمل كيف نجى الله ذلك الشيبة الذي لو ركب معنا لكان موته مؤكدا!!

ويتذكر بو سلطان أيام القنص وروعتها، قال: لم يكن هناك شيء ممنوع، كنا نسير البر نخيم مدة شهر أو ٤٥ يوما نطارد فيها الحبارى والكروان والأرانب، ونجد متعة كبيرة عندما نعود في المساء إلى المخيم وكل منا يعرض على الشيوخ ما وفقه الله في صيده، كنا نفتخر بذلك ونباهي بصقورنا وكل منا يجلس يحكي كيف طارد صقره الطريدة وكيف أمسك بها، فبراعة الصقور كانت مصدر فخر لصاحبها، وأذكر أن شيبه بن هامل اشترى ذات يوم صقراً أخذ كل منا يتهكم عليه، فكان صغيراً وضعيفاً، وكلما داعبه شخص انقلب على ظهره يريد أن يخمشه بمخالبه، وهذا دليل ضعف الصقر وعدم خبرته وقدرته على القنص، لكن بن هامل صبر على تهكمنا، وظل يدرب صقره مدة شهرين، ولم يلتفت لنصائحنا بعدم الجدوى وأن عليه ألا يضيع جهده هباء، وبعد شهرين فاجأنا شيبه بن هامل بهذا الصقر وقد صار قاطعا(قويا وخبيرا في القنص) وتفوق على كثير من الصقور التي كانت أكثر خبرة ودراية وتدريبا منه.. وعاد شيبه ليرد لنا الكيل من التهكم، وامتداحه لصقره.

السفر في كابينة الطائرة

ويواصل بو سلطان، عبد الله سلطان بن راشد الرميثي سوالف ذكريات زمان قائلا: كما أخبرتك، سافرنا بلاداً كثيرة، لكن، أول مرة أركب الطائرة كانت في رحلة من أبوظبي إلى البحرين في طائرة صغيرة وكنت مع الشيخ سعيد بن شخبوط، وقد ركبنا بجوار الكابتن في كابينة القيادة ولست أدري لماذا، هل لم يكن هناك مكان بالطائرة لأنها صغيرة أم ماذا؟، لست أدري، وكانت الطائرة من ذوات المراوح الكبيرة، وكانت بطيئة، واستغرقت الرحلة إلى البحرين قرابة ساعتين تقريبا، ومن البحرين ركبنا طائرة أخرى إلى باكستان، واستغرقت الرحلة تقريبا حوالي ست ساعات، ومن باكستان إلى الهند، ومن الهند إلى البحرين في طريق عودتنا إلى أبوظبي، وقد استغرقت أضعاف أضعاف الوقت الحالي.■

مايو (أيار) ٢٠٠٦م

عدد خاص من تراث عن

المتاحف في العالم العربي

أتحفنا الباحث الإماراتي المجتهد خليفة سيف الطنيجي بهذا البحث الشائق عن أكذوبة القرصنة في الخليج التي أشاعتها بريطانيا قبل مئات السنين، ثم صدقتها، ثم روجتها لتمرير الرعب إلى المنطقة، ومن ثم، إيجاد مبرر لتدخلها العسكري الذي انتهى بتوقيع اتفاقية السلام العام ١٨٢٠م. وقد اجتهد «بو سيف» وبحث فيما يقرب من خمسين كتاباً لينبش عن أصل تلك الفرية وتداعياتها التي ألصقتها بريطانيا بالقواسم، فالهدف من البحث كما قال: ليس التوقف عند مرحلة تجاوزناها، وإنما ضرورة التوقف عند حقيقة مفادها أن التهمة التي ألصقت بالقواسم إنما هي فرية، وإنها كانت مجرد مبرر لما حدث بعد ذلك.

وقد يقول قائل: وما الداعي لنبش فترة تاريخية عفى عليها الزمن بكل مراحلها، ووجود مرحلة جديدة نعيشها، تناست فيها دول المنطقة ومعها بريطانيا ما كان، وتتطلع متعاونة نحو ما يجب أن يكون، ونقول: الحمد لله أن الأوضاع تغيرت، لكن البحث لا ينصب على تلك الأوضاع، وإنما على أكذوبة يريد الباحث دحضها، وتفنيدها، وكشف حقيقتها، مساهمة منه في تبرئة ساحة القواسم وأسطولهم، من فرية التصقت بهم.



أكذوبة أشاعتها بريطانيا.. ثم صدقتها وروجتها

■ خليفة سيف الطنيجي *

منذ فجر التاريخ المدون، أثارت منطقة الخليج العربي اهتمام القوى الكبرى في العالم، بسبب موقعها الاستراتيجي على طرق المواصلات الرئيسية بين الشرق والغرب، وبفضل قربها من حضارات مغرقة في القدم، كحضارات البابليين وسومر والسند والشرق الأقصى وفارس، وانسحب ذلك أيضا على دور أبناء الخليج التاريخي في ربط الحضارات بعضها بعضا، ومهارتهم في فنون الملاحة والتجارة والتجوال، كل هذه العوامل اجتمعت في منطقة الخليج فأغرت قوى سياسية وعسكرية متنوعة من فارس والبرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا لتشد الرحال إليها بقصد الهيمنة والسيطرة طمعا في الثروات والمكان الاستراتيجي، لذا تجد تفاعل القوى المحلية مع هذا الوافد إليها اتخذ شكلين لا ثالث لهما: إما صراعا دمويا أو تعاوناً وديا حسب مقتضيات الحال والظروف.

وقد عرف عن أهالي المنطقة خروجهم في طلب الرزق والمعرفة يشقون غياهب البحار المجهولة، ومع كثرة أسفارهم عرفوا أسرارها واكتسبوا خبرة واسعة في شؤون البحر والتجارة.. وأيضا الصراع مع القوى الأجنبية الغازية، وتفاعلوا في الوقت نفسه مع ثقافات وعقائد وأفكار شعوب عديدة و اكتسبوا مهارات التعايش السلمي.

ومهما يكن من أمر.. فالمؤكد أن المنطقة كانت عبر التاريخ عرضة لغزوات الطامعين وللحملات العسكرية الأجنبية، التي كانت تضيع في النهاية وتتلاشى بين صفرة رمال الصحراء أو زرقة أمواج الخليج.. لكن بعد أن تكون قد عاثت في البر والبحر فساداً ونهبا وتخريبا.

وبالعودة إلى تقليب صفحات التاريخ عند منتصف القرن الثامن عشر، نجد أن ساحل دولة الإمارات العربية المتحدة كان يدب بالنشاط البحري والتجاري، حيث كان أسود البحار القواسم قد سيطروا على جانبي مدخل الخليج العربي بسيطرتهم على جزيرة قشم ولنجة على الساحل المقابل، وكان طبيعيا أن تقوم بينهم وبين القوى العظمى التي كانت تسيطر على المنطقة في ذلك الوقت.. وأقصد بها بريطانيا.. علاقة تعاون أو صراع، خاصة وأن كلا الطرفين كان له نشاط بحري قد تتعارض فيه المصالح، مثل ما قام به وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية[1]. حين قاد حملة بحرية ضد رأس الخيمة في أبريل عام ١٧٢٧م للمطالبة بتعويض عن خسائر شركة الهند نتيجة تحول التجارة من بندر عباس إلى ميناء باسيدو الذي أقامه القواسم على جزيرة قشم.

أما على صعيد توثيق تلك المراحل فقد درج الكثير من الكتاب والباحثين الغربيين، ومن جاراهم من المؤرخين العرب وغيرهم على استخدام مصطلح «القرصنة» الذي جاءت به بريطانيا، لوصف النشاط البحري الذي كانت تقوم به بعض قبائل ساحل الإمارات في الخليج العربي خاصة القواسم، وعلى تسمية المنطقة التي كانوا يمارسون فيها ذلك النشاط في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بساحل القراصنة pirate coast ، كما درجوا أيضا على وصف النشاط الذي تمارسه بريطانيا ضد تلك القبائل وخاصة القواسم بمكافحة القرصنة وإحلال الأمن والاستقرار في المنطقة.

القرصنة الأوروبية في الخليج العربي

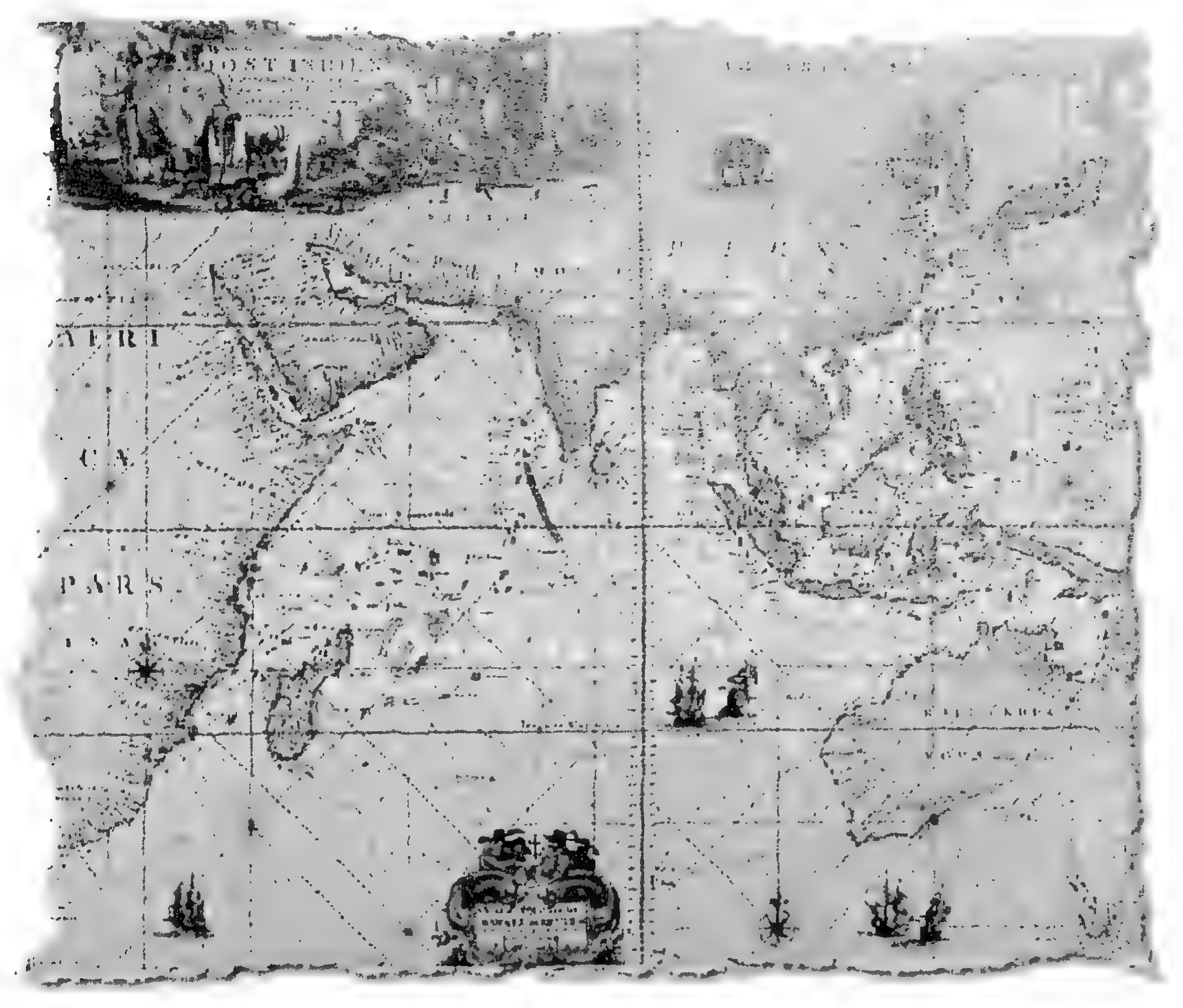
بدأت أعمال الاعتداءات والقرصنة الأوروبية ضد السفن والأساطيل العربية البحرية التجارية والحربية منذ أن غزا البرتغاليون الخليج العربي في القرن السادس عشر، وكان من أهم أهدافهم تدمير الإمكانيات العربية البحرية أينما صادفوها، حتى وإن كانت مسالمة ولم تبد نشاطا معاديا لهم.

وقد بلغ عدد السفن المدمرة أثناء تجوال الأسطول البرتغالي في المنطقة الشمالية الشرقية من المياه العمانية بالقرب من مصيرة وحدها بين ٣٠ و ٤٠ سفينة.

ولم تتوقف أعمال القرصنة البرتغالية ضد السفن العربية طيلة القرن السابع عشر، فظلوا ينهبون حتى السفن الصغيرة في الموانئ العربية ساعين إلى تحجيم القوى البحرية، وقد تذرعوا بحجج واهية منها أن هذه السفن لا تحمل تراخيص من السلطات البرتغالية، وهي في المياه العربية الإقليمية لبلادها!.

كما حفلت الوثائق الهولندية أثناء تواجدهم في الخليج

* باحث في التراث و التاريخ
altunaiji1@yahoo.com



خارطة المحيط الهندي والخليج العربي توضح مواقع القرصنة الأوروبية

بالإشارة إلى تدخل الأسطول الهولندي في تعقب السفن العربية، تأييداً للقوى الفارسية التي دخلت معها في تعاون تجاري كبير، كما اشترك الطرفان في مقاتلة القواسم عام ١٧٤٠م ، من خلال تقديم الهولنديين لسفينتين كبيرتين وعشرين سفينة صغيرة، وعدد من الزوارق في تلك المعركة، غير أن الغلبة كانت للقواسم رغم ذلك التحالف المصلحي.

أثر الصراع الفرنسي الانجليزي

أيضا.. أدى امتداد الصراع الفرنسي – الانجليزي إلى مياه المحيط الهندي والخليج العربي إلى تعرض الموانئ والسفن العربية لهجمات قرصنة من الجانبين، نتج عنها نهب بضائع وأسر عدد من السفن العربية تحت حجج ملاحقة كل طرف منهما للأخر.. كما أضرت العمليات البحرية التي قام بها أسطول قراصنة جزيرة موريشيوس الواقعة تحت الحماية الفرنسية بصغار التجار العرب الذين فقدوا أموالهم، والذين أخذوا يضغطون أكثر وأكثر على الإمام (في مسقط) الذي كان على علاقة صداقة مع فرنسا، ليسارع بمحاولة استرجاع الأموال المنهوبة، وتغيرت إلى الأسوأ نظرة الناس في الطرف الثاني من الخليج وتحديداً في منطقة البصرة للفرنسيين، بعد أن طالت سفنهم عمليات القرصنة الفرنسية، فطالب تجار بغداد إمام مسقط بمنع الفرنسيين من دخول ميناء مسقط لأنهم تسببوا في فقدانهم لبضائعهم، وأصبح ذلك مطلبا ملحا بعد أن طالت القرصنة الفرنسية السفن العمانية.. فتم نهب سفينة الصالح عام ١٧٧٩م. وسبقها استيلاء القراصنة الفرنسيون على السفينة المحمودي عام ١٧٥٩م.

ورغم أن الأمر كان ممكنا ومتاحا، إلا أن العمانيين لم

يقوموا بأي عمل انتقامي ضد السفن الفرنسية، واعتمدوا الطرق الدبلوماسية لوضع نهاية لأعمال القرصنة، فهددوا بقطع العلاقات التجارية مع فرنسا في حالة استمرار القراصنة من قبل الجزر التابعة لها في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي.

لكن مسلسل أعمال القرصنة الأوروبية استمر، حيث قام القراصنة الفرنسيون الذين عرفوا بسفن الكورسير الفرنسية في عام ١٧٩٣م بالاستيلاء على السفينة العربية «فتح»، ونهبت بضائعها التي قدرت قيمتها بـ ١٤ ألف روبية.

ظهور بريطانيا في الخليج العربي

كانت علاقة شركة الهند الشرقية بالخليج العربي خاصة في أيامها الأولى في الهند سببا لوجود النفوذ البريطاني في المنطقة، فقد حدث وقتها أن زاد فائض من الأقمشة الصوفية الإنجليزية لدى الشركة، ووجد رجالها لها سوقا طيبة في إيران، وتمكنوا من الحصول على فرمان من الشاة عباس الصفوي عام ١٦١٦م بفتح وكالة للشركة في ميناء جاسك الإيراني عند مدخل الخليج عام ١٦١٩م، بعيداً عن مضايقات البرتغاليين في هرمز، وتلا ذلك فتح وكالتين أخريين في شيراز وأصفهان، وضاق البرتغاليون -سادة التجارة في الخليج وقتها- بالمنافسين الجدد، حيث عاونت سفن شركة الهند الشرقية الشاه عباس الصفوي في طرد البرتغال نهائيا عن جزيرة هرمز عام ١٦٢٢م، ثم نقلت الشركة وكالتها من جاسك إلى ميناء بندر عباس.

وعرفت السفن البريطانية طريقها إلى ميناء البصرة عام ١٦٣٩م، وأنزلت بضائعها فيه، وسمح لها عام ١٦٤٣م بفتح وكالة جديدة في مينائه، ولما دمر الفرنسيون وكالة بندر عباس عام ١٧٥٩م بعد مضي قرن من الزمان، أغلقت حكومة بومباي تلك الوكالة عام ١٧٦٣م ونقلت بضائع الشركة من بندر عباس إلى ميناء البصرة، واعترف الباب العالي العثماني بوكالة البصرة كقنصلية تتمتع بنظام الامتيازات في عام ١٧٦٤م.

ونجح رجال شركة الهند الشرقية في الحصول على موافقة كريم خان عام ١٧٦٣م لفتح وكالة جديدة لهم في بوشهر، وهكذا انتقل مركز نشاط الشركة أواخر القرن الثامن عشر من مدخل الخليج عند جاسك وبندر عباس إلى البصرة وبوشهر.

القواسم

أطلقت تسمية القواسم أو الجواسم وهي التسمية الدارجة لأهل الخليج، بشكل عام على كل القبائل

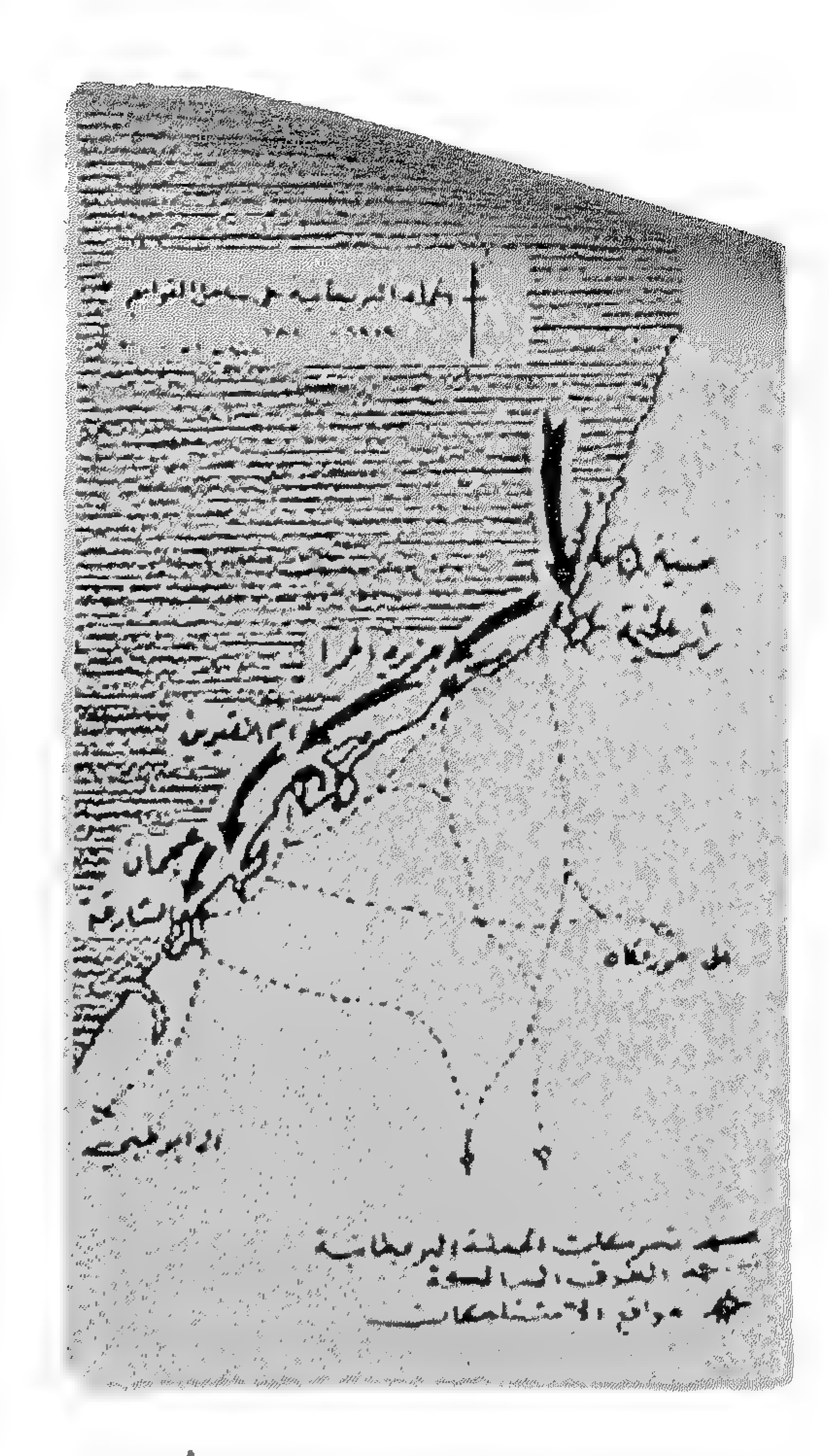


ميناء رأس الخيمة عام ١٨٠٩م

■■

أسطول القواسم كان للدفاع عن الوطن والمصالح التجارية

■■



خريطة توضح سير الحملة البريطانية على رأس الخيمة عام ١٨٠٩م

القاطنة في المنطقة الواقعة ما بين رأس مسندم شمالاً وأبوظبي جنوباً، التي كانت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والعقدين الأولين من القرن التاسع عشر، تتبع في ولائها لشيخ القواسم ومقره في رأس الخيمة.

وترى جمهرة المؤرخين أن القواسم من أصل نجدي، أي من نجد وأوسط شبة الجزيرة العربية، وكانت قبيلة متميزة منذ القدم، أما بعض المؤرخين فيذهبون إلى أن القواسم من القبائل التي أصولها عدنانية، وموطنهم الأصلي سامراء بالعراق، في حين ترى بعض المصادر الكتابية أن القواسم يعودون إلى قريش من مكة المكرمة، وقد وصلوا إلى ساحل منطقة الخليج العربي منذ خمسة أو ستة قرون. أما تسميتهم بالقواسم فتذكر المصادر أنها نسبة إلى الشيخ قاسم أحد أجدادهم.

ارتبط تاريخ القواسم بالبحر، حيث أحاط بمناطقهم الخليج العربي من جهة، وخليج عمان وبحر العرب المفتوح على المحيط الهندي من جهة أخرى، وشكلت هذه البحار عاملا رئيسيا في نشاط القواسم الملاحي والعسكري والتجاري.

كما ساعد على هذا النشاط السواحل الطويلة المليئة بالخلجان والاخوار الصالحة لرسو السفن الصغيرة، أو لبناء الموانئ البحرية، وعلى هذا الشريط الساحلي قامت قلاع وحصون وأبراج حراسة، كانت رمزاً للصمود و الدفاع، وذخيرة من التاريخ، يحدث به الآباء جيل الأبناء عن بطولة وشجاعة أهل المنطقة.

القواسم و الانجليز

في الوقت الذي كان فيه القواسم يدعمون مركزهم على شاطئ الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كان الانجليز يراقبون ذلك عن كثب، خصوصا عقب اتهامهم بالاستيلاء على ميناء باسيدو بجزيرة قشم، وزيادة أعداد سفنهم بشكل رجح قوتهم على القوى المحلية الأخرى بالخليج، فانعكس ذلك على تصرفات الانجليز، خاصة وأن استيلاءهم على باسيدو مكنهم من تحويل التجارة من بندر عباس إلى جزيرة قشم مما أصاب مركز شركة الهند الشرقية البريطانية هنالك بخسائر كبيرة.

كانت التجارة في الخليج العربي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر تتقاسمها شركة الهند الشرقية البريطانية ومؤسساتها، ودار المقيم البريطاني في البصرة و بوشهر، ووكالة مسقط، والتجار ومالكو السفن من الفرس والأرمن، وكانت السفن التابعة للعرب هي التي تتولى نقل بضائع تلك التجارة بين الهند ودول الخليج، مع مشاركة عدد قليل جدا من السفن التابعة لشركة الهند الشرقية وسفن التجار الهنود، وعندما زاد نصيب سفن شركة الهند الشرقية في عملية نقل البضائع كان ذلك على حساب السفن الهندية وسفن عرب الخليج معا.

وعلى الرغم من قلة الاشتباكات التي كانت تحدث في تلك الفترة بين القواسم والانجليز، إلا أن هنالك ملاحظة جديرة بأن يشار إليها، وهي أن الاشتباكات التي وقعت على قلتها لم تكن بمعزل عن الاشتباكات بين القواسم وإمامة مسقط، مما يرجح أن مهاجمة القواسم للسفن الإنجليزية لم تكن بقصد القرصنة كما أطلق عليها الانجليز، بل كانت بسبب ميل الانجليز إلى

إمام مسقط في حروبه مع القواسم، ومما يؤيد ذلك أن القواسم في بضع سنوات منذ ١٧٧٥م تمكنوا من القيام بأعمال تجارية مربحة، ومعلوم أن التجار هم أكثر الناس حاجة إلى تأمين طرق تجارتهم، إلى جانب أسباب أخرى تتطرق لها هذه الدراسة.

أول صدام موثق

يعد العام ١٧٢٧م هو تاريخ أول صدام موثق بين القواسم والإنجليز منذ وصولهم إلى منطقة الخليج العربي، حيث بدأ هذا المشهد بإعداد الشيخ مطر بن رحمة بن كايد القاسمي خطة للاستيلاء على جزيرة قشم، مجهزاً حملة بحرية غادرت رأس الخيمة وأنزلت قواتها في ميناء باسيدو في الجزيرة واحتلته، مما أثار حفيظة مستر داربر وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية المقيم في إيران، وجعلته يتوسل إلى حكومة الهند لترسل إليه النجدة لكي يطرد القواسم من الجزيرة، فوصلت وحدات بحرية بريطانية مكونة من السفينة بريتانيا والسفينة بنغال، وسفينتين أخف منهما للحراسة، وهاجمت السفن البريطانية ميناء باسيدو وأجبرت القواسم على ترك المدينة والانسحاب بحرا إلى الصير[٢] في رأس الخيمة، فتبعتهم السفن الانجليزية إلى هنالك وأرسلوا وفدا ليفاوض الشيخ القاسمي لدفع تعويضات عن الخسائر التي تكبدها الانجليز بسبب تلك العملية.

من هنا ذهب الانجليز إلى اتهام قوة القواسم البحرية بالقرصنة، ليس لتلك الحادثة فقط، وأضافوا إلى ذلك واقعة استيلاء القواسم عام ١٧٧٨م على سفينة بريد بريطانية، معتبرين أن ذلك نوع من القرصنة البحرية، على الرغم من اختلاف سرد هذه الواقعة بين الطرفين، حيث قال القواسم: إن أسطولهم التقى مصادفة بالسفينة التي كانت ترفع علم الإمام في مسقط، والذي كان شيخ القواسم في حرب معه في ذلك الوقت، فهاجمها أسطول القواسم وحينما صعد البحارة على ظهرها وصارت في حوزتهم، سارع طاقم السفينة بإنزال علم الإمام ورفع العلم البريطاني في محاولة للتهرب.

وفي عام ١٧٧٩م اتهم البريطانيون أسطول القواسم بمهاجمة سفينة اسستانس البريطانية، وبهجوم مماثل بعد شهر على السفينة اسستانس سنو، بينما الحقيقة تؤكد أنه لم يتم التعرف يقينا على هوية المهاجم حتى من قبل السفن ذاتها، مما دفع بريطانيا إلى إلقاء التهمة جزافا على القواسم.

كما شهد العام ١٧٩٧م هجوماً على السفينتين بسين وفايير، وتحدث الشيخ عبد الله شقيق صقر شيخ القواسم في جلفار عن ذلك قائلا: بأنه عندما علم باستيلاء رجاله على السفينة «بسين» أمرهم



السفن الإنجليزية تقصف رأس الخيمة

بمغادرتها، واصطحب قائد المركب البريطاني معه إلى البر، وفي جانب آخر أكد قائد القواسم الشيخ صقر أنه أصدر أوامره إلى سفنه باحترام السفن التي ترفع العلم البريطاني مما يرفع التهمة عن القواسم بالقرصنة في هذه الحالة.

وفي حادثة السفينة فايير أكد زعيم القواسم صقر بن راشد في معرض رده على اتهام القرصنة والاستيلاء على السفينة، بأن القواسم ليسوا في نزاع مع البريطانيين، وأكد على استعداده للقيام بأية تسوية عادلة، وكان لهذا الخطاب وقع طيب لدى الحكومة البريطانية في الهند.

أسباب وعوامل اتهام القواسم بالقرصنة

- محاربة ما سمته بريطانيا تجارة الرقيق في الخليج، واستخدامه كعذر لإعلان الحرب على سفن القواسم.
- محاربة انتشار التطور التجاري للقواسم في المنطقة، بعد أن تخلصت من القوى الأوروبية المنافسة الأخرى، خاصة بعد أن سيطر القواسم على بر فارس ووصلت تجارتهم إلى الهند.
- دخول بريطانيا طرفا في معادلة الحرب بدعم حكومة مسقط في حربها ضد القواسم في ذلك الوقت.
- تأييد الانجليز الحكومة الفارسية لمحاربة القواسم والتخلص منهم.
- ممارسة القوى الأوروبية القرصنة بالمنطقة محتمية بسند سياسي عسكري، يعتمد على حكومات ودول ذات سيادة مثل: بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال، في حين أن القواسم كانوا قبيلة لا تمثل كيانا يرتقي ليكون دولة، أي أنهم يمثلون مجموعة يسهل اتهامها بالقرصنة، رغم أنهم كانوا في حقيقة الأمر يحاولون منع النفوذ الأوروبي من الولوج إلى المنطقة.

أي مشكلة تواجه أي سفينة في الخليج كانت بريطانيا تلقي تبعيتها على القواسم فوراً!!

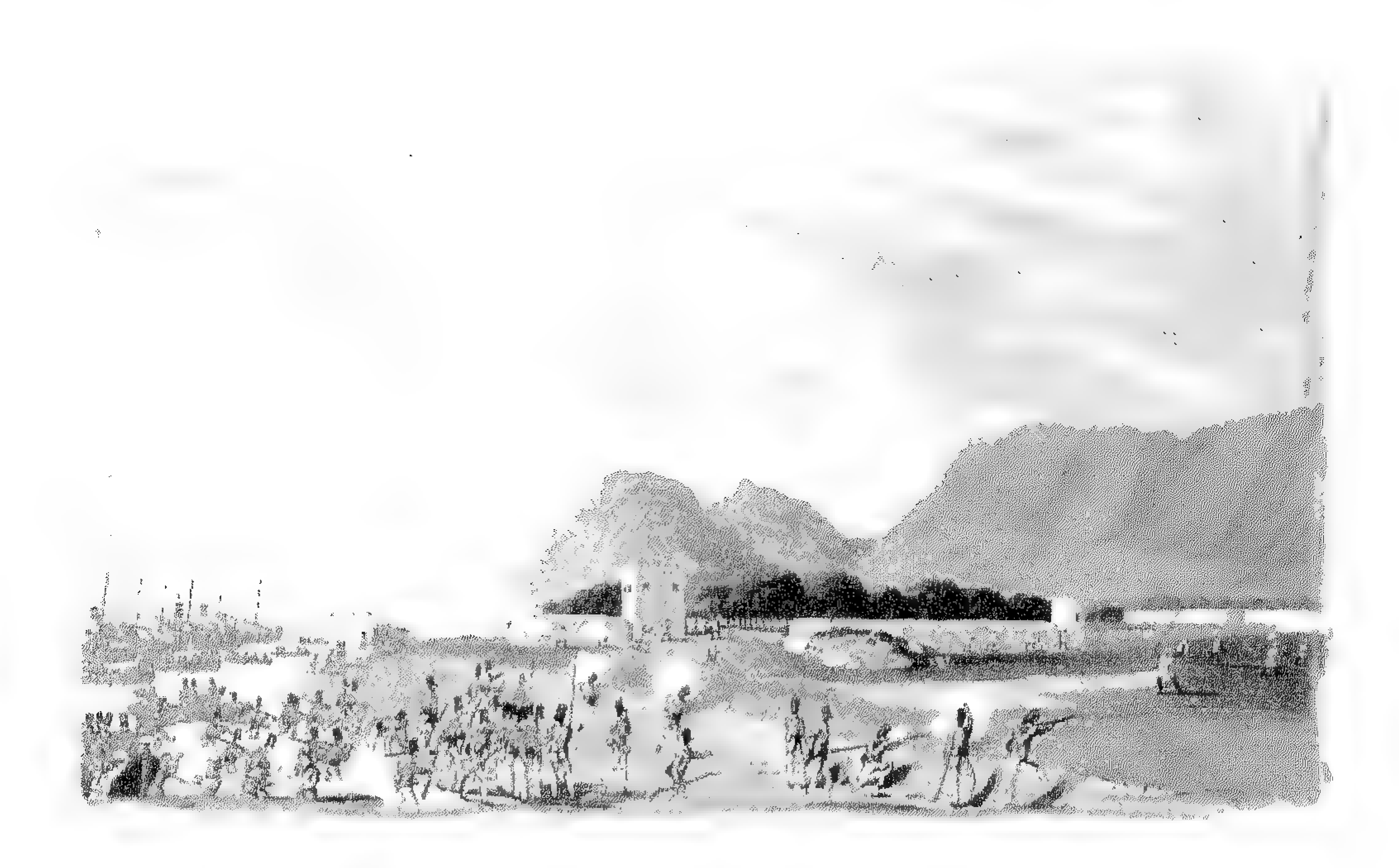
- القرصنة المتبادلة بين القوى الأوروبية المتواجدة في المنطقة أعطاها شرعية ممارسة القرصنة على أسطول القواسم، فقد استولت فرنسا بين عامي ١٧٩٣-١٧٩٧م على ١٤٧٣ سفينة من الانجليز، في حين استولى الانجليز في الفترة نفسها على ٨٢٣ سفينة فرنسية.
- اعتبر البريطانيون تحالف القواسم مع الدعوة الوهابية بأنه موجه ضدهم وضد إمام مسقط.
- الصدام البحري بين السفن البريطانية والفرنسية ترك ظلاله على السفن العربية أيضا فلم تسلم من شره، ومع هذا.. كان كل صدام بينهما يثير حفيظة المتضرر ليس ضد الطرف الثاني، وإنما ضد العرب رغم أنهم ليس لهم باع في ذلك، وحتى عندما يتأكدون من براءتهم، لم يسلم الأمر من اتهامهم بالتواطؤ مع الطرف الثاني.
- محاولة الاستفادة من التحول القسري في القيادة القاسمية، بغياب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي في الدرعية، وظهور قيادتين للقواسم في رأس الخيمة والشارقة منذ ١٨٠٩م.
- عندما اشتد عود الأسطول البريطاني في الخليج، وأصبح بإمكانه مقارعة أسطول القواسم القوي.. رأت بريطانيا السعي للقضاء على ذلك الأسطول للانفراد بالهيمنة البحرية على المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى التخلص من الإتاوات التي كانت تدفعها للقواسم للعبور أو استخدام الموانئ.
- سياسة الاحتكار التي استخدمتها شركة الهند الشرقية البريطانية في تجارتها وتعاملها مع السواحل التي يسيطر عليها القواسم، فرض ذلك التصادم.

الحملات البريطانية على القواسم

مع قرب نهاية القرن الثامن عشر، تدهورت أوضاع شركة الهند الشرقية التي بدأت تعاني من خسائر متتالية، وقد أرجع البريطانيون أسباب الخسائر إلى زيادة القرصنة على يد قبيلة بني كعب وصغار الشيوخ في الساحل الفارسي، وسلوك القرصنة التي استمروا في إلصاقها بالقواسم، وتزايد عمليات التهريب، وانتشار الطاعون في العراق عام ١٧٧٣م، واحتلال الفرس للبصرة خلال ١٧٧٦- ١٧٧٩م، والحرب الأهلية في فارس عام ١٧٧٩م.

ومع بداية القرن التاسع عشر تولى الشيخ سلطان بن صقر القاسمي مقاليد الحكم بإمارة القواسم، واستطاع القواسم في ظل حكمة(١٨٠٣-١٨٦٦م) توسيع تجارتهم، مما أثار مخاوف الحكام العمانيين، فنشأ صراع جديد بينهم وبين القواسم، لكن الصراع الأهم الذي واجهه القواسم كان مع البريطانيين الذين لم يلبثوا أن أصبحوا حلفاء العمانيين.

وفي خضم هذه التحالفات والصراعات، وبعد أن



نزول الجنود الإنجليز عند الصباح على شواطيء رأس الخيمة ١٨٠٩م

ضمن البريطانيون تعاون الفرس والعمانيين معهم، وفي محاولة لإعادة الهيبة البريطانية إلى أسطولها وإلى تجارة شركة الهند الشرقية، وجه البريطانيون انتباههم إلى منافسهم الأكثر دأبا وهم القواسم، الذين كانوا يمارسون تجارة نشطة رابحة في البحر، وكان أسطولهم عندئذ يتكون من ٦٣ سفينة كبيرة، و٦٦٩ سفينة صغيرة، بقوة عامه تبلغ ١٨.٧٦٠ رجلا، وكان القواسم يضعون نصب أعينهم أن التجارة هي مصدر العيش الوحيد تقريبا في بلادهم القاحلة وعليهم العمل على حمايتها.. وبالتالي فإن البريطانيين كانوا منافسا خطيرا لهم، يستطيع أن يحرمهم من مصدر رزقهم، وكانت المنافسة الأجنبية على التجارة في الخليج قد أصبحت أحد معالم الحياة هنالك منذ وقت طويل، واعتاد سكان المنطقة على التعايش مع تلك المنافسة، لكن بدا أن البريطانيين قد ادخلوا عليها عنصرا جديدا، حيث عملوا على استحداث نظام يقضي بأن تحصل كل السفن التي تتاجر في الخليج العربي على جوازات مرور من بريطانيا، وهذا يعني أنهم اعتبروا أنفسهم سادة على مياه الخليج، ورأوا أن التجارة عبره إنما تتم لصالحهم، ولاحق لغيرهم في المتاجرة عبره دون رضاهم، وكان رأيهم في العرب أنهم قراصنة وسفنهم لا تعمل إلا بالقرصنة.. لكن بالنسبة للفرنسيين، فكان لهم رأي مخالف فيهم، فسفنهم التي تعبر الخليج كانت مسلحة، ومع هذا رأى البريطانيون أن ذلك دفاع عن النفس، أو لمهاجمة العدو.. وأن هذا أمر مشروع طالما أنه بتفويض من دولتها.

النشاط الواسع والنجاح الكبير للقواسم في التجارة في الخليج وخارجه جعلهم هدفا لمثل تلك الاتهامات الباطلة بالقرصنة، حتى وصل الأمر بالبريطانيين إلى أن أي سوء حظ يصيب السفن البريطانية في الخليج وخارجه، كان يعزى فورا لقرصنة القواسم!، وكانت الإشاعات تؤخذ على أنها حقائق مسلمة وتضاف إليها الروايات المحفوفة بالشك والريبة، ثم ترفع في صورة تقارير يقدمها المندوبون البريطانيون إلى حكومتهم، وكلما أراد المندوبون أو المقيمون البريطانيون المنتشرون على سواحل الخليج أن يبرروا أو يدافعوا عن سياسة أو سلوك نحو حادثة، كانوا يجدون العلة المباشرة ويلقون باللوم جزافا عليهم، وهذا ما عملت عليه أيضا شركة الهند الشرقية البريطانية، بوضع الذرائع وإطلاق صيحات الاستغاثة، وطلب العون لحماية سفنها وتجارتها.

الحملة الأولى عام ١٨٠٥م

للأسباب التي مضت.. سيرت بريطانيا ثلاث حملات على القواسم لكسر شوكتهم، والقضاء على أي منافس لهم في التجارة البحرية في الخليج العربي، وكانت

الحملة الأولى عام ١٨٠٥م ، وقد عجل بها احتدام التنافس بين أسطول القواسم الذي يسيطر على ضفتي الخليج، وبين الأسطول البريطاني بقيادة شركة الهند الشرقية البريطانية، وكانت جزيرة قشم هي البداية، وليست رأس الخيمة مسقط رأس قوة القواسم كعملية جس نبض أو استعراض للقوة، وتبع ذلك توقيع معاهده بين القواسم وبريطانيا في ٦ فبراير ١٨٠٦م، وقعها من جانب رأس الخيمة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم القواسم، وعن الجانب البريطاني الكابتن ديفيد سيتون في بندر عباس، واتفق الفرقاء بموجبها على أن يعيد القواسم السفن التي أسرت ويحترموا العلم وممتلكات شركة الهند الشرقية.

الحملة الثانية عام ١٨٠٩م

وسيرت بريطانيا بالتعاون مع إمام مسقط حملة ثانية ضد القواسم، لتكرار -على حسب قولهم- عمليات القرصنة في الخليج، ولدعم إمام مسقط ضد أعدائه القواسم، والتخلص منهم، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية تعد العدة في بومباي للقيام بحملة ثانية على القواسم، الذين تعاظمت قوتهم بشكل كان يهدد طرق التجارة البريطانية في الخليج والمحيط الهندي، ورأى سعيد بن سلطان حاكم مسقط أن اشتراكه في هذه الحملة سوف يؤدي إلى توثيق عرى الصداقة بينه وبين البريطانيين، وأنه بإمكانه الاستعانة بهم في تحقيق بعض تطلعاته التي كانت تهدف إلى استعادة الموانئ والجزر التي استولى عليها القواسم منه، أو الاستفادة منهم بكسب تأييدهم له ضد مناوئيه أو ضد الحركات الانفصالية، إلى جانب ظهور تحالف قوي يهدد عمان بين القواسم والوهابيين، مما يعني ضرورة الاستعداد للتصدي لهذا التحالف الناشئ.

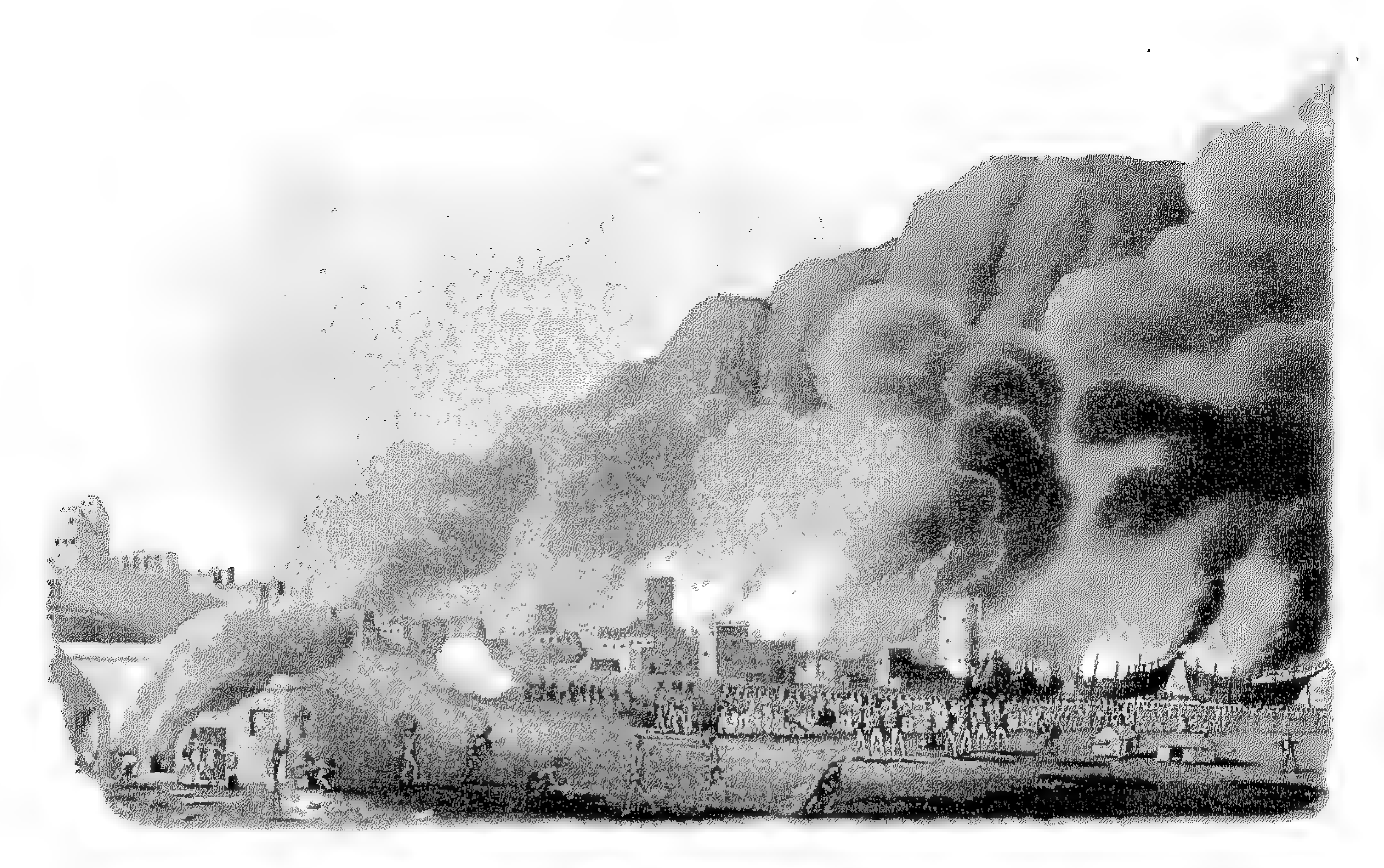
لهذا كانت الحملة الثانية في ١١نوفمبر ١٨٠٩م، وكانت هذه المرة متوجهة صوب عاصمة القواسم رأس الخيمة، والتي حلت بها الكارثة جراء هذه الحملة، وقد أبلى القواسم بلاء حسنا في الدفاع عن مدينتهم رغم القوة التي حشدتها بريطانيا لذلك، ولم تسلم من هذه الحملة الشعواء حتى سفن القواسم الموجودة في لنجة على الضفة الأخرى للخليج.

وبعد الحملة الثانية ساد اعتقاد لدى البريطانيين بعجز القواسم عن القيام بأي نشاط جديد في البحر، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى استعاد القواسم قوتهم واستأنفوا نشاطهم البحري.

وحفاظا على نشاطهم وتجارتهم.. فضل القواسم إعادة العلاقات الطيبة مع بريطانيا، وذلك بالتوصل إلى



اقتحام الجنود الإنجليز لمدينة رأس الخيمة ١٣ نوفمبر ١٨٠٩م



رأس الخيمة تحترق إثر الهجوم ١٨٠٩م

اتفاقية أو معاهدة في عام ١٨١٤م، تؤكد احترام القواسم للسفن التي تحمل العلم البريطاني، والتعاون البحري بين القوتين، ولأول مرة يظهر علم رسمي للقواسم، حيث أعطت هذه المعاهدة لسفن القواسم حق رفع علم بلون أحمر وفي وسطه عبارة لا اله إلا الله محمد رسوله الله.

بعد فترة من المعاهدة، أخذت بريطانيا تتهم القواسم باعتدائهم على سفن رعاياها الهنود، في محاولة منها للتنصل من اتفاقية بوشهر عام ١٨١٤م، حتى أنهم اتخذوا من حادثة قيام إبراهيم- وهو أحد أقارب الشيخ حسن بن رحمة زعيم القواسم في رأس الخيمة - بالاستيلاء على سفن التجار الهنود، ذريعة ليتهموا القواسم بخرق الاتفاقية والعودة إلى القرصنة، بالرغم من تأكيد الزعيم القاسمي بأنه لا يعلم بما حدث، وليس مسؤولا عنه، وأضاف: إن اتفاقية بوشهر لا تشمل الهنود. من هنا قامت بريطانيا بالاستعداد حملة جديدة على القواسم عام ١٨١٦م، إلا أنها فشلت [٣].

الحملة الثالثة عام ١٨١٩

كانت بومباي تخطط لحملة ضد القواسم مع تقدم القوات العثمانية في شبة الجزيرة العربية، حيث بدأت الاستعدادات لحملة ثالثة ضد القواسم عند صيف ١٨١٨م، وكان رأي نيبان حاكم بومباي الإسراع في إرسال الحملة للقضاء على القواسم، خاصة بعد سريان أنباء سقوط الدولة السعودية الأولى حليف القواسم في المنطقة على أيدي العثمانيين.

تم ارسال الكابتن وليم جرانت كيير في مهمة عاجلة إلى مسقط للوقوف على مدى الاستعداد للحملة وقيادتها، والتي عدت الأكبر على المنطقة منذ بداية القرن السابع عشر، إذ بلغ عدد الرجال ثلاثة آلاف محارب يشكل الأوروبيون ما يقارب النصف (١٦٠٠محارب) وبلغ عدد السفن الحربية ثلاثاً (ليفربول وكرلو وايدن)، أما الطرادات فقد بلغ عددها تسعة تابعة لشركة الهند الشرقية، ومجموعة من السفن الأخرى، والتحق بهذا التشكيل أسطول إمام مسقط وقواته البرية التي وصلت إلى ١٠٠٠ رجل، وثلاث سفن كبيرة.

وتوجهت الحملة صوب رأس الخيمة حيث وصلتها في الثالث من ديسمبر١٨١٩م، واستمر الهجوم على المنطقة ستة أيام، وشمل معظم مدن الساحل الإماراتي[٤]، ونتج عنه خسارة القواسم لـ ١٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح وأسير، وقد استمات القواسم في الدفاع عن وطنهم رغم تواضع أسلحتهم أمام قصف المدافع البريطانية، لكن قواتهم لم تستطع الصمود أمام هذه الحملة فائقة التسليح بالنسبة لهم.

ونتج عن هذه الحملة توقيع شيوخ المنطقة كلها، وليس شيوخ القواسم فقط، على ما عرف بمعاهدة

السلام العام، حيث وقع في ٦ / ١ / ١٨٢٠م الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم إمارة الشارقة، وفي ٨ / ١ / ١٨٢٠م وقع عليها كل من: الشيخ حسن بن رحمة شيخ رأس الخيمة، وشيخ الجزيرة الحمراء وشيخ ضاية، وفي ٩ / ١ / ١٨٢٠م وقع عليها شيخ دبي، وفي ١١ / ١ / ١٨٢٠م وقع عليها شيخ ابوظبي، وفي ٢٨ / ١ / ١٨٢٠م وقع عليها شيخ الرمس، ثم أدمجت هذه الاتفاقيات المنفردة جميعها في معاهدة واحدة عرفت باسم معاهدة السلم العامة، وقعها الشيوخ مجتمعين في ٣١ / ١ / ١٨٢٠م، وترك الباب مفتوحا لبقية الشيوخ لدخول المعاهدة التي تضمنت ١١ مادة.

أكذوبة القرصنة

تعود تسمية «ساحل القراصنة» إلى بدايات ظهور بريطانيا في منطقة الخليج العربي، بعد أن صممت شركة الهند الشرقية البريطانية على زيادة حصتها من تجارة الخليج بكل الوسائل الممكنة، وأي زيادة في نصيب الشركة إنما تكون على حساب المواطنين من عرب الخليج: العتوب والعمانيين والقواسم، وقد استطاع العتوب من عرب الخليج أن يقيموا تجارة مزدهرة مع الهند مباشره متجنبين تماما ما اصطلح عليه بعرب أسفل الخليج، ونعني هنا القواسم والعمانيين، أما العمانيون فقد رأوا أن يجعلوا من أنفسهم القوة العربية المسيطرة على الخليج، لكن محاولاتهم لفرض إرادتهم على العتوب واحتلال قاعدتهم في البحرين لم تنجح.. ولأنهم لم تكن عندهم القوة البحرية الكافية لتحطيم القواسم، مما دفعهم إلى التحالف مع البريطانيين ضد القواسم، أما البريطانيون والمتمثلون في شركة الهند الشرقية، فكانوا على استعداد لمسايرة ذاك التحالف لكن بلا حماس بالرغم من جهود ديفيد سيتون المقيم البريطاني في مسقط لإقناع رؤسائه بمزايا تلك السياسة، وتبين للشركة في بومباي أن المعارضة الحقيقة لخططها في الخليج ستأتي من القواسم، لكن الحكومة كانت تعلم أيضا أنها لا تملك السفن الحربية الكافية لهزيمة أسطول القواسم القوي، وقد لا يكون العون الذي يستطيع أن يقدمه العمانيون كبيرا لكن المؤكد انه لا ضير من استعمال مسقط ضد رأس الخيمة في ذلك الوقت، على الأقل إلى أن تتمكن الشركة من حشد القوة الكافية للتغلب على القواسم، ولتحقيق ذلك الهدف لزم حشد دوائر صنع القرار في حكومة بومباي وحكومة الهند بل حكومة الإمبراطورية نفسها ضد القواسم، ولهذا شن موظفو الشركة حملة جماعية منسقة لتشويه صورة القواسم ووصفهم بأنهم قراصنة لا يعرفون إلا السلب والنهب، مما يشكل تهديدا خطيرا لجميع النشاطات البحرية في المحيط الهندي والمياه المجاورة، وأي بلية تقع لأي سفينة يعزونها وبنحو بارز إلى قراصنة القواسم، وبين عشية وضحاها أصبحت كلمة القواسم مرادفه لكلمة قراصنة، بل إن بلاد القواسم صارت تسمى ساحل القراصنة بدلا من الساحل العربي أو بدلا من الاسم القديم الصير.

■■

إذا كان أسطول القواسم للقرصنة والنهب فكيف توقع معهم بريطانيا معاهدة سلام عام؟

■■

وشهد شاهد من أهلها

ولعل أهم شهادة تبرئ ساحة القواسم هنا هي شهادة فرانسيس واردن السكرتير الرئيسي للحكومة البريطانية الذي قال: «حتى عام ١٧٩٦م لم استطع أن استقصى حالة اعتداء واحدة قام بها القواسم ضد السفن التي تحمل العلم البريطاني».

وفي هذا الصدد أشار القائد البريطاني القبطان فرانسيس ارسكين لوخ الذي كان على متن السفينة ايدن بين عامي ١٨١٨–١٨٢٠م، في مذكراته التي أخرجها السير تشارلز بلجريف في كتاب حمل عنوانا متحاملا على أهل المنطقة هو: (ساحل القراصنة) حيث قال اعترافاً منه: «علما بأنه ليس كل القراصنة في الخليج أو بحر العرب كانوا من أصل عربي، بل كان هنالك قراصنة من أوروبا، وكانت مدغشقر قاعدة خاصة بهم حتى نهاية القرن السابع عشر، وكانت هناك أسطورة عن زعيمة انجليزية للقراصنة الانجليز في نفس الفترة الزمنية المذكورة» ، على الرغم من أن هذه المذكرات كانت أساسا تروج لإلصاق صفة القرصنة بساحل الإمارات وبالأخص القواسم!.

كما أن قيام بريطانيا بالتوقيع على المعاهدات المتعددة منذ عام ١٨٠٦م مع القواسم يؤكد وبدون أدنى شك نفي صفة القرصنة عن القواسم، فكيف بقوة مثل بريطانيا ترضى بالتوقيع على معاهدة مع قراصنة يمكن القضاء عليهم في معركة صغيرة؟!.

بالرغم من إطلاق بريطانيا على المنطقة اسم ساحل القراصنة، وإلصاق هذه التهمة بأي شكل للقواسم



(خرافة القرصنة العربية في الخليج)
كتاب صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

سادة البحر في ذلك الوقت، ثم سعيها لتوقيع اتفاقيات ومعاهدات معهم، إلا أن ذلك لم يمنع من وقوع مواجهات مع سفن شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج العربي، والتي كانت تشكل في الواقع منافسا شديدا للنشاط التجاري للقواسم في المنطقة، المهم، أن تلك المواجهات لم تكن في مجملها خرقا من القواسم للمعاهدات الموقعة، لأنها كانت تتم من الأشخاص الخارجين عن سيطرة القواسم وينسبون باعتراف القواسم.

خرافة القرصنة العربية في الخليج

لقد استطاع صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة الشارقة(٥)، من خلال عمل أكاديمي فريد في كتابه (خرافة القرصنة العربية في الخليج) الذي حصل بموجبه على درجة الدكتوراه في التاريخ من جامعة اكسترا البريطانية في عام ١٩٨٥م، أن يدحض بالوثائق والبينة العلمية الذرائع المختلقة التي ابتدعها المسؤولون البريطانيون آنذاك لتبرير هدفهم الساعي إلى تصفية وجود القواسم، عبر اتهامهم زوراً وبهتانا بالقرصنة.

فقد عالج صاحب السمو قضية اتهام القواسم بالقرصنة باقتدار، هذه القضية التي وقعت منذ حوالي ٢٠٠ عام وظلت دون تحقيق وتمحيص إلى أن جاء هذا الكتاب لبيان الحدود الفاصلة بين القرصنة والدفاع عن النفس، وأحقية الشعوب الصغيرة والكبيرة على السواء في التجارة السلمية، مفنداً نزعة الأقوياء الباحثة عن المبررات الأخلاقية والقانونية لاتخاذ إجراءات تستند إلى المنفعة الذاتية على حساب الآخرين.

وقد استعان سموه بأرشيف بومباي الذي لم تمتد له أيدي الباحثين من قبل، لتحليل وتصنيف فترة حاسمة في تاريخ الخليج العربي، كما يلقي الكتاب الضوء على أسلوب وممارسات شركة الهند الشرقية البريطانية في فترة حرجة من تاريخ الاحتلال البريطاني للمنطقة. ويضم الكتاب إلى جانب المقدمة والخرائط والصور الفوتوغرافية خمسة فصول رئيسية حول تاريخ الخليج في القرن الثامن عشر، وخرافة القرصنة في الفترة ١٧٩٧-١٨٠٦م، والهجوم على رأس الخيمة

لإبادة القواسم، والمفاوضات مع البريطانيين حتى معاهدة ١٨١٤م، ثم تدمير أسطول القواسم في عام ١٨١٩م، وذلك في نحو ٢٤٤ صفحة من صفحات تاريخ الخليج وعلى وجه الخصوص تاريخ الإمارات.

وقد صدرت الطبعة الثالثة من الكتاب مع إطلالة الدورة الرابعة والعشرين لمعرض الشارقة الدولي للكتاب٢٠٠٥م، وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٨٦م عن دار كروم هليم لندن، وينتظر أن تصدر في وقت لاحق النسخة العربية للكتاب بالغ الأهمية في الدراسات الخليجية، إذ يعكف صاحب السمو حاكم الشارقة على مراجعة نسخة اللغة العربية وإجراء ما يتوجب وما يراه سموه على المادة العلمية بعد أكثر من عقدين من الزمان على نشرها لأول مرة، وكان كثير من الجامعات العربية والأجنبية قد أبدت اهتماما متزايداً بالأطروحة وسعت إليها دائما للإفادة في الدراسات العليا والخليجية. ■

الهوامش:

١- ظهرت شركة الهند الشرقية البريطانية إلى الوجود قبل نهاية العام ١٦٠٠م بيوم واحد، بصدور مرسوم ملكي بإنشائها باسم «رئيس وأعضاء شركة لندن للتجارة المتاجرين في جزر الهند الشرقية»، وكان عدد المساهمين الأصليين ٢١٧ مساهماً ورأس المال المدفوع ٦٨،٨٧٣ جنيها انجليزيا، وبدأت الاهتمام بمنطقة الخليج العربي عندما قام وكيلها في سورات على رأس بعثة إلى فارس عام ١٦١٥م بفتح أسواق جديدة للتجارة.

٢- الصير لفظ يطلق على المرتفع الصخري من الأرض، كما يطلق على البرج في القلعة، وقديما سميت رأس الخيمة بصير القواسم.

٣- كان الهدف القيام بحملة محدودة ضد القواسم في رأس الخيمة، إلا أن القواسم استطاعوا إصابة إحدى السفن الحربية البريطانية مما اضطر قائد الحملة إلى الانسحاب.

٤- شملت ضاية والجزيرة الحمراء وأم القيوين وعجمان والشارقة وحتى دبي.

٥- هو صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد بن صقر بن خالد بن سلطان بن صقر بن راشد بن مطر بن رحمة بن مطر القاسمي، يلاحظ مدى تسلسل سموه في شجرة نسب القواسم، وارتباطه بكافة القيادة الرئيسية للقواسم منذ أكثر من ٣٠٠ عام موثقة.

المراجع:

١- بدر الدين الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ذات السلاسل الكويت ١٩٨٤م.

٢- تشارلز بلجريف، ساحل القراصنة، ترجمة عيسى أمين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،٢٠٠٥م.

٣- جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، دار الفكر العربي ١٩٩٦م.

٤- جون جوردن لوريمر، دليل الخليج، الجزء الأول التاريخي، الديوان الأميري دولة قطر، ٢٠٠٢م.

٥- سالم بن حمود السيابي، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، دمشق ١٩٧٦م.

٦- سلطان بن محمد القاسمي، العلاقة العمانية الفرنسية ١٧١٥-١٩٠٥م، دار الغرير للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.

٧- صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠م، بغداد.

٨- صالح بن مرعي القرني، الحملات البريطانية ضد القواسم ١٨٠٥-١٨٢٠م، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ٢٠٠٣م.

٩- عبدالوهاب أحمد، الخليج العربي والمحرمات البريطانية الثلاث ١٧٧٨-١٩١٤م، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠م.

١٠- عبدالقوي فهمي محمد، القواسم نشاطهم البحري وعلاقتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧-١٨٢٠م، مطبعة رأس الخيمة ١٩٨١م.

١١- علي محمد راشد، الاتفاقيات السياسية والاقتصادية التي عقدت بين إمارات ساحل عمان وبريطانيا ١٨٠٦-١٩٧١، اتحاد كتاب الإمارات ٢٠٠٤م.

١٢- علي عبدالله فارس، شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي ١٦٠٠-١٨٥٨م، الشارقة المسار،١٩٩٨م.

١٣- عيسى راشد سعيد الفلاح، سلطان بن صقر بن راشد القاسمي، ودوره السياسي في الخليج العربي ١٨٠٣-١٨٦٦م، مركز الدراسات والوثائق رأس الخيمة،٢٠٠٥م.

١٤- ليلى نقاش الحسن، الشيخ سلطان بن سالم القاسمي،١٨٩٣-١٩٨٨م، دار الخليج ٢٠٠٦م.

١٥- محمد مرسي عبدالله، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣-١٨١٨م، المكتب المصري الحديث، القاهرة ١٩٧٨م.

١٦- محمد فؤاد محمود، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير ١٩٧٥م، جامعة القاهرة.

١٧- فاطمة الصايغ، الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، مركز الخليج للكتب،١٩٩٧م.

١٨- فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ.

١٩- هيفاء عبدالعزيز الربيعي، غزاة في الخليج، الغزو الهولندي للخليج العربي والمقاومة العربية، دار الكتب الموصل ١٩٨٩م.

٢٠- مجلة دراسات، العدد العاشر، السنة العاشرة،١٩٩٧م.

٢١- مجلة الوثيقة،العدد١٢، السنة السادسة، يناير١٩٨٨م.

22- Sultan Bin Mohammad Alqasimi, The miyth of Arab piracy in gulf, London, 1986.



■ د. محمد أحمد عبد الهادي رمضان

من بين المشاكل المتعددة في بلادنا وجود العمالة الأجنبية بكثرة والتي أثرت في المجتمع بشكل كبير في عدة مجالات، وهو ما أطلقنا عليه «خلل التركيبة السكانية».

وهذه الفئة من العمالة غير العربية جاءت وما زالت تأتي أفواجاً أفواجاً، لا تعرف من اللغة العربية غير اسمها، ثم تبدأ تجاوباً مع الواقع وضرورة التعايش، في تعلم بعض كلمات اللغة العربية تسيّر بها أمورها، فجاءت هذه الكلمات خليطاً عجيباً،

لا هو لغة أجنبية، ولا عربية، ولا محلية عامية،

بل كانت خليطاً من هذا وذاك مما يدفع للغيظ أحياناً والانفجار ضحكاً أحياناً، أخري، ودائما شر البلية ما يضحك.

والغريب أن هذا حالهم وشأنهم ومحاولاتهم للتعلم والتأقلم.. لكن الأغرب أنهم جرونا وراءهم، فأصبح معظمنا يتكلم هذا الهجين من اللغة حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، فبدلاً من أن نعلمهم، تعلمنا منهم فأصبحت لغة السوق لغة عرجاء جوفاء، مسخاً مشوهاً يضر اللغة الأم، وهذه هي الكارثة.

لذلك، فنحن مطالبون أن نحمي لغتنا العربية التي هي في مهب الريح من الهجمات الشرسة التي تأتيها من كل حدب وصوب، وذلك بتعليم غير العرب - وهم كُثر- اللغة العربية حماية للغتنا وأجيالنا ومستقبلنا، وهذا هو بيت القصيد.

والضرورة الملحة تحتم على العاملين في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها أن يغيروا نظرتهم إلى هذا الموضوع بحيث يأخذ اهتماماً أكبر، وجدية أكثر لما للأمر من أهمية في مستقبل نشر الثقافة العربية وإسماع الدنيا الصوت العربي والمساهمة العربية في الحضارة الإنسانية. ومن الضروري كي يتحقق ذلك أن تقوم مؤسسات أكاديمية وهيئات متخصصة ومدربة لإجراء الدراسات الميدانية والعملية على الصعيد اللغوي والبشري، من أجل انبثاق رؤية عربية مشتركة واستراتيجية تخدم هذه الأهداف، وإعداد مواد تعليمية حديثة مستخدمة التقنيات الحديثة، والعمل على تأهيل المعلم الكفء القادر على القيام بهذه الرسالة، والاستمرار في تطويره في الخدمة ليبقى متجدداً على مر الزمان.

إن تجربة تعليم العربية للناطقين بغيرها في الوطن العربي تجربة واسعة من حيث عدد المؤسسات والمراكز والمعاهد والجامعات التي اهتمت بها في العقود الخمسة الأخيرة.

بداية الاهتمامات

بدأت الاهتمامات الرسمية في الدول العربية بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في النصف الثاني من القرن العشرين، وبدأت التجربة الأولى في مصر تدفعها غايات سياسية وثقافية، فشاركت في مؤتمر العلاقات الثقافية الذي عقد في مدريد في أغسطس ١٩٥٨م، وصدرت نتائج توصي بضرورة حل مشكلة تعليم اللغة العربية للأجانب، وتدارس المسؤولون المصريون التوصية، وكان من نتيجة ذلك الحرص على المشاركة في ندوة أخرى في مدريد عام ١٩٥٩م، ووضعت أسس لرسم خطة لتعليم العربية للأجانب.

أسندت وزارة التربية والتعليم في مصر عام ١٩٥٩م إلى مدرسة الألسن العليا مهمة إنشاء فصول لتعليم العربية للراغبين من الطلاب الوافدين غير العرب والإشراف عليها.

حرصت مدرسة الألسن على استعمال العربية الفصحى في تعليم اللغة، وسار برنامج العربية بالمذياع على هذا الهدي أيضا لأن المقبلين على تعلم العربية كانوا من الطلاب الوافدين من دول إسلامية جاءوا لمواصلة تعليمهم وخصوصاً في الجامعة الأزهرية، لكن مشكلة عدم وجود مادة تعليمية مصممة خصيصاً لتعليم العربية للناطقين بلغات أخرى جعلها تلجأ إلى استعمال الكتب المدرسية المعدة لطلاب المدارس المصرية.

إلى جانب التجربة المصرية كانت هناك تجربة أخرى لبنانية مختلفة هدفاً ونوعاً هي تجربة معهد شملان الذي جعل همه تدريس اللهجات العربية لرجال السلك الدبلوماسي الغربي، ومن خلال هذه التجربة الأولى بدأت تلح على العاملين في الميدان وعلى التربويين خاصة، مسألة المنطلق والمنهج والمحتوى، ولم تكن قد ظهرت بعد مسألة المعلم المتخصص إلا في وسط السبعينات من القرن الماضي.

بدأت أولى مراحل الدراسات الرامية إلى البحث الأكاديمي المتخصص في هذا المجال بظهور كتاب عام ١٩٧٥م للدكتور علي الحديدي، وإن كان يغلب على هذه الدراسة الجانب التنظيري إلا أنها لم تكن بعيدة عن الميدان.

على أية حال، أدرك الدكتور الحديدي تلك المشكلات من خلال تجربته في تعليم العربية للأجانب، وقد أصدر دراسة أخرى هي بحث ميداني في تصميم منهج لتعليم العربية للأجانب عام ١٩٧٨م ومع توسع التجربة بدأت تبرز اتجاهات وتجارب جديدة.

تجارب المؤسسات الجامعية

يلاحظ الباحث أن الذي تولى أمر برامج تعليم العربية للناطقين بغيرها في السبعينيات من القرن الماضي هي المؤسسات الجامعية إلى جانب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومكتب التربية لدول مجلس التعاون الخليجي.. ومن خلال نشاطها جميعاً انبثقت ندوات ومشاريع ودراسات وبحوث ومواد تعليمية، ويلاحظ أيضا أن اهتمام

الجامعات العربية بهذا التوجه قد جاء ضمن ظروف اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية داخلية وخارجية دفعت برامج التعليم العربية للناطقين بغيرها دفعة قوية إلى الأمام، فهناك ظاهرة تكاثر الجامعات العربية وتعدد فلسفاتها ونظرتها إلى أدوارها في خدمة اللغة العربية والحضارة العربية، وهناك الاهتمام الأكاديمي بالمنطقة الذي بُعث فيه شيء من الحماس بعد أزمة البترول في السبعينيات (من القرن الماضي) التي لفتت الأنظار إلى ما تتمتع به المنطقة العربية من أهمية استراتيجية لاحتوائها على مخزون استراتيجي حيوي من الطاقة، كما أن هناك اهتماماً من جانب رجال المال والأعمال بالمنطقة من حيث إنها مركز لممارسة التجارة والعلاقات الاقتصادية على مختلف المستويات، وهناك الجوانب الدبلوماسية التي ما زالت قائمة بل ربما استدعى الأمر تنشيطها منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين، وعوامل أخرى دفعت الباحثين إلى التوجه إلى المنظمات العربية، وحفزت المؤسسات الجامعية العربية إلى تلبية ذلك المطلب، فأنشئت مراكز ومعاهد لتعليم العربية للأجانب في كثير من الجامعات العربية.

ومن التجارب ذات العلاقة بهذا الصدد تجربة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة التي وجدت نفسها مضطرة لفتح شعبة لتعليم العربية للناطقين بغير العربية من الراغبين في الدراسات الشرعية، ثم وجدت نفسها مضطرة أيضا لتصميم مادة تعليمية تحقق أهدافها وتوجهات طلابها إلى جانب معاهد اللغة العربية في جامعة الملك سعود عام ١٩٧٥م، وجامعة أم القرى في العام نفسه (١٩٧٥م)، وجامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٩٧٧م، والجامعة المستنصرية ببغداد، ومراكز اللغات بالجامعة الأردنية عام ١٩٧٥م (برنامج في قسم اللغة العربية ثم أصبح مركزاً عام ١٩٨٠م)، ومعهد اللغات لغير الناطقين بها في دمشق وغيرها.

وفي مقابل ذلك وفي المغرب العربي، وجد بتونس معهد بورقيبة للغات متسعاً للغة العربية بين اللغات الحية ليضع لها برنامجاً ويصمم مادة تخدم أهداف الدارسين متعددي الميول والجنسية والأهداف وخاصة من الأوروبيين، وبرامج أخرى في ليبيا والمغرب والسودان وجامعة الاسكندرية والجامعة الأمريكية بالقاهرة.

واكب إنشاء المراكز والمعاهد المنوطة بمهمة التعليم الأنشطة التالية:

أولا:

أ- إجراء البحوث والدراسات النظرية والعملية.

ب- عقد الندوات حول تعليم العربية للناطقين بغيرها.

ج- تم تدارس الأسس التي يجب أن يقوم عليها تعليم هذه اللغة والتأليف فيه وأساليب تدريسها.

د- قامت دراسات أخرى حول المقارنة بين العربية ولغات أخرى.

هـ - وقدمت دراسات أخرى حول نوعية الدارسين وأهدافهم وخلفياتهم اللغوية.

و- وقدمت اقتراحات لوضع الكتب التعليمية وأسسها وتقويمها.

ويرى الباحث أن ما دار في مؤتمر اتحاد المعلمين العرب الذي عقد عام ١٩٧٦م في عاصمة السودان كان أول تلك المبادرات، حيث ركز جانب كبير منه على موضوع تعليم العربية للناطقين بغيرها، ثم عقدت ندوات أخرى في كل من جامعة الملك سعود بالرياض وفي الكويت وتونس والرباط في إطار الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وخارجها.

والمطلع على المواد المقدمة للندوة العالمية الأولى لتعليم العربية لغير الناطقين بها المنعقد في الرياض عام ١٩٧٨م، أو على «ندوة تأليف كتب لتعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الرباط عام ١٩٨٠م، وعلى ندوة مديري المعاهد المتخصصة في إعداد معلمي العربية للناطقين بغيرها عام ١٩٨٠م، وعلى الندوات التالية التي أشرف عليها مكتب التربية العربي لدول الخليج في كل من الرياض والكويت والدوحة، وندوة بغداد في إطار الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، كل ذلك يجعل المطلع يتأكد من حيوية القضايا التي شغلت بال المؤتمرين من خبراء وعاملين في الميدان والصعوبات التي واجهت المحاولات العديدة.

وقد جعلت المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة التابعة للمؤتمر الإسلامي، قضية تعليم العربية للجاليات الإسلامية في الدول غير الإسلامية أو الدارسين في المجتمعات الإسلامية غير العربية من ضمن أولوياتها، وعقدت دورات لمدرسي العربية في عدة دول، كما أن بعض المراكز الثقافية الإسلامية قامت بدور هام في هذا التوجه سواء في تعليم أبناء

الجاليات العربية أو غيرهم.

وقد وضع معهد الخرطوم الدولي استراتيجية تدريبية بحثية علمية لتدريب معلمي العربية للأجانب، تقوم على ضرورة إجراء المتدربين لدراسة لغوية علمية لمتطلب الحصول على الدبلوم أو الماجستير، كما قامت جامعة الملك سعود بنشر مجموعة من الدراسات والأبحاث لخدمة هذا المجال بإشراف خبراء تربويين متخصصين وأساتذة جامعيين، وكذلك فعلت جامعة أم القرى وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي أسست كل منهما وحدات أو مراكز بحثية، وكان لمكتب التربية لدول مجلس التعاون الخليجي دور في هذا النشاط.

وقامت جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بجهد مشكور لتأهيل الراغبين من الدارسين الأجانب للتخصص في اللغة العربية للناطقين بغيرها ليتمكنوا من تعليمها لأبناء بلادهم في حالة العودة إليها، كما قامت مجلة اللسان العربي في الرباط بنشر بعض الدراسات التي عنيت بموضوع تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

ثانياً: تأليف الكتب التعليمية التي عنيت بمهارات اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية؛ وكان من نتائج ذلك صدور سلاسل كتب تعليمية عربية عن كل من: جامعة الملك سعود والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والجامعة المستنصرية والجامعة الأردنية (مركز اللغات) ومعهد بورقيبة للغات الحية ووزارة التربية والتعليم بالكويت والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمؤتمر الإسلامي.

هذا بالإضافة إلى التآليف الفردية التي أُلفت لدارسين من خلفيات لغوية وثقافية محدودة، ويلاحظ الباحث أن هذه التجارب والتآليف كلها بدأت منفصلة في بداية الأمر، ثم أخذت في التوجه والتمحور نحو التنسيق، وقد كانت البداية منذ عقد الندوة العالمية الأولى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في جامعة الملك سعود بالرياض، ثم من خلال مكتب التربية العربي لدول الخليج، ومن خلال العمل على إقامة مجلس للمعاهد والمراكز المهتمة بتعليم العربية للناطقين بغيرها.

المعوقات والحلول:

مما لا ريب فيه أن تجربة تعليم العربية لغير الناطقين بها كتجربة جديدة – لابد أن تواجه صعوبات كثيرة ومتنوعة يقف على رأسها المادة التعليمية أولاً ومن يقوم على تعليمها ثانياً.

أولا: المادة التعليمية:

لم يظهر التأليف المنهجي الموجه لغرض تعليم العربية لغير الناطقين بها إلا في الثمانينيات من القرن العشرين، بعد مرور أكثر من أربعين عاماً من التجارب الأولى، وبعض التجارب الحالية على المادة المعدة للطلاب العرب الصغار، أو على كتب تعليم الكبار (محو الأمية)، أو على مواد من إعداد المعلمين أنفسهم، وبعضها مواد غير ثابتة أو غير معدة الإعداد التعليمي اللازم في ضوء الدراسات اللغوية والتربوية ذات العلاقة بتدريس اللغات الأجنبية أو اللغة الثانية.

فعلى سبيل المثال، فأهداف تعليم العربية لأبنائها تختلف عن تعليمها لغير أبنائها، وبناء منهج للصغار تختلف أسسه عن بناء منهج للكبار، وإخراج المادة بهدف التعليم تختلف عن نشرها لأغراض التثقيف، ومعالجة المادة تعليمياً لمتعلمين أجانب تختلف عن معالجتها لأبنائها.

على أية حال، صدرت خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي سلاسل من الكتب التعليمية عن المؤسسات والمعاهد والجامعات العربية، وتنوعت مهارات القراءة والكتابة والاستماع والتحدث، وتناولت بعض السلاسل مهارات معينة كالإملاء والتعبير والقواعد والأصوات في شكل كتب مستقلة عن بقية المهارات.

لقد أدى انبثاق الحاجة إلى تأليف كتب تعليمية إلى حاجة أخرى هي التأسيس لوضع تلك المادة أو تحليل المتوافر منها، ومن هذه الحاجة أو هذا المنطلق قدم الدكتور رشدي أحمد طعيمة والدكتور محمود فهمي حجازي دراسات بعنوان: «دليل المحتوى لكتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها»، وهو من إصدارات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٧٩م، ثم قام الدكتور محمود كامل الناقة وزميله بدراسة تحليلية تقويمية لمائة كتاب في تعليم العربية للناطقين بغيرها بعنوان «الكتاب الأساسي لتعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى» عام ١٩٧٩م.

وقد سجلت هذه الدراسة ملاحظات كثيرة على الكتب التعليمية التي حللتها ومنها بعض الكتب المذكورة في السلاسل السابقة، وأهم تلك الملاحظات:

أ- إن إعداد المادة التعليمية وتصميمها لم يقم على أساس دراسات سابقة تستطلع غايات الدارسين وأهدافهم.

ب- وهناك اختلاف في اختيار المواقف اللغوية، وليس هناك ضوابط للمفردات أو النصوص.

ج- لم تستفد تلك المواد من الدراسات اللغوية التقابلية.

وفيما بعد قام الدكتور أحمد جمعة أبو شنب والدكتور رشدي أحمد طعيمة بدراسة تحليلية وتقويمية أخرى بعنوان: «المهارات اللغوية ومستوياتها: تحليل نفسي لغوي، دراسة ميدانية» ونشرتها جامعة أم القرى عام ١٩٨٦م.

وكان هدف الدراسة:

١- حصر أكبر عدد من المهارات الأساسية والثانوية اللازمة لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في معاهد تعليمها.

٢- تصنيف تلك المهارات واقتراح ما يناسب كل مستوى من مستويات تعليم العربية.

٣- وضع تصور لهيكل تنظيم المهارات اللغوية ذات الدلالة الاحصائية.

ثانياً: معلم اللغة العربية للناطقين بغيرها

على الرغم من تقدم الوسائل التقليدية في التعليم، وعلى الرغم مما تركز عليه أساليب التعليم من أن الطالب هو محور العملية التعليمية إلا أن المعلم يظل أحد الأركان الأساسية في هذه العملية، إن لم يكن الركن الأساسي فيها، إن إعداد معلم متخصص في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يتطلب الآتي:

١- الإعداد اللغوي القوي والمتخصص في العربية الذي من شأنه ألا ينظر إلى اللغة من منظار النحو والصرف، بل لابد من التركيز على اللغة الحية بما تفضي إليه من معانٍ يعبر الفكر البشري عنها بلغاته المختلفة ومنها العربية، ومن هنا ينبغي إعداد المعلم الذي يواكب تطورات العربية نفسها التي تأخذ قسطاً من هذا التطور في كل يوم سواء على صعيد التركيب أو الأسلوب أو المفردات وحتى قواعد النحو.

٢- الإعداد المهني القائم على أساس مدروس من معرفة أساليب تعليم اللغات عامة وكيف تعمل في العقل البشري، ومعرفة بأساليب تعليم اللغات الأجنبية على وجه الخصوص، والإعداد المهني والقدرة على استعمال الوسائل التقنية الحديثة.

٣- الإعداد الثقافي الذي يستلزم من المعلم أن يكون دائم الاطلاع ليس على الثقافة العربية فحسب، بل أن يكون لديه خبرة ثقافية تساعده على فهم النفس البشرية وطريقة إكسابه للغة، ومعرفة الثقافات الأخرى، وتاريخ وعادات وتقاليد الشعوب وطريقة تفكيرها. وهذا الأمر الأخير ضروري في عملية التفاعل التي لابد منها لكي تتم عملية التعليم والتعلم.■

أهم المراجع

١- أحمد زكي صالح، نظريات التعلم، القاهرة ١٩٧١م.
٢- المنظمة العربية للتعليم والثقافة والعلوم، تعليم العربية لأبناء الجاليات العربية في أوروبا: الواقع.. والآفاق، ندوة تونس ما بين ١٢-١٤ ديسمبر ١٩٩٠م.
٣- المنظمة العربية للتعليم والثقافة والعلوم، دليل تحليل المحتوى لكتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ١٩٧٩م.
٤- رشيد أحمد ....، تحليل وتقويم كتاب تعليم العربية لغير الناطقين بها، ١٩٨١م.
٥- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الثقافة الإسلامية، مدخل تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ١٩٨١م.
٦- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، نحو أداة موضوعية لتقويم كتب اللغة العربية لغير الناطقين بها، ١٩٨٢م.
٧- سليمان الواسطي، كيفية تقديم المفردات في الكتاب المدرسي، ١٩٨٠م.
٨- علي الحديدي، مشكلة تعليم اللغة العربية لغير العرب.
٩- محمد أحمد عبد الهادي، فتحي بيومي حمودة، التربية وطرق تدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية، جدة، ١٩٨٤م.
١٠- محمد قدري لطفي، مشكلة ضعف الطلاب في اللغة العربية، محاضرات الموسم الثقافي، جامعة الملك سعود، ١٩٧٣م.
١١- محمود كامل الناقة وزملاؤه، الكتاب الأساسي لتعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، وحدة البحوث، جامعة أم القرى، ١٩٨٣م.

الدوريات

١- دراسات، مجلة فصلية محكمة، تصدر عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، العدد الحادي عشر، السنة الحادية عشرة، ١٩٩٩م.
٢- مجلة تراث، مقالة لمحمد أحمد عبد الهادي رمضان بعنوان «دوافع تعلم اللغة العربية لغير أبنائها»، العدد ٦٣، فبراير ٢٠٠٤م.

في أفريقيا.. 20 لغة بالحرف العربي



■ القاهرة - تراث

ارتبطت الأبجدية العربية بالإسلام وتبع ذلك تبني لغات أخرى لهذه الأبجدية، هكذا يقرر «أولاف برجرين» في كتابه «قصة الكتابة.. رموز وجداريات مكتبة الإسكندرية» ويشير إلى أن اللغة الفارسية كانت أول لغة كبرى تتبنى الخط العربي. ووصل الخط العربي إلى الأتراك عن طريق الأبجدية الفارسية، كما تستخدم الأوردية الحروف العربية والفارسية..

واستخدام لغات آسيوية للحرف العربي أمر شائع وهذا معروف حتى لدى أشباه العامة، فضلا عن المتخصصين في العربية، ولهجاتها، وحروفها، وتأثيراتها. ولكن ما هو معروف بالنسبة للغات آسيوية واستخدامها للحرف العربي، يكاد يكون مجهولاً بالنسبة للغات الأفريقية بالحرف العربي، وهو باكورة إنتاج المعهد الثقافي الأفريقي العربي الذي أنشىء في العام ٢٠٠٢م، ومقره مدينة باماكو عاصمة جمهورية مالي، وكانت الاتفاقية الخاصة بالمعهد قد وقعت في أوائل الثمانينات من القرن الماضي.

وقد صدر الكتاب في أواخر العام الماضي، وقدم له كل من السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية، والدكتور عبدالله بن عبدالرحمن الوزرة الدويسرى مدير عام المعهد الثقافي الافريقي العربي، وحرر الكتاب الباحث العربي من مصر السيد حلمي شعراوي المعروف بتخصصه وكتاباته عن الشؤون الأفريقية، حيث يدير مركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة.

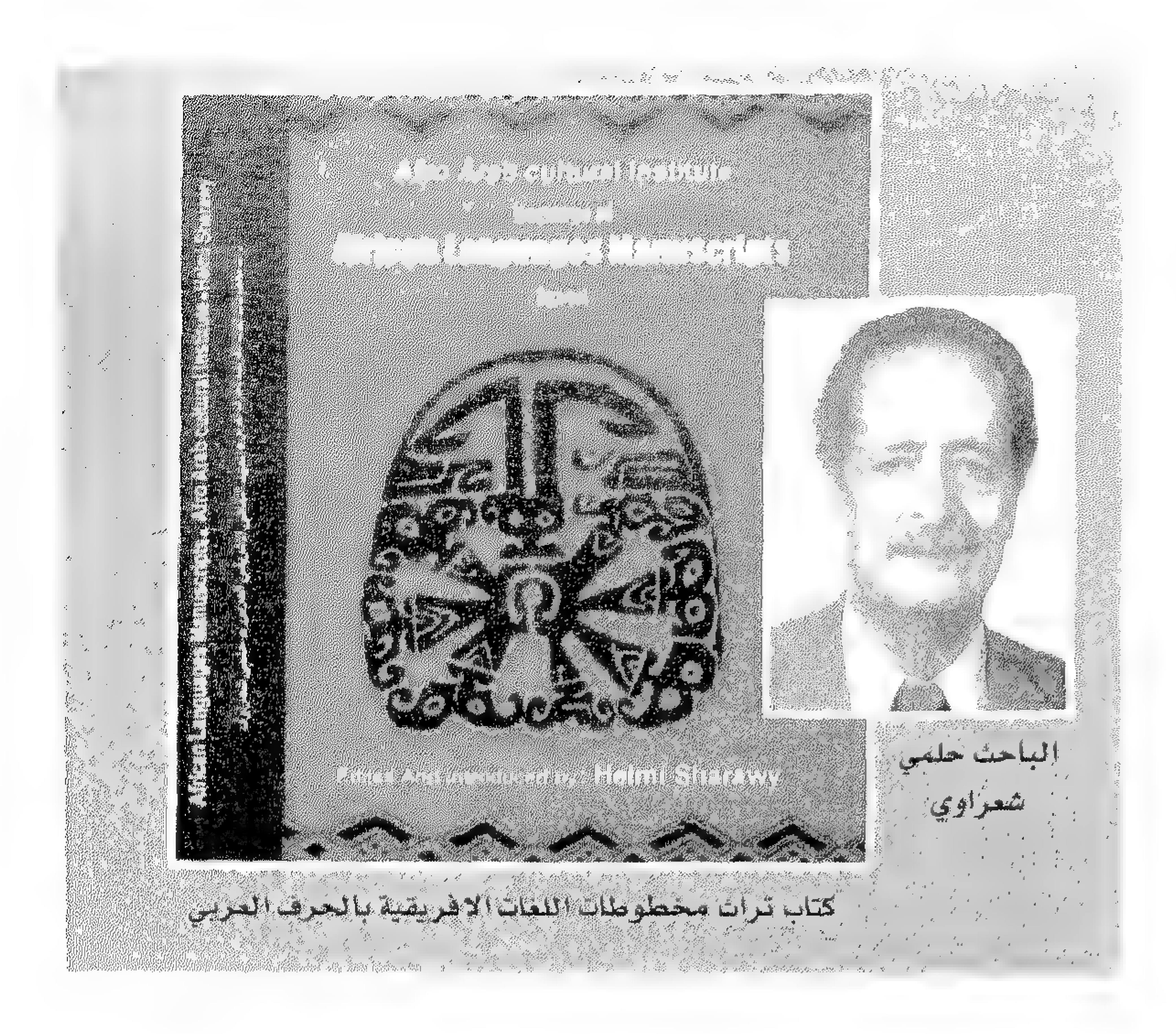
ويعرب أمين الجامعة العربية عن سعادته لصدور كتاب مثل هذا عن تراث اللغات الأفريقية في هذه الفترة، ليعرض نماذج من مختلف الثقافات الأفريقية خلال تفاعلها مع الثقافة العربية، مستخدمة نفس آلية التعبير المشترك وهي الحرف العربي. ويضيف السيد عمرو موسى إن اتساع أفق البحث في هذا الكتاب من مدغشقر في المحيط الهندي إلى أقصى الساحل الافريقي الغربي في السنغال وجامبيا إلى حدود اللقاء البشري المباشر مع الشمال الإفريقي يكاد كل ذلك الذي يضمه هذا الكتاب أن يعبر وحده عن معنى الوحدة التي تربط العرب بالأفارقة على أوسع نطاق. أما الدكتور الدويسري فيؤكد أن هذا الكتاب ما هو إلا الإصدار الأول من سلسلة دراسات وأبحاث متخصصة في تأصيل العلاقة الثقافية العربية والأفريقية وسبر جذورها معربا عن أمله في أن يكون محتوى الكتاب مفيداً في توضيح الصورة الحقيقية للتواصل والترابط الثقافي بين الأمتين الأفريقية والعربية.

كما يشير الدويسري إلى أن هذا الكتاب الذي يتضمن نماذج من وثائق ومدونات أصلية كتبت بالحرف العربي في ثماني لغات أفريقية محلية سيثير نقاشاً حول قضايا ثقافية مهمة تجاهلها معظم الدارسين للتراث الإفريقي، كما أنه سيفتح الباب في المستقبل القريب لظهور مئات النماذج الأخرى من المدونات والوثائق. ولا أدل على هذه الحقيقة الأخيرة من أن المعروف أنه في أفريقيا عشرين لغة كتبت بالحرف العربي.

وقد أسهم في إصدار هذا العمل ١٥ باحثاً ومترجماً من سبع دول عربية وأفريقية، منها السنغال، ومصر، وموريتانيا، والنيجر، وعمان، وغينيا، ونيجيريا. بالإضافة الى عدد كبير آخر من الخبراء والباحثين ينتمون الى عدد غير قليل من الدول العربية والأفريقية.

والمخطوطات التي يتناولها الباحثون والمترجمون تنتمي الى اللغات الملجاستية، والسواحلية، والهوسا، والفولانية، ولغة الولوف، ولغة الماندنج، ولغة السونغاى، واللغة التماشقية.

أما موضوعات هذه المخطوطات والوثائق فهي متنوعة، منها ما هو تاريخي ومنها الثقافي والديني.



الباحث حلمي شعراوي

كتاب تراث مخطوطات اللغات الافريقية بالحرف العربي

وقد مهد المحرر حلمي شعراوي، لنصوص المخطوطات وترجمتها بدراسة ضافية حول موضوع الكتاب مبيناً أن أهميته ترجع الى أن قليلين هم الذين اهتموا بما سجله الأفريقيون عن أنفسهم بأنفسهم منذ عرفوا الكتابة في فترات من تاريخهم، وأحدثها فترة التفاعل مع الثقافة العربية ولغتها، منذ عدة قرون.

ومع ذلك، فقد كان هناك ضعف في الاهتمام بمخطوطات اللغات الأفريقية بالحرف العربي (العجمي). وكانت المرحلة الأولى لذلك هي اهتمام الإدارات الاستعمارية منذ بداية القرن العشرين ببعض هذه المواد والكتب والمخطوطات خلال سعيها الى كتابة بعض اللغات الأفريقية بالحرف اللاتيني. وأعقبت موجة الاستقلال الوطني في القارة الأفريقية إثارة قضية اعتماد «اللغة الوطنية» لغة رسمية وقد تم كتابتها، وثارت معارك ثقافية في أكثر من بلد، وتعددت الحلول. وفي إطار هذا الاهتمام بالثقافة الوطنية عقب الاستقلال، بدأت العناية في بعض بلدان غربي وشرق أفريقيا بجمع تراث اللغة الوطنية من المخطوطات العربية والعجمي، بإعتبارة تراثاً وطنياً.

وبعد ذلك انتقل الاهتمام باللغات الأفريقية الى الإطار العالمي عبر «اليونسكو» ومنظمة الوحدة الأفريقية التي صدر في إطارها «المانيفستو الثقافي» في ١٩٦٩، وأعقبه «الميثاق الثقافي الافريقي» في ١٩٧٦م. وقد أضفت هذه الوثائق اهتماماً ملحوظاً على اللغات الوطنية، وكتابتها واستعمالها في التعليم والحياة

جاخاتي:

واجب المريد دفع الضر عن شيخه
وواجب الشيخ المربي إبعاد الأذي عن مريده
من تحمل عنك أعباء فكافئه بالمثل
ومن أطفأ غضبك فأرضه

كاه:

علي المريد أن يفعل للشيخ ما يعجزعنه
وعلي الشيخ أن ينيل االمريد ما لم يكن لينله بحوله
واجب المريد بذل الجهد وإنفاق كل ما فى اليد لله
وواجب الشيخ مجازاته بقضاء حوائجه

جاخاتي:

فمن هاجر أرضه ليلحق بك
فادفع عنه كل ضر وتكفل به
فكل مريد ضيف حل علي شيخ
وإكرام الضيف واجب علي الجميع

كاه:

وأحسن الناس إكراما للضيف
من قري ضيفه وأحله منزلا لائقا وقضي ديونه
وأغدق عليه أموالا عند رحيله
ورقاه عند عودته إلى أهله تعبيرا عن رضاه

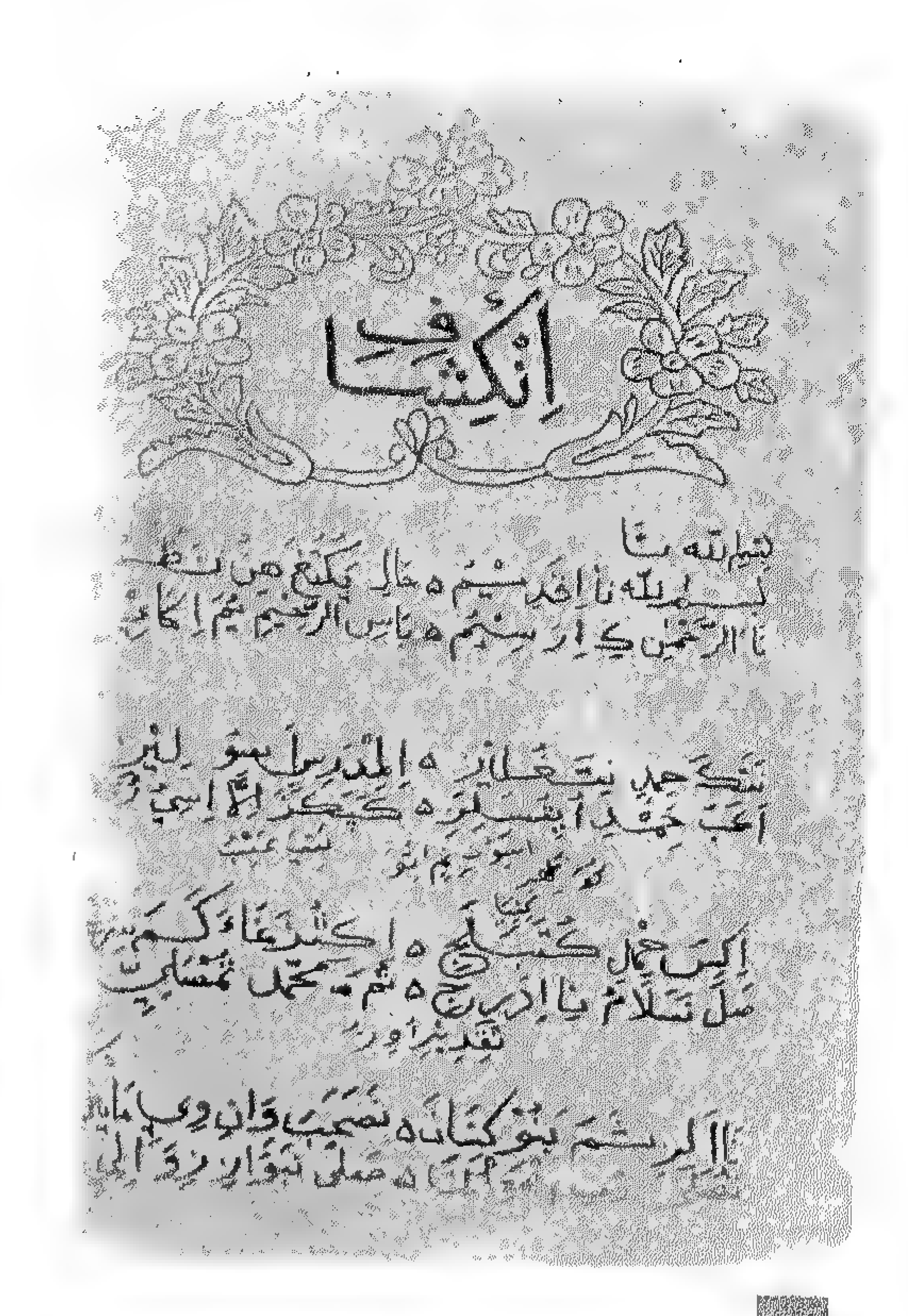
نص بلغة الولوف.. وترجمته باللغة العربية

الثقافية، مع التأكيد على التراث الثقافي الذي تجب دراسته.

وفي السبعينيات من القرن العشرين، وعندما تصاعدت موجة التعاون العربي الافريقي، وأصبحت مسؤولية المؤسسات الثقافية العربية والأفريقية واضحة في هذا المجال، وقامت المنظمة العربية للثقافة والعلوم (اليكسو) برئاسة العالم الراحل محي الدين صابر بدور لا ينكر، فأنشأت جهازاً لتنمية الثقافة العربية الإسلامية (١٩٨١م). وكانت الإدارة الثقافية بمنظمة الوحدة الأفريقية هي الطرف الآخر النشط في هذا المجال.

وفي إطار نشاط المنظمة العربية، عقدت الندوات حول موضوعات الثقافة العربية والأفريقية ودور العلماء الأفارقة في الثقافة الإسلامية، وتعددت وفود المنظمة إلى عدد من الدول الأفريقية لدراسة عناصر الثقافة العربية الأفريقية في بلدان القارة شرقا وغربا. إلى جانب هذا برزت اتجاهات تحديثية ربطت جهودها -ولا تزال- بتحديث اللغات الوطنية وتراثها المكتوب بالحرف العربي. وهنا يشير حلمي شعراوي إلى أنه شهد بنفسه صحفاً في شمال نيجيريا تكتب «الهوسا» المعاصرة بالحرف العربي، وكذلك بعض إصدارات دار نشر شهيرة، هي دار «جاسكيا»، كما أن الأستاذ الراحل شيخ أنتاديوب كان يضمن صحيفة حزبه «تنماو» في ثمانينيات القرن الماضي صفحات بالحرف العربي، إلى جانب اللغة الولوفية، كما أن معهد حقوق الإنسان الافريقي في بانجول (جامبيا) يصدر بعض ملصقاته بالحرف العربي. وفي إحدى الندوات أشار أحد الباحثين إلى أن مستوطني جنوب أفريقيا من الآسيويين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حاولوا كتابة «الأفريكانز» الجديدة بالحرف العربي. ويؤكد شعراوي أن تراث اللغات الأفريقية بالحرف العربي مصدر لديمقراطية الثقافة، لأنه ينفى الأمية المعرفية عن أوسع الجماهير، فضلاً عن إسهامه في تنشيط الذاكرة الوطنية لاستعادة ما انقطع من العلاقات والمعارف العربية الأفريقية المشتركة. ولعل اهتمام معاهد علمية بالجامعات الأفريقية والعربية بهذه القضية الحيوية مما ينشط هذه المعاني. وهناك الآن حركة تجديد لغة «الهوسا» وتراثها على أساس علمي في كانو وسوكتو، وتمتد الدراسات اللغوية والتراثية من داكار إلى دار السلام مروراً بباماكو ونيامي ونجامينا. ويتسع الاهتمام إلى جنوب أفريقيا في مراكز حكومية وغير حكومية «كيب تاون» كما أن جامعات القاهرة والأزهر ومحمد الخامس والخرطوم ترعى أقساما ومعاهد للدراسات اللغوية الأفريقية، وإن كان ينقصها الاهتمام بتراثها الأدبي.

فهل يسد هذا الكتاب ثغرة في هذا المجال. لعله يفتح أكثر من باب للاهتمام بهذا التراث الافريقي المكتوب بالحرف العربي، والاهتمام بجمعه وتبويبه، وفهرسته تمهيداً لدراسات موضوعية متعددة. واللافت للنظر هنا أن هناك اهتماما في بلدان شمال أوروبا



بسم الله، أقدم هذا النظم، مستعينا بالرحمن الرحيم الباقي للأبد.

وبالشكر أبداً، حتي لا يسأل دارس، لماذا لا أشكر، وهذا عيب كبير.

فالحمد برهان، يشع كالسراج، والصلاة والسلام على النبي خير الأنام.

وعلى أهله بني كنانة، وأصحابه الأربعة الخلفاء، عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

مخطوطة باللغة السواحلية.. وترجمتها باللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من لا نبي بعده

هذا تاريخ للهوسا، مأخوذ عن ما هو مألوف لدى الجميع من عهد أجنا لأمهاتهم وأجدادهم لآبائهم، ومما تم تناقله عن العالمين malamai وكبار الس وأى رواية سوى هذه هى رواية غير أصيلة. فإن سألك سائل: من أين نحص شعب الهوسا على أصلهم؟ قل: إن أصلهم- فى الحقيقة- أتى من الباريبار Barebari والشماليين (أريواوا Arewawa). وهذا بيان لكيفية حدوث ذلك:

كان ملك بورنو Borno يمتلك حصانا ذا حافر ذهبى. وكان هذا الحص لايصهل فى أى وقت عدا يوم الجمعة، وإذا صهل فلك أن تقول إنه إعصار. وك الحصان مخبأ فى بيت [خاص به]. وكان للملك ابن، الذى كان يداوم عل إعطاء أموال وأثواب لسايس الحصان، لكى يجلب الحصان من أجل تعشير فرس وهذا ما كان يحدث دائماً. وفى أحد الأيام أتى السايس بالحصان، كما أتى ا الملك بفرسته أيضاً، وتوجها إلى الغابة حيث تم سفاد الفرسة. وكان الملك قد أ من قبل: إنه سيقطع رقبة أى شخص يوجد فى بيته فلو [مهر] من هذا الحصا

مخطوطة بلغة الهوسا.. وترجمتها باللغة العربية

بالمخطوطات الأفريقية المكتوبة بالحرف العربي.. وقد ذكر أحد الباحثين، يدعى «لود فيج مونتي» أنه سجل سبعة آلاف صفحة من مخطوطات اللغة الملجاشية بالحرف العربي في النرويج.

وقد دحض حلمي شعراوي بروح علمية صافية قول من ادعوا أن تجاهل هذا التراث والعزوف عنه كان سبب إغراق المتوفر منه في التعبير الديني أو التصوف تارة أو لسذاجة التعبير الثقافي في محتواه تارة أخرى، ورأى أن هذه حجة غير منهجية لا تليق بالتقييم الحديث لعناصر التراث الشعبي والرواية الشعبية من جهة ولا بأهمية المكتوب في دراسة تطوير اللغة نفسها من جهة ثانية، كما أنها -أي هذه الحجة- لا تقدر معنى ارتباط الأدبيات الإسلامية- من فقه وتشريع وتاريخ بكافة مناحي الحياة الاجتماعية اليومية للمسلم من جهة ثالثة، ومن ثم شمولية دلالة التراث المكتوب حول أي من هذه الجوانب، عندما تكون الدراسة جادة ومخلصة وهذا ما يتسم به هذا الكتاب، وعمل المشاركين فيه.■

مسلم بن الوليد

قبسات من حياة فنان ساحر... وشاعر رقيق



■ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي

ليس كل شاعر يولد عبقرياً، فهناك الكثير من الشعراء يجيئون ويذهبون، وكأنهم ما عاشوا في الحياة، ولم يخرج من أفواههم شعر، وإذا قرأنا أو سمعنا ما قالوه لم نشعر بأننا قد عشنا لحظات مع الإحساس الجميل، في عالم الجمال الملهم، ولم نتجوّل في رياض المتعة الفنية البديعة، ولم نجد سوى الندم على وقت مضى لم نستفد منه شيئاً، وبغير طائل، فمن الطبيعي أن يفنى هؤلاء ولا يشعر بهم أحد، ولا يجزع لفقدهم إنسان.

ولم يكن مسلم بن الوليد واحداً من هؤلاء، فقد جاء عصره الذي وُجِدّ فيه عصراً متعدد الأشكال، متنوع الألوان، عصراً امتاز باتساع الآفاق، وابتعاد الأطراف، فقد صار للعلم فيه الأهمية القصوى، وارتقى المستوى الفكري ارتقاء انعكس أثره على كافة الطبقات، فتألفت الجماعات التي لا همّ لها سوى أن تقضي أيامها في اللهو والمرح، فكان بعض الشعراء يجتمعون في بيت أحدهم، يعيشون معاً، ويمضون أيامهم معاً، ولا يعرفون من طرق الحياة غير طريق اللهو والمرح، وإذا حدث ونال أحدهم أعطية اقتسمها معهم.

وفي أغلب الأحيان كانوا يقصدون الأماكن التي توجد بها المغنّيات، فيتسامرون ويتناشدون إلى وقت العصر، وعندما يحين موعد الانصراف يدعو كل شاعر أصحابه إلى قضاء بقية اليوم والسهرة عنده في بيته، وكل واحد منهم قد أعد للجماعة كل ما ترغب وما تشتهي.

نشأته

في سنة ١٦٠ من الهجرة، وُلد مسلم بن الوليد، من والد فارسي الأصل، ونشأ فقيراً معدماً، لا يملك من متاع الدنيا شيئاً، ومما يدل على ذلك هو ما روي من أن دعبل الخزاعي الشاعر كان غلاماً لمسلم، ويعيش معه في منزل واحد، ويتبادلان ثوباً واحداً ليس عندهما سواه.

بيد أن الحياة لا تستقر على حال، ولا تمضي على نمط واحد، وهذه هي طبيعتها، فقد دارت الأيام دورتها، وإذا بالشقاء ينقلب سعادة، واليأس أملاً، وتبتسم الحياة في وجه مسلم وتقبل عليه.

ولم يكن مسلم من الأشخاص الذين يخافون من تقلبات الحياة، فالدنيا في نظره ليست سوى لذة وهوى، وما العيش فيها إلا سكرتان: سكرة الأعين النّجل، وسكرة حميا الكأس:

هل العيش إلا أن أروح مع الصّبا
وأغدو صريع الرّاح والأعين النّجل

وكان من طبع مسلم ألاّ يدع مجلساً من مجالس اللهو والمرح يمرّ دون أن يكون حاضراً فيه، ولكنه كان لا يرضى لنفسه بالذهاب إلى أي مجلس إلا إذا كانت هناك دعوة موجهة إليه:

كم ليلة بت مسروراً ومغتبطاً
جذلان منغمساً في اللهو والطرب
إذا دعيت إلى لهو أجبت، وإن
لم أدعَ للهو واللذات لم أجب

كما كان من طبعه أن يكون في حالة حب على الدوام، فإذا ما ترك هوى فتّش عن هوى آخر، حتى لو اضطر أن يكذب على نفسه ويدّعي أنه يهوى ويعشق، ويتألم ويشكو من شدة الصبابة والوجد، وغالباً ما كان يأتي بأبيات من الشعر فيها تصوير دقيق لما حدث له، حتى ليخيّل للقارئ أو السامع أن الموصوف ماثل أمام عينيه من قوة الوصف والتجسيد.

وأغلب الظن أن مسلماً كان يعشق فتاة تدعى (سحر)، أخلص لها الحب، وشغلت تفكيره، وتغلغلت في أعماق نفسه، فخصّها بالقصائد الطوال، وبالذكر في كل مناسبة، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده:

يا سحر قد جرّعتني غصص الهوى
كدّرت بالهجران صفو مشاربي
أشبعت قلبي بالهوى وصدعته
بالهجر منك فما له من شاعب
صبراً عليك فما أرى لي حيلة
إلا التمسّك بالرجاء الخائب

صفاته وأخلاقه

كان مسلم بن الوليد في شبابه جميل الصورة، بهيّ الطلعة، ذا حديث ممتع جذاب، تهفو إليه قلوب العذارى، ولم يكن نحيل الجسم بل كان ممتلئاً، وفي ذلك يقول:

أحبّ قلبي وما درى جسدي
ولو درى لم يقم به السّمن

ولم يكد الشيب يغير على رأسه حتى كساه هيبة ووقاراً، لدرجة أن بعض كبار الدولة كانوا يجلونه عن إنشاد الشعر توقيراً له واحتراماً، وعندما تقدّمت به السن نحف جسده، وصار ضعيفاً هزيلاً، يقول في قصيدة له يمدح فيها الفضل بن يحيى البرمكي:

أتتك المطايا تهتدي بمطيّة
عليها فتى كالنّصل يؤنسه النّصل

وقد اتصف مسلم إلى جانب صفاته الخلقية بصفات خلقية كانت السبب في بلوغه مكانة سامية ومنزلة رفيعة، فقد اتصف بالكرم، وهذه الصفة كوّنت له أعداء، كما كوّنت له أصدقاء، وكان لا يندم على ما أنفقه أبداً، وإنما كان يندم إذا ارتكب خطأً في القول أو الفعل أو الرأي، وليس هذا الندم سوى نوع من الإخلاص يتغالب عليه عقله وطبعه وتفكيره، وكان فوق إخلاصه حليماً، كريم الخلق، فإذا دفعته الظروف إلى هجاء أحد ابتعد عن الهجاء الفاحش.

وكان صادقاً في شعره كل الصدق، ويمتاز ببديهة حاضرة، وبهدوء النفس، ووداعة القلب، وطهارة الروح، لا يتعالى على أصحابه، ولا يحقد على أحد، وإذا ناجى أحداً لم يظهر له خلاف ما يبطن ولو كان كبيراً،

ويضاف إلى هذه الصفات ما كان عليه من خبرة ودراية.

مسلم ومعاصروه من الشعراء

إن اشتراك مجموعة من الأفراد في هواية واحدة أو حرفة بذاتها، لم يكن من الدواعي الباعثة على المودة والمحبة بين هؤلاء الأفراد، لأن التنافس على الرزق، والتطّلع إلى الشهرة من طبيعتهما إحداث الفرقة والخلافات بينهم، وحيث توجد المطامع الذاتية يوجد ما ينقلب على النفوس شراً وبلاءً. ولم تكن نفوس الشعراء الذين عاصروا مسلم مجرّدة عن المطامع الذاتية منزّهة عن الأنانية، ولكنهم كانوا في ذلك أقلّ من غيرهم في أي عصر من عصور المدنية، لأن حياة اللهو والمرح التي كانوا يحيونها كانت كفيلة بأن تخفي وتستر وراءها كل شيء، بيد أننا لا نستطيع القول بأن هذه الأنانية قد زالت، والمطامع الذاتية قد انمحت في مثل هذه المجتمعات، لأن الشعر الهجائي بينهم خير دليل على ذلك.

ولقد كان يتألم من ذلك أشد الألم، وخاصة عندما يرى بعض الشعراء الذين لا يتساوون معه في مرتبة الأدب ينالون أعطيات الخلفاء، ويتمتعون بالقرب منهم، فكان يعزّي نفسه بالدخان الذي يرتفع فوق النار وهو أقل منها في القيمة، وبالغبار الذي يعلو هامات الرجال في ساحات الحروب ومكانه تحت الأقدام، حتى لا يستولي عليه الحزن ويتمكن منه

إن يقعدوا فوقي بغير نزاهة
وعلوّ مرتبة وعزّ مكان
فالنّار يعلوها الدّخان وربّما
يعلو الغبار عمائم الفرسان

ومع مرور الأيام ملّت نفس مسلم حياة اللهو والمرح، واتّجه بنفسه اتجاهاً آخر مغايراً تماماً لما كان عليه، وكان بينه وبين أبي العتاهية الشاعر الذائع الصيت، شيء من النقد لشعر كل منهما، ولكن ذلك لم يكن ليغيّر ويعكّر جوّ الصفو والوفاق الذي كان يسود بينهما.

صداقة تنتهي نهاية أليمة

لقد نشأ دعبل بن علي الخزاعي نشأة لا يُحْسَد عليها أحد، ففي شبابه لم يكن شيئاً يذكر، وكان يعيش مع مسلم في بيت واحد، ويتبادلان ثوباً واحداً لا يملكان سواه، وكان مسلم يتمنّى مخلصاً أن يكون صديقه واحداً من الشعراء المبرزين، فكان يرشده إلى مواطن الضعف والقوة في شعره.

وكانت قد جرت عادة الشعراء الناشئين على الذهاب إلى المجالس التي يجتمع فيها الشعراء، وحضور لقاءاتهم الشعرية، فيستفيدون من شعرهم، وتقوى ملكتهم وموهبتهم، وكان دعبل يحضر هذه المجالس ويتحدث عن مسلم، وما أوتيه من نظم جيّد ومعان رقيقة، ويشيد بذكر أبي نواس عند مسلم، وما لتعبيراته من تأثير قوي وخفّة في المعنى وطرب في اللفظ، وقد طلب منه مسلم أن يتحيّن الفرصة المناسبة، ويجمع بينه وبين أبي نواس في مجلس واحد.

وكان لمسلم ما أراد، فقد وُفّق دعبل في عقد مجلس ضمّ أستاذه وأبو نواس، وتتابعت بعد ذلك اللقاءات الشعرية بينهما وبين غيرهما، من شعراء (الكوفة) وغيرها، غير أنه كان يجلس صامتاً لا يتكلم، وذلك لأن أستاذه كان قد أوصاه بأن لا يكون أول ما يظهر له من شعر ساقطاً فيعرف به، ولو قال بعد ذلك كل شيء حسن لكان الأول هو الذي اشتهر به، ولا يزال يعيّر به.

وفي أحد الأيام فاجأ دعبل أستاذه –وكان قد قطع في نظم الشعر مرحلة كبيرة– بالأبيات التالية:

أين الشباب وآية سلكا
أم أين يطلب ضلّ أم هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف صبركما
يا صاحبيّ إذا دمي سفكا
لا تطلبا بظلامتي أحداً
قلبي وطرفي في دمي اشتركا

وعندما سمع مسلم هذه الأبيات سمح لدعبل بأن يظهر شعره كيف يشاء، ولكن الأيام لا تترك شيئاً يدوم على حاله، فما لبثت عرى الصداقة أن انفصمت، وضعفت قوة المودة والمحبة التي كانت تربط بين الاثنين، بسبب التنافس على حب إحدى النساء، ولم يعد دعبل التلميذ البارّ، ولا الصديق المخلص.

وذهب مسلم إلى الفضل بن سهل بـ (مرو)، وقد تقدمت به السن، وظهرت عليه ملامح الكهولة، لينشده شعراً، فقال له الفضل: «إني أجلّك عن الشعر، فسل حاجتك»، فقال له مسلم: «بل تستتم اليد عندي بأن تسمع»، ثم أنشده قصيدته، فقال له الفضل: «إني أجلّك عن الشعر»، فقال له مسلم: «فأغنني بما أحببت

من عملك»، فولاّه شؤون البريد بـ (جرجان).

وعندما سمع دعبل خبر تعيين مسلم مسؤولاً عن البريد بولاية (جرجان)، سافر على الفور إلى (مرو)، وأرسل إلى الفضل رسالة ليس بها سوى هذين البيتين:

لا تعبأنّ بابن الوليد فإنه
يرميك بعد ثلاثة بملال
ابن الملول وإن تقادم عهده
كانت مودّته كفيء ظلال

وحينما وصلت الرسالة إلى الفضل وقرأ ما بها تألّم كثيراً، ودفع بها إلى مسلم، فلما قرأها حزن وترقرقت في عينيه الدموع، وصمم على أن يقطع ما بقي بينه وبين دعبل من علاقة، ولم يره بعد ذلك.

دواعي توبته

لقد سبق مسلم أبا نواس في التوبة والابتعاد عن المعاصي، حيث توافرت عدّة عوامل سارعت على توبته، وترك حياة اللهو والمرح التي كان يحياها، إذ أن حياة الفرد إذا سارت على وتيرة واحدة كرهها وملّها، وتطلّعت نفسه إلى آفاق جديدة، لأن صفة التغيير والتبديل من الصفات اللازمة للإنسان.

وعلى هذا فقد ملّ مسلم شكل حياته الرتيب وسئمه، فجاء هذا السأم من أعظم المغريات بتوبة مسلم، ويضاف إلى هذا عامل آخر، وهو إصابته بفقد زوجة من أهله كان يحبّها حبّاً كبيراً، الأمر الذي جعله يجزع لفقدها ويحزن عليها حزناً شديداً، فقد كانت تكفيه مؤونة أمره، وتدخل السرور على قلبه، ومن هنا جاء تنسّكه لمدة طويلة، ثم عزم وأجمع أمره على أن يواصل هذا التنسك.

وقد عرض عليه جماعة من أصحابه ذات يوم أن يقضي معهم بعضاً من الوقت، حتى يخرجوه من عزلته، وألحّوا عليه في ذلك وأقسموا، فلم يملك أمام إصرارهم إلا أن يوافقهم، فقدّموا إليه الطعام والشراب، فامتنع عن الشراب، ورفض أن يذوق لسانه ولو رشفة واحدة منه، وقال:

بكاء وكأس كيف يلتقيان
مقيلاهما في القلب مختلفان
دعوني وإفراط البكاء فإنني
أرى اليوم فيه غير ما تريان

ويبرز من بين هذه العوامل التي دفعت مسلم إلى التنسّك عامل تقدّمه في السّنّ، فلقد رأى أنه ليس من الشهامة ولا من المروءة أن يظلّ سائراً مع أحلام الشباب ولهوه وطيشه إلى ما لا نهاية.

ثم لم يلبث إلا أن فجع في أعزّ صديق على نفسه، وأقرب حبيب إلى قلبه، وهو قتل الفضل بن سهل، فحزن عليه حزناً دفعه إلى التنسّك بقية حياته، وامتلأ قلبه بالتوبة الصادقة، وعدل عن نظم الشعر تماماً، وأخذ يكافح قصائده في كل مكان، حتى لم يبق له من الشعر إلا ما كانت تحفظه الناس وتتناقله، وما كان عند راويته.

النهاية

عاش مسلم البقيّة الباقية من عمره ينفق ما بقي معه من أموال، إلى أن قضى المولى سبحانه عزّ وجلّ أمراً كان مفعولاً، فأسلم الروح غريباً في (جرجان)، في سنة ٢٠٨ من الهجرة، عن عمر قد اقترب من الخمسين.

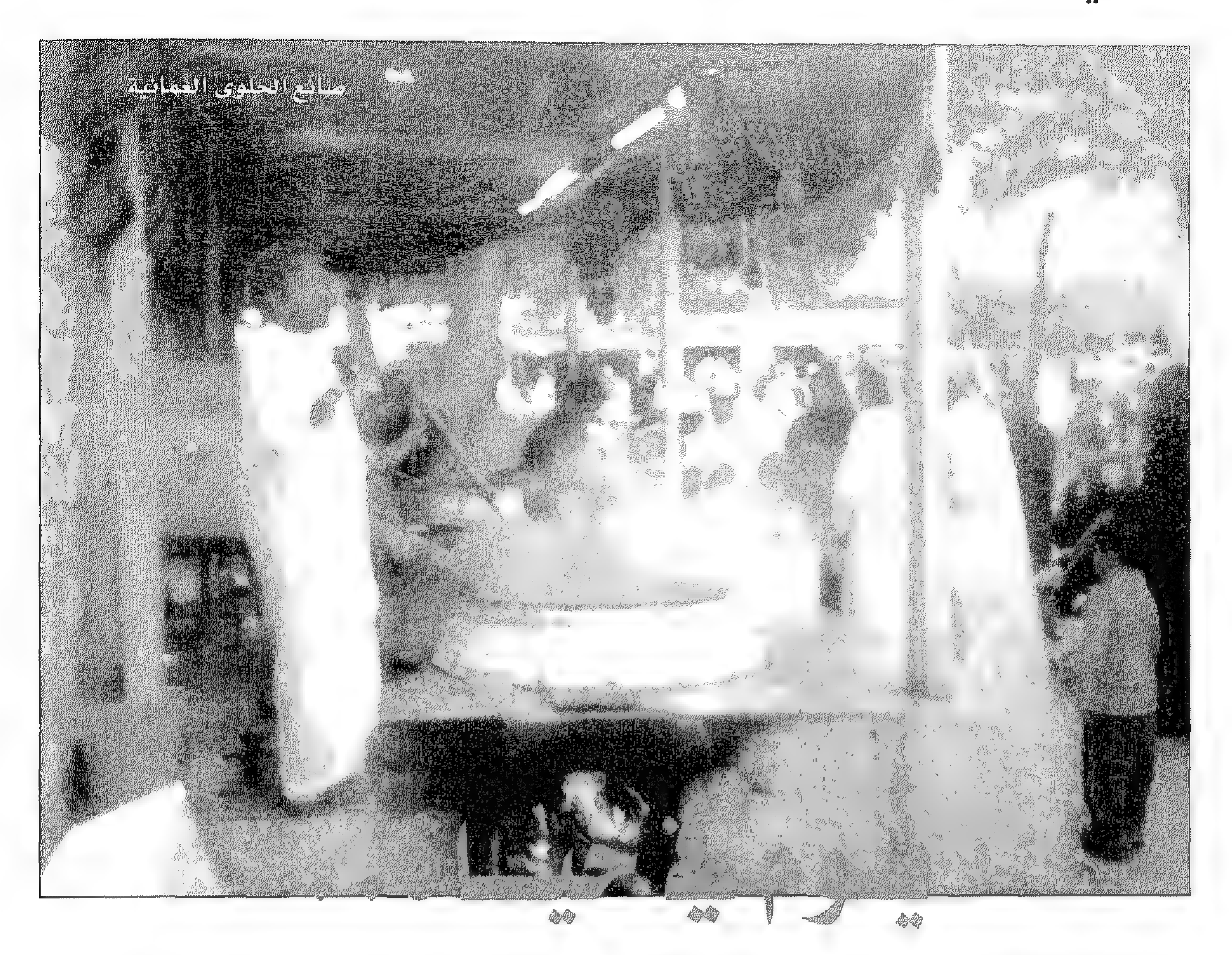
وقد ظلّ مسلم محافظاً على العهد الذي قطعه على نفسه بأن لا يقول الشعر مطلقاً، بيد أنه يروى أنه عندما حضرته الوفاة نظر إلى نخلة لم يكن بـ (جرجان) مثلها، وقال:

ألا يا نخلة بالسّفـ
ـح من أكناف جرجان
ألا إني وإياك
بجرجان غريبان

وبعد.. فهذه قبسات من حياة فنان ساحر، وشاعر رقيق، ملأ الدنيا حباً لأن قلبه كان مليئاً بالحب، فقد كان في حالة حب على الدوام، حتى أطلق عليه لقب (صريع الغواني).

قبسات من حياة فنان امتاز بالأدب الرفيع، والأسلوب الرائع، والواقعية التي تتسلل إلى أعماق النفس فتجذبها إليها، وتجعلها تجتاز دروب الحياة بحلوها ومرّها، وشقائها وسعادتها، واليأس منها والأمل فيها.

وإذا كان مقياس النبوغ الأدبي الذي يقاس به أي شاعر من الشعراء، هو تصوير الحياة التي يحياها تصويراً فنياً رائعاً، مع تضمين هذا التصوير وصفاً كاملاً لكل صغيرة وكبيرة، فإن مسلم بن الوليد ليعدّ من الشعراء المعدودين، الذين وصفوا أجزاء كثيرة من حياتهم وصفاً فنياً، امتاز بالدقة، وانفرد بالجمال. ■


صانع الحلوى العمانية

قرية تراثية عُمانية

■ إستطلاع وتصوير: عبدالستار خليف

كيف نسترجع الماضي القديم، الماضي العريق والأصيل معا؟! كيف نعبر نفق الزمن عائدين إلى ذلك الزمان لنعيش أيامه الخوالي الطيبة؟! نستنشق منها عبق التاريخ وتراث الآباء والأجداد، نمارس حياتهم اليومية كما كانوا يعيشون ويأكلون ويشربون. نشاركهم أفراحهم وأتراحهم وآمالهم وأحلامهم. نحس بدفء البيت الطيني الأصيل. نشاهد الخروس والجحال والمناديس، والسيوف والتروس. نتناول اللقيمات والرخال والعرسية والحلوى العُمانية.نحن، لاتوجد لدينا آلة الزمن للرجوع للوراء، ولن نقدر في نفس الوقت على أن نطوي الزمن طيا، لنسترجع كل مافات ومضى، ماالعمل؟!.

إننا فقط نستطيع أن (نعايش) حياة القرية القديمة، لنرى البيوت التقليدية والأدوات المنزلية، الأبواب الضخمة المزخرفة، قاعة الإستقبال، المجلس، الغرف، الفناء الداخلي، ونستخرج الماء العذب من الطوي– البئر– نستطيع أن نقوم بكل هذا، وذلك من خلال قرية عُمانية تراثية، معروفة ببساطتها وجمالها وطرازها البديع. قرية حيّة نابضة، تعج بالبشر والحركة والحياة الطبيعية، كما كانت منذ زمن قديم. زمن طيب وكريم.

الصباحات

ندخل من البوابة الكبيرة الرئيسية، بوابة ضخمة قوية عتيقة، تلمح التاريخ ينظر إليك بعيونه المتعبة المكدودة، لكنها نظرة ترحيبية بلا شك، القرية من بعدها ساكنة هادئة، ملامح الدور والبيوت تنم عن الأصالة، على وجناتها لمسات تدل على البساطة والرحابة والجمال، هي عبارة عن مناطق سكنية تضم بيوتاً صغيرة مبنية من الطين –الصاروج– العُماني، وكل منطقة تشكل عنصراً من عناصر القرية، كل حارة من حاراتها لها بوابة وسور يحيط بها ويطوقها المداخل بوابات تسمى (الصباحات) ومفردها (الصباح)، لأنها تغلق مع الغروب وتفتح مع شروق شمس الصباح. المداخل الفرعية الأخرى الصغيرة، هي صباحات صغيرة.

وباب الصباحات الذي نلج منه للدخول إلى عالم القرية، مصنوع من الأخشاب الغليظة والمزلاج الخشبي الثقيل. هذه البوابة الكبيرة لها باب صغير يشقها، لدخول وخروج الأفراد. وبداية الإغلاق بعد الغروب، يغلق الباب الخشبي الرئيسي الكبير، والباب الصغير يظل فترة قصيرة، ثم يغلق نهائيا. ومن خلال هذه الفتحة – الباب الصغير– المستطيلة يمكن رؤية الأشخاص قبل دخولهم أو القيام بتوصيل رسالة أو استلام رسالة.

البوابة الكبيرة تبرق فيها مسامير خاصة، مسامير نحاسية ضخمة تدخل في صناعة الباب لتقويته، بالإضافة إلى أعمدة من الحديد تحيط بحواف الباب.

مبنى هذه البوابة تتجسد فيه هندسة البناء القديم. في جوف البوابة من الداخل غرفة الحراسة، ومصطبة يجلس عليها (الناطور) بحيث لايعيق حركة المرور أثناء الدخول أو الخروج. وفي المساء قنديل الزيت يشتعل، لينير المكان بالضوء الشاحب الذي يتراقص مع الهواء.

هذه الصباحات تبني من الطين – الصاروج– العماني: وهو عبارة عن نوع معين من الطين يخلط مع مادة جيرية بيضاء، يعجن بالأقدام وأدوات البناء حتى تتماسك مادة الطين، ثم يحرق. ويستخدم بعد ذلك في البناء.

برج مراقبة آدمي

الناطور، حارس الصباح ـ البوابة ـ الرئيسة أو المدخل، يقوم بفتح وإغلاق الباب. أما عمله أثناء الحراسة، فهو التعرف على موقعه بالضبط وما يحيط به، وفي الوقت نفسه مكمل للأبراج الرئيسة المقامة فوق الجبال. هو العين للمراقبة، والعارف ببواطن الأمور وعليه منع السرقات، ومنع الخصوم من الدخول، ويعد في حد ذاته، برج مراقبة آدمي.

الناطور لا يفارق سلاحه (التفق)، بندقية تصنع محليا في سوق مدينة نزوى. أو بندقية (أبوفتيلة) البريطانية الصنع. أمّا أبراج المراقبة فهي مزودة بمدافع صغيرة. الصباحات والأسوار عادة تكون قريبة من فلج المياه، حتى يتمكن الناطور من معرفة مساره وجريانه، وأن لاشيء يعوق حركته. الناطور يتفق عليه بين أهل المنطقة، وهم يقدمون له مساعدات عينية أو مادية، مقابل الحراسة والأمن واستقبال الرسائل ورعاية الفلج ومعرفة الخصوم والأغراب عن القرية.

البيت العُماني

القرية العُمانية القديمة يتوسطها ساحة واسعة ومسجد، ومدرسة تحفيظ القرآن الكريم، السوق يقام تحت ظلال الأشجار أو النخيل، ويضم بعض الدكاكين الصغيرة الضيقة، ومجلس الرجال يطلق عليه (السبلة) وأحيانا يكون المجلس ملحقا بالمسجد أو بالبيت الكبير لأحد أعيان القرية.

ويضم البيت العديد من الفخاريات التي تستخدم لحفظ التمور وأخرى لحفظ



لرحى لطحن «البُر»

وتبريد المياه، ومنها آنية الطعام وإعداد القهوة. كما يضم البيت الكثير من أدوات الزينة التي تستخدمها المرأة كالذهب والفضة وأدوات العين والتجميل والسرير الذي يطلق عليه (الكاتلي). وكذلك أدوات الطفل كالسرير الخاص بالطفل الرضيع ويعرف باسم (المركب أو المنز). وهناك القنديل الذي يشتعل بالزيت والفتيل من القطن، وأدوات الطبخ والمبخرة، وأدوات تجهيز اللبن وأدوات المجلس، كالحصير والمفرش والمخدات، والعديد من الأدوات الصغيرة المكملة لمستلزمات البيت من أدوات وملابس.

البيت العماني يتكون عادة من المجلس وغرفة النوم والمطبخ والفناء الداخلي به الطوي والكنيف والصفة وحظيرة الدواب (الزرب). والبيت مبني من (الصاروج) وفروع الأشجار والأخشاب والدعون، ويضم البيت جميع الأدوات التي تحتاج إليها الحياة الريفية اليومية. المجلس معبق برائحة البخور العطرة الزكية التي نجدها في كل ركن من أركان البيت القديم، وسقف البيت، من جذوع الأشجار اليابسة أو الدعون، (جريد النخيل المضفور معا بأحبال من ألياف النخيل) بحيث يشكل مربعاً على مقاس السقف، وفوقه يوضع التراب أو الطين المخلوط. نلاحظ المرايا معلقة على الجدران، المساند الملونة بالمجلس، بسط على الأرض. والخناجر الفضية والدلّة العمانية لصناعة القهوة، الدلال الفضية والنحاسية بأحجامها المختلفة، النسوة يلبسن الحلي الثقيلة من القلائد والخلاخيل والحروز. الصناديق (المناديس) المزينة بالنقوش والزخارف البديعة، الأواني النحاسية من مختلف الأحجام. المنسوجات اليدوية. المباخر التي يحرق فيها اللبان الظفاري.

الفناء الداخلي: يوجد به الطوي (البئر) لاستخراج المياه العذبة للشرب. مواد المعيشة: تحفظ في جرار كبيرة (الخروس)، تستخدم أيضا في حفظ الحبوب والتمور والسمن والعسل. الأدوات المنزلية: (المنز) سرير الطفل الرضيع، مصنوع يدويا من فروع الشجر ومغطى بقطعة من القماش الشفيف لمنع دخول الحشرات أو الذباب والبعوض، يطلق عليه (المنز) أو المركب لأنه أقرب الشبه إلى شكل المركب. و(السعن): قربة من الجلد - إيهاب - لخض الحليب لتحويله إلى الزبدة. ويستعمل السعن أيضا في حمل الماء والإحتفاظ بالمياه فيه لمدة طويلة وهو يحافظ على برودة المياه. (الجحلة) من الفخار الخفيف لونها ضارب للبياض، توضع فيها مياه الشرب وتعلق بأحبال من عنقها في الطاقة المفتوحة في الجدار لتبرد المياه فيه وقت الصيف.

– السيوف: تُعلق على الحائط ذات مقابض مختلفة وأغمادها مزينة بمختلف الزخارف. (الترس): الواقي أثناء القتال، يُصنع من جلد حيوان وحيد القرن، ويستعمل للوقاية أثناء المبارزة بالسيوف، ويحمل في اليد اليسرى لتلقي الضربات عليه من قِبل الخصم، وهو قوي ومتين ولا يتحطم أو ينكسر من شدة تلقي الضربات عليه.

– السعفيات: تستخدم في أغراض كثيرة في البيت العُماني، في فرشها على الأرض أو الحوائط والجدران. (الشت): من السعفيات الجافة وهو يستخدم في تغطية الطعام وهويصنع على هيئة (قمع) أو هرم مستدير وليس مثلث الشكل.

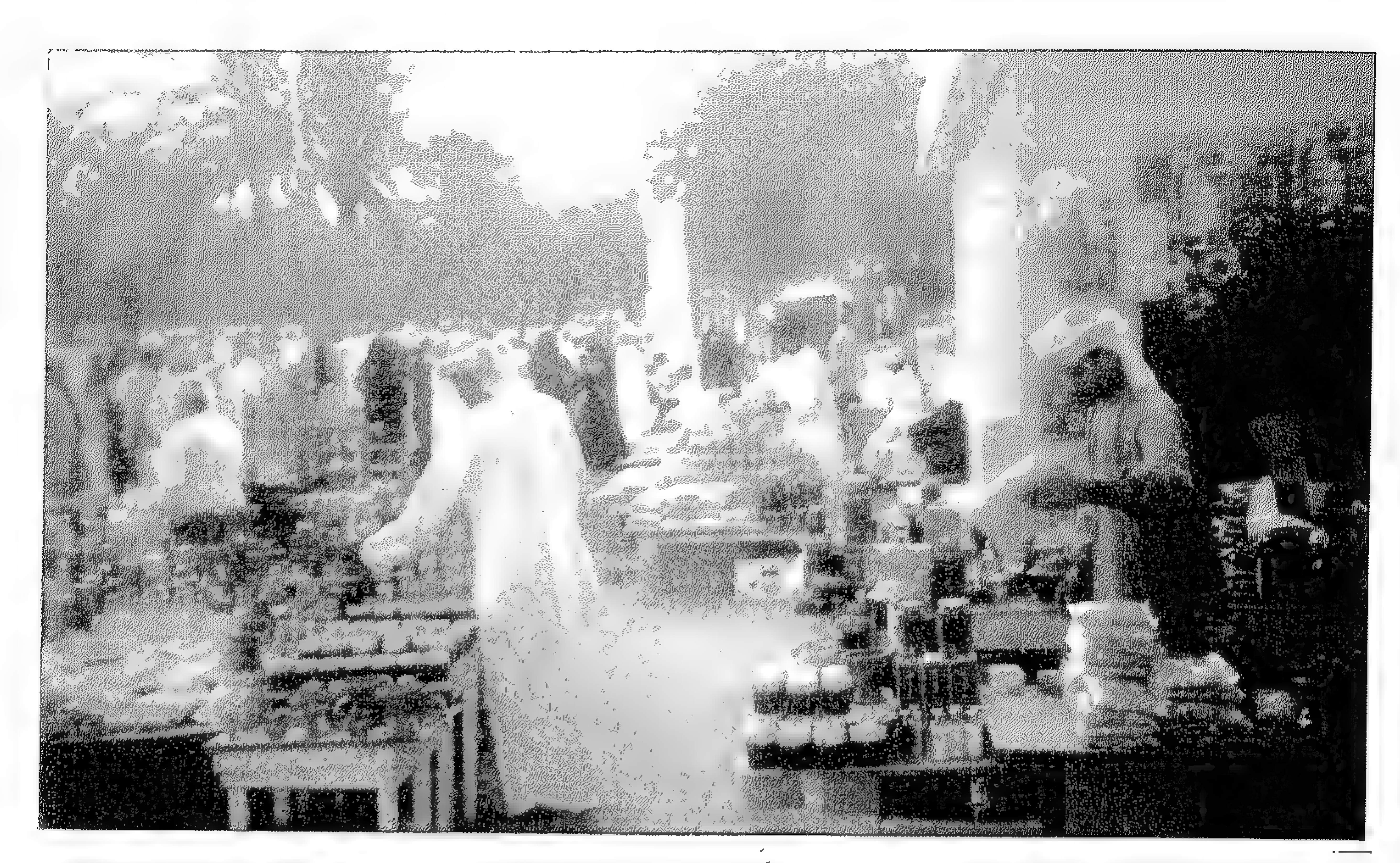
– (الطوي) هو البئر خاصة للبيت للشرب، له (مرد) حواف قوية من الأسمنت لترد من يقوم بجلب المياه من السقوط في قعر البئر، ويقام على البئر المقابض وأغلبها من فروع الأشجار اليابسة القوية، وهي خاصة لتعليق حبل القربة الذي يتدلى من العمود الواصل بين الفرعين المقامين على مرد الطوي.

الرحى (طحن الحبوب)

تتكون الرحى من جزئين: الفردة السفلى –قاعدة– الثابتة على الأرض، لا تتحرك، والفردة العلوية وهي أخف، تدور بواسطة المقبض اليدوي الذي يكون عادة من فروع الأشجار اليابسة القوية. وأحيانا يكون اليد أو المقبض طويلا أو قصيراً. ويطحن في الرحى حبوب القمح التي يطلق عليها (البُّر)، حتى تصير دقيقاً أو طحيناً يصلح للعجين وصناعة الخبز اليومي، ولايطحن في الرحى شيء آخر حتى لايتغير لون أو طعم الطحين المصنوع منه الخبز.

ألعاب الطفولة

(المنديسوه أو المديسوه) تشبه الاستغماية، ويطلق عليها (الغميضا) والبنات يلعبن لعبة الحجلة، تشبه السيجة والحصاة. و(الحجاه): لعبة العروسة للبنات الصغيرات يستخدمن فيه (الكرب) الجزء السفلي الأسود الغليظ من سعف النخيل، يصنعن منه العروسة الصغيرة بإضافة بعض قطع القماش



إلى اليمين بائع اللبان ويساراً عبوات البخور والمباخر الفخارية الشهيرة

والشعر الأسود والألوان. و(سلوم، بلوم) لعبة البنات الصغيرات ويستخدمن فيها الأقدام وتقول إحداهن: كفي هادي، وإرخي هادي. ولعبة (الحول حول): وهي الإحتفال بإكمال الطفل عام كامل، أي (حول) يجلس الطفل في وسط المجموعة ويغطي بقطعة من الحرير الشفاف ثم ينثرون عليه (الفرّاخ) وهي حبوب الأذرة المقلية بالسمن، ويردد الصغار: حول.. حول.. وأحيانا ينثرون عليه (الدنجو) الحمص، أو (السَبَال) بفتح السين والباء، وهو يشبه الفول السوداني. ومن العادات العمانية المشهورة: (القرنقشوه) التي يحتفل الأطفال بها في مساء العشرة أيام الأواخر من شهر رمضان. ولعبة (الحواليس) للشيوخ والكبار، لأنها تحتاج إلى سرعة البديهة والصبر والذكاء، وهي تمارس عادة في مكان رملي كشاطئ البحر، وهي لعبة مسلية ويستخدم فيها القواقع والأصداف البحرية، وربما لهذا السبب يعود لعبها قرب الساحل الرملي.

عملية (مخض اللبن)

تجلس المرأة العُمانية تخض اللبن الحليب في (السعن): ممخاض اللبن، قربة من جلود الغنم، معلقة على ثلاث قوائم من سعف النخيل اليابس. تقعد المرأة على حصير من الخوص، تدفع السعن المملوء بلبن البقر والمعلق في جذع شجرة أو حطبة وضعت له خصيصا وتستمر في الدفع الأمامي والخلفي حتى يتحول إلى اللبن الزبدة الصفراء الطرية التي تدخل في إعداد الطعام وقلي المعجنات وعمل أنواع من الحلوى المطبوخة. خلفها تبدو الجحال معلقة على الحوائط للشرب منها عندما تبرد المياه.

المشغولات اليدوية

في القرية العمانية، نشاهد جلسة النساء يقمن بعمل المشغولات اليدوية من المنسوجات الصوفية الخاصة بالنساء، كل واحدة تقوم بعملها، مثل تطريز الكميم أو غزل الخيوط أو السعفيات أو حياكة الملابس النسائية. وهناك رجال يقومون بنسج (الوزار) العُماني وغيره من المنسوجات الخاصة بالرجال. ومن هذه الحرف، حرفة النسيج الصوفي، تقوم به نساء البادية، حيث ينسجن من صوف الماعز والغنم بيوت الشعر وزانة البعير، ونسج الزرابي والسيح والخطام والشملة والكميم والمساند، ومن القطن ينسج الوزار العُماني والعمائم والبشوت والدشداشة والحطايا، ويستخدمن أدوات صناعة النسيج كالسكين والكرب والنير والبلو والخشب، بالإضافة إلى المرادة. وصناعة النسيج من الحرف القديمة في القري العمانية. كما تقوم النساء بخياطة غطاء الرأس (الكمة) العُمانية،



حلقة تحفيظ القرآن الكريم تحت ظل الشجر

وينسجن (التلي) وهو عبارة عن خيوط من القطن أو(البريسم) الصوف. وخيوط فضية وذهبية، وتختلط هذه الخيوط معا وتستخدم لخياطة ثياب النساء لإضفاء اشكال بديعة على الأكمام والمنحر، وخياطة فراريخ الكمة التي تلبسها النساء والأطفال، والبراقع وأدوات زينة النساء، والشملة (الحجم الكبير، والحجم الصغير) بها نقوش وألوان زاهية. ويبدعن في صنع السعفيات مثل:(الملهبة، الشت، الزبيل، والجبة).

السّبلة

تمثل مكان إجتماع أهل القرية في المناسبات. وفي السبلة يتم تناول القهوة العُمانية عند الاجتماع مع التمر أوالحلوى العمانية. وفي السبلة يتم استقبال الضيف وتكريمه. وقد يشترك أفراد القبيلة في إقامة سبلة عامة للمناسبات واستقبال الضيوف.

الحلقة: (لتحفظ القرآن الكريم)

مدرسة للصغار بواسطة (معلم) أو (معلمة) شيخ أو شيخة، وتنطق هكذا (أمدرسه) بدون ظهور حرف اللام أثناء النطق وهمزة قطع وليست وصل. والصغار خليط من الصبيان والبنات لم يتعدوا سن الحلم. الأطفال الكبار، الصبيان يخصص لهم مكان بعيد عن البنات، في نفس الحلقة، وأحيانا تكون -أمدرسه- بناية صغيرة وسط بيوت القرية أو تحت ظل شجرة الغاف في ساحة القرية، ويحددون المكان بالحصي والأحجار البيض حول جذع الغافة كالحلقة الدائرية حول الشجرة، والمعلم لايعمل بأجر ثابت أو معلوم، بل يأخذ هبة أو هدية مثل: الثوب (الدشداشة) أو (الكمة) غطاء الرأس أو (المصر) عمامة الرأس، وأحيانا يكون التمر أو الحبوب مثل البُّر: (القمح) والبعض يعمل تطوعاً لوجه الله لايريد جزاءً ولا شكوراً.

المعصرة

عصر أعواد القصب، لاستخراج السكر من العصير، يدخل هذا - سكر القصب- في صناعة الحلوى العمانية الداكنة اللون. وتتكون المعصرة من اسطوانتين خشبيتين متلاصقتين ويمرر الرجل أعواد القصب بينهما لعصره. تدور المعصرة بواسطة ثور فحل وهو مشدود إلى ساقية المعصرة بفرع غليظ وطويل من الأشجار اليابسة فيحرك الإسطوانتين القائمتين، كل منهما عكس الأخرى، ويتساقط السائل في القعر حيث يجمع في أوعية كبيرة ويصفى ويترك حتى يتبخر ويترسب السكر وينفصل عنه (الزيج) الذي يشبه العسل الأسود، الذي يستخدم مع بعض الأكلات الشعبية. أمّا السكر اليابس يحبذ إستخدامه في صناعة الحلوى العمانية.

السوق

الزحام، الزحام يعم سوق القرية بكثافة كبيرة، إذ تسير الفتيات وهن يحملن الجحال الفارغة ذاهبات إلى الفلج لملء الماء والعودة إلى البيوت. وفي بداية السوق دكاكين صغيرة، رأيت إحدي النساء تجلس بداخله لبيع الأغراض النسائية التي تهم المرأة العمانية في هذه القرية الريفية القديمة. في السوق بائع الأدوية والزيوت والأعشاب الطبية، وتبدو الكمة العمانية فوق رأس البائع مطرزة بالخيوط الزرقاء. الزحام بين جنبات السوق، وفي نهاية السوق تبدو أشجار النخيل وشجرة الغاف. الزحام علىٰ دكان بيع عسل النحل وخاصة عسل أشجار السمر والسدر، العسل البري المخصص للتداوي به من أمراض السكر، هذه المحال لبيع العسل البري تعد (خلطة) مقوية للبدن، تسمى

خلطة العرسان، وهو غذاء ملكات النحل مع إضافة أعشاب طبيعية لهذه الخلطة العجيبة والمفيدة للعرسان، لذا الاقبال يزداد على محال بيع العسل الجبلي، في السوق زجاجات ماء الورد، والحجلة، والخناجر. ونشاهد الأزياء العمانية مختلفة الأنواع متعددة الأشكال والتي تتزين بها المرأة البدوية أو الريفية، والبخور والأكلات الشعبية: الخبز العماني، الرخال، اللولاه، واللقيمات.

– بائع القهوة الجّوال: يحمل دلة من النحاس في يد وفناجين فارغة صغيرة في اليد الأخرى. يدور في أرجاء السوق ويمر على الدكاكين لبيع القهوة العمانية المرة المذاق.

– بائع البخور: يقف أمام بضاعته، يحمل في يده كيس من اللبان الظفاري (الجوجري) وأمامه العبوات ذات الأغطية الصفراء. وعلى الطاولة الصغيرة، تبدو المباخر الفخارية التي تستخدم لوضع الجمرات وعليها البخور أو اللبان.

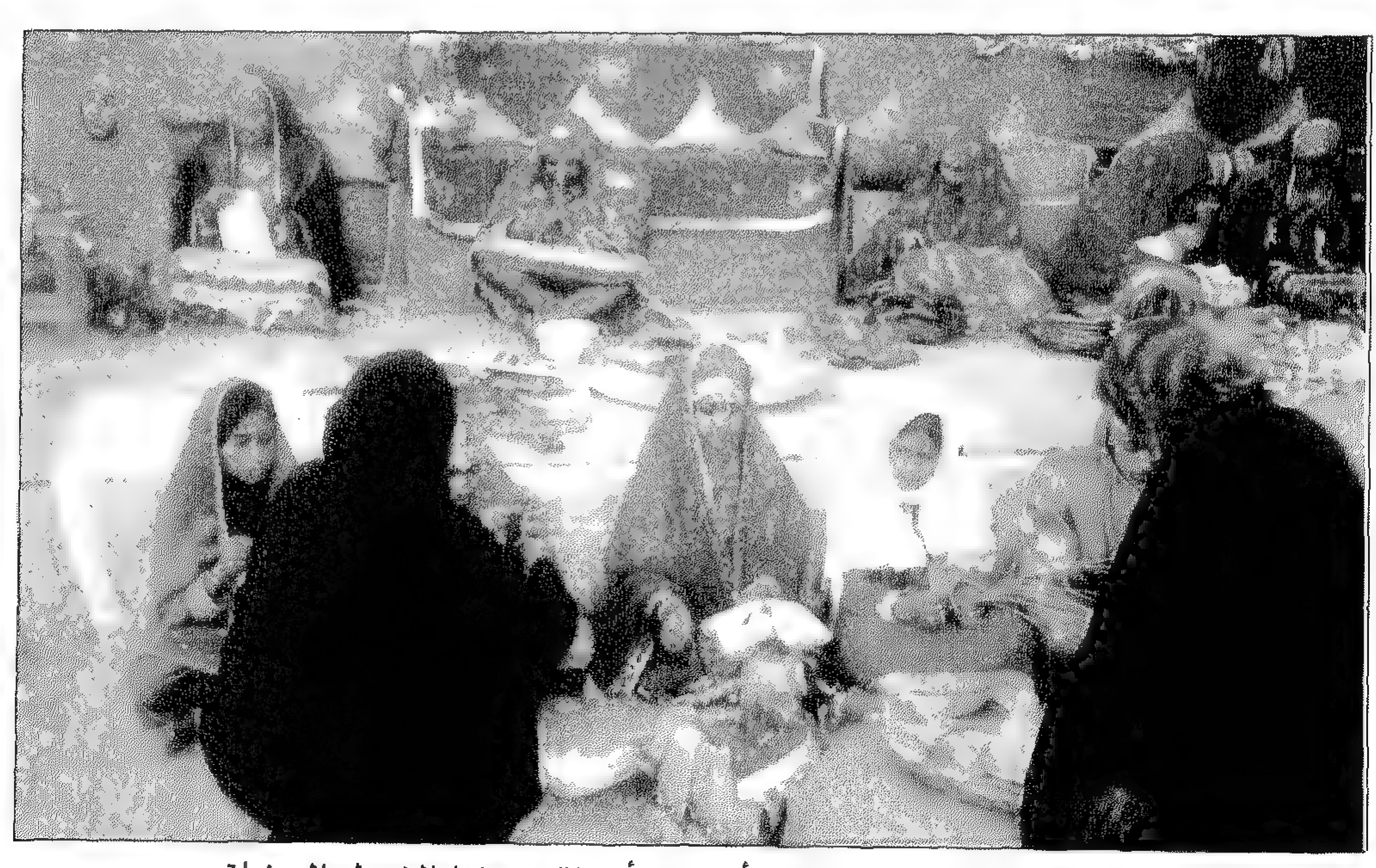
– صانع القوارب الصغيرة: في طرف السوق نشاهد صانع القوارب العُمانية (الشاشة) النماذج التي تستخدم للزينة وتوضع في مداخل المؤسسات والمتاحف، أمامه قارب الشاشة، وخلفه نموذج لقارب الشراع، بجواره المباخر المصنوعة من جريد النخيل حيث يوضع تحتها مجمرة النار والبخور وتفرد الثياب فوقها لتبخيرها وإعطائها رائحة طيبة.

– الأدوية الشعبية: في السوق أماكن ومحال لبيع الأعشاب الطبية للعلاج، مثل أدوية انبات الشعر، أو خفض الوزن، والمقويات، وهناك الزيوت النباتية الطبيعية لعلاج آلام الظهر، والتهاب المفاصل، وفي السوق أيضا العلاج بالطرق الشعبية كالوسم (الكي بالنار)، والحجامة، ويقوم بها شخص له خبرة وباع طويل في هذا المجال، تستخدم فيها أداة مجوفة ذات فوهتين تسمى (المحجم)، يتم سحب الهواء من المحجم بمصه بواسطة الفم من الفوهة الثانية، ويطلق على كؤوس الحجامة في بعض البلدان كاسات الهواء ويطلق على الحجام المصاص. تعتبر الحجامة طريقة قديمة للعلاج والتداوي: كالصداع، والإكتئاب والروماتيزم وألم الظهر الحاد وفقر الدم والجلطة الدماغية.

– (الكارجة) لصناعة النسيج: آلة من الخشب، تتكون من: المنسأة، والدرج، والوطايا. وتستخدم الكارجة في صناعة المنسوجات وبعض الأدوات التي تستخدم في الحياة اليومية، وهي تتكون من عدة أجزاء تساعد النساج على القيام بصناعة المناسل والبشوت وتستخدم الخيوط الصوف في حياكة الثياب.

سوق الحرفيين

يضم سوق الحرفيين على الحرف اليدوية، وهو من



النساء العُمانيات بارعات في تطريز أغطية الرأس «الكيم» وغزل الخيوط والسعفيات

الأسواق الشعبية التي يقبل عليها أهالي القرية لما يتوفر فيه من معروضات محلية وتراثية. في هذا السوق شبه المظلم لأن الطرقات فيه مُغطاة، العديد من الدكاكين، أبرزها محلات البخور واللبان الظفاري والأدوات التراثية كالمباخر والمجامر. والفضيات، والحدادة والصفارة، والجلود والشمامير وهي مهنة دبغ جلود الحيوانات، وصناعة الفخار وصناعة الحلوى العمانية.

– صناعة المناديس: وهي الصناديق الخشبية العالية الجودة تمتاز بالرسومات الرائعة والنقوشات والزخارف الجميلة البديعة. ومن الأمثال الشائعة في القرية العمانية: «حَضّر المندوس، قبل العروس». حيث يستخدم في حفظ الملابس والأسلحة والخناجر والحزام والذخيرة، بالإضافة إلى المستندات المهمة والأوراق الرسمية. والمندوس تستخدمه النساء في حفظ الثياب وأدوات الزينة، والأساور الذهبية والحروز الفضية، والنقود. ويصنع المندوس من خشب الساج الذي يتم جلبه من بلاد الهند، وبعد الإنتهاء من إعداده يتم صبغه بمادة المغر التي تأتي من الجبال، وفي النهاية يزين بالصفائح النحاسية على هيئة النجوم والزهور.

– صانع الجلود: الشمار أو الإسكافي، يقوم بتصليح النعال وخياطة الحزام وإعداد مسنٍّ من الجلد الأسود يحمي عليه السكاكين عند القيام بعملية الذبح، ويسمى (الشمار). كما يقوم بصناعة أنواع متنوعة من النعال والخف وأدوات تبريد وحفظ الماء مثل السعن والدلو، بالإضافة إلى المحافظ الجلدية لحفظ النقود فيها.

– الحدادة والصفارة :(الحدادة: السكاكين – الصفارة: الأواني النحاسية) من الصناعات العمانية القديمة في سوق الحرفيين، ومازالوا يزاولونها الى الآن، لصناعة (المجز) الذي يستخدم في الحقول لقص النباتات الطفيلية أوالبرسيم (الجت)، والسكاكين والمخلب الحاد لقطع الكرب من جذع النخيل ويطلق على المخلب (الشرّاطة). والمنجل وسلاح المحراث (الهيس) والمدورة المستخدمة لربط الأغنام و(الحزامي) وهي حلقة التي يشنف بها الثور لقيادته بسهولة ويسر. والصفارة ملازمة لمهنة الحدادة وهي المصنوعات النحاسية.

– الفخاريات: على الدولاب يقوم الصانع بصناعة الفخار بأشكالها وزخارفها المختلفة، واستخداماتها المتنوعة في الحياة اليومية لأهل القرية العُمانية، كالخروس والجحال والمجامر والمباخر، وتمر صناعة الفخاريات بعدة مراحل، إعداد الطين أو العجين في الآلة وبواسطة العجلة التي يحركها صانع الفخار بأصابع قدمية بخفة ومهارة فائقة، لتدور لخلط الطين معا ليتماسك ويصبح عجينة لينة طيعة في يديه يشكلها كيفما أراد.

صناعة السعفيات

هذه الصناعة يمارسها أهل القُرى العُمانية منذ زمن موغل في القدم ويجلب السعف من أشجار النخيل التي تنتشر في أنحاء القرية. ويوضع السعف في الشمس لعدة أيام، بعد ذلك يرش بالماء قليلا لسهولة الصناعة والتشكيل ومن الصناعات (الجرود) بألوان زاهية و(القفير) لجمع المحاصيل الزراعية الذي يحتاج إليه أهل القرية لجمع الرطب من النخيل وفي وضع الحبوب، و(العزاف) وهو يوضع في الوسط أثناء تناول الطعام كالمفارش أثناء تناول الطعام، و(المخرافة) وهي لجنى الرطب من النخيل أثناء صعودها، و(المبخرة) وهي الحامل الهرمي توضع فوقه الثياب و(الدعون) المستخدم أسقف للعرائش والمباني الطينية الصغيرة، و(المنز) السرير الصغيرة لوضع الرضيع فيه. والجراب ويستخدم لحفظ التمور، و(السف) الذي يشبه المذراة لفصل الحب عن القشر والشوائب، وصناعة الحبال من ليف النخيل، والمراوح السعفية، والشتوت، والسعفة.

صناعة الحلوى العمانية

الحلوى العمانية من الحلويات التي تقدم في مختلف المناسبات وخاصة أيام الأعياد وحفلات الأعراس، وتقدم للضيوف مع القهوة العمانية حيث تعد القهوة رمزا للكرم العُماني. ويدخل في صناعة الحلوى: الماء والبيض والسكر والنشاء والسمن، هذا بالاضافة إلى الهيل (الحبهان) والمدور واللوز وبقية المكسرات والزعفران. ومن أشهر أنواع الحلوى: الحلوى البيضاء النقية، والصفراء المزعفرة، والقاتمة التي تصنع من عصير قصب السكر.

والحلوى العُمانية: أشهرها الحلوى السلطانية التي تشتهر بها ولاية (سمائل)، نظراً للمواد التي تدخل في صناعتها مثل: السمن البقري العُماني، وماء الورد الجبلي الذي يشتهر به الجبل الأخضر، والزعفران الذي ينتج محليا، وهذه الحلوي تميل إلى

اللون الغامق، وأيضا من الأنواع الجميلة: الحلوى الديوانية، وهي تشبه السلطانية، ولكن المقادير تكون أقل من سابقتها، وإن كانت تشترك معها في اللون الغامق، وهناك أنواع خاصة من الحلوي العُمانية، وتأخذ خصوصيتها من طبخها بسمن مقشود وليس محليا، كما تتميز الحلوى المزعفرة بلونها الضارب إلى الإصفرار نظرا لكمية الزعفران المستعملة فيها، ومن الأنواع حلوى التمر، وهي من تمر بونارنجه والبرني، والنيران التي تطبخ عليها الحلوي من أشجار الغاف والسمر، هذه الفروع الجافة عندما تشتعل تعطي الحلوى مذاقا خاصا.

المنجور أوالزاجرة

طوي المنجور بئر أعمق وأوسع وأكثر في المياه لسقي المزروعات، وتقام عليه ساقية كبيرة أو (الزجر) حسب النطق لعامة أهل القرى العمانية، لأن ساقية الخشب أو البكرة الخشبية المتصل بها حبل المنجور، تحدث صوتاً وعند سماعه يقولون: الزاجرة دوارة، وهذا الصوت يدل على أن المنجور يعمل لمن لايشاهده، ولكنه يسمع صوتها من مكان بعيد أو أثناء الليل البهيم. وهناك أغان وأهازيج خاصة تقال على أنغام الزاجرة أثناء العمل. والزاجرة تدور لري الأرض الزراعية بعد عملية الحراثة بواسطة الثور و(الحرّاثة) الخشبية، وصوت المنجور لايتوقف عن (الزجر) بصوت مألوف معروف في أنحاء القرية.

الجمل سفينة الصحراء

يُعد الجَمَل وسيلة نقل الآباء والأجداد بين جنبات القرى، وتبدو واضحة وهي القادرة على تحمل أعباء السفر الطويل والجوع والعطش. ونجد صاحبها يقف على مقربة من خطام الناقة أو الجَمَل. وفن الطارق من فنون البادية لأنه مرتبط بحركة البعير مع بطء حركة القوافل في الصحاري. والتغرودة من فنون البادية المشهورة لحث الأبل على المسير.

وبجانب البعير والناقة في وسيلة النقل والمواصلات من القرية الى المدينة، نجد الحمار الصبور، الوسيلة البطيئة التي كان يستخدمها الأجداد ومازالوا إلى الآن، حيث يتم نقل البضائع في الخرج على ظهر الحمار، وهي تدل على صبرهم ومعاناتهم في الوصول إلى قراهم الجبلية النائية، بعد عناء السفر تحت وهج الشمس الشديد.



فرق الفنون الشعبية تجوب في أرجاء السوق

الفنون الشعبية

تقدم الفرق العُمانية الشعبية عروضها في ساحة القرية، و(الرزحة) من الفنون الشعبية العمانية التقليدية القديمة، التي مازالت تمارس في المناسبات والأحتفالات والأعياد والأفراح. والفرق الشعبية للغناء والرقص: تحمل الأدوات الموسيقية التقليدية كالطبول المصنوعة من جلد الماعز أو البقر، وقرن الثور(البرغام) الذي يستخدم كأداة موسيقية للنفخ فيها كالنفير. والأهازيج والرقصات الشعبية لاتتوقف وخاصة فنون الحصاد، والعيّال والهبوت والعازي، ورقصة فن الميدان.

والدف العُماني يطلق عليه (السماع)، وتوجد أصناف مختلفة من الدفوف منها الدف الكبير التي تستخدم في المناسبات الدينية، والدفوف توضع عادة بالقرب من النار قبل استخدامها لزيادة الصوت وتعطي إيقاعا أفضل، حيث نجد الفرقة بعد الإنتهاء يضعون دفوفهم قرب النار. ومن الفنون الشعبية أيضا، أبوزلف و العازي و الويليه، وفن الكيذا. وهذه الفرق تقوم بترديد أغان تراثية قديمة (دان، يادان، يادانه) وهي تقدم في المناسبات الوطنية وأيام الأفراح كالأعراس وغيرها. وهذه الفرق تتكون من الرجال والنساء، وبعض الرقصات العمانية يشترك فيها الرجال والنساء أيضا، ومن أشهرها: رقصة الشرح أو المدار.■

درهم «بن هرثمة»



عبد الله بن جاسم المطيري
مدير بيت الشيخ سعيد آل مكتوم- دبي
عضو الجمعية الملكية البريطانية للمسكوكات

تمكن يعقوب بن الليث الصفاري من الاستيلاء على نيسابور سنة ٢٦٨ هـ والقضاء على الدولة الطاهرية، كان رافع بن هرثمة بن أعين يعرف بابن نومرد من رجال محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وبعد سقوط الدولة الطاهرية صار رافع، في جملة رجالات يعقوب، ولما عاد يعقوب إلى سجستان صاحبه رافع وكان طويل اللحية كريه الوجه قليل الطلاقة، فدخل يوماً على يعقوب، فلما خرج من عنده قال يعقوب أنا لا أميل إلى هذا الرجل فليلحق بمن شاء من البلاد، فقيل له ذلك وعاد إلى منزله بتأمين، وهي من بادغيس.

وأقام إلى أن استقدمه أحمد بن عبد الله الخجستاني وجعله صاحب جيشه، فلما قُتل الخجستاني اجتمع الجيش عليه، وهو يؤمئذ بهراة، وسار رافع من هراة إلى نيسابور، وكان أبو طلحة شركب قد وردها من جرجان فحاصره فيها رافع وقطع الميرة عنه وعن نيسابور، فاشتد الغلاء ولم يجد أبو طلحة إلا مفارقتها فدخلها رافع وأقام فيها سنة ٢٦٩هـ، وفي شعبان سنة ٢٧١ هـ قلد الموفق بالله العباسي أخوه الخليفة المعتمد من ابن طاهر -وكان ببغداد- أعمال خراسان، فاستخلف محمد بن طاهر على أعمال خراسان رافع بن هرثمة ما عدا ما وراء النهر. سار رافع إلى هراة وبها محمد بن مهتدي خليفة أبي طلحة شركب الذي قتل على يد يوسف بن معبد، فلما وافى ابن معبد رافع بن هرثمة استأنس إليه يوسف فأمنه. استعمل رافع على هراة مهدي بن محسن واستقدم رافع أيضا علي بن الحسين المروروذي فقدم عليه وساروا بأجمعهم إلى شركب وهو بمرو فحاربوه وهزموه، فسار شركب إلى هراة ولقي مهدي بن محسن وتحالفا ضد رافع، فقصدهما رافع وهزمهما.

وفي سنة ٢٥٧ هـ سار رافع إلى جرجان فأزال عنها محمد بن زيد العلوي، وسار محمد إلى استراباذ فحاصره فيها وأقام عليه نحو سنتين، وفارقها محمد بن زيد ليلاً في نفر يسير إلى سارية، فسير إليه رافع عسكراً فتحاربا وسار محمد عن سارية وعن طبرستان وكان ذلك في ربيع الأول من سنة ٢٧٥هـ.

استأمن رستم بن قارن إلى رافع بطبرستان وقدم على رافع وهو بطبرستان، علي بن الليث وكان قد حبسه أخوه عمرو بن الليث، بكرمان، فاحتال حتى تخلص هو وابناه المعدل والليث، وأنفذ رافع إلى شالوس محمد بن هارون نائباً عنه فأتاه بها علي ابن كالي مستأمنا، وأتاهما محمد بن زيد وحصرهما بشالوس، وأخذ الطريق عليهما فلم يصل منهما أي خبر إلى رافع، فلما تأخر خبرهما عنه أرسل جاسوساً يأتيه بأخبارهما، فعاد إليه وأخبره بحصر محمد بن زيد لهما بشالوس، فعظم عليه وسار إليهما، فرحل عنهما محمد بن زيد إلى أرض الديلم فدخلها رافع وخرقها حتى اتصل بحدود قزوين، وعاد إلى الري إلى أن توفي الموفق بالله في رجب سنة ٢٧٦ هـ، وفي سنة ٢٧٩ هـ عزل الخليفة المعتضد بالله رافع بن هرثمة عن خراسان، وسبب ذلك أن المعتضد بالله كتب إلى رافع بتخليه عن قرى السلطان بالري فلم يقبل، فكتب المعتضد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي الدلف بمحاربة رافع وإخراجه من الري، وكتب إلى عمرو بن الليث بتوليه خراسان. ثم أن أحمد بن عبد العزيز لقي رافعاً فقاتله فانهزم رافع عن الري وسار إلى جرجان. مات أحمد بن عبد العزيز سنة ٢٨٠هـ فعاد رافع إلى الري فلاقاه عمرو وبكر ابنا عبد العزيز بن أبي الدلف فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عمرو وبكر، وقتل من أصحابهما مقتلة عظيمة، ووصلوا إلى أصفهان وذلك في جمادى الأولى من سنة ٢٨٠هـ وأقام رافع بالري. استولى عمرو ابن الليث على نيسابور وخراسان، فبلغ ذلك الخبر إلى رافع فجمع أصحابه واستشارهم فيما يفعل، وأرسل إلى ابن عبد العزيز فصالحه واستقر الأمر بينهما في شعبان سنة ٢٨٠هـ، وسار رافع إلى طبرستان فوردها في شعبان سنة ٢٨١هـ وكان قد أقام بجرجان فأحكم أمورها، ولما استقر بطبرستان راسل محمد بن زيد وصالحه

ووعده محمد بن زيد أن ينجده بأربعة آلاف رجل من شجعان الديلم، وخطب لمحمد بطبرستان وجرجان في ربيع الآخر سنة ٢٨٠هـ. سار رافع إلى طبرستان فوردها في شعبان سنة ٢٨١ هـ وكان قد أقام بجرجان فأحكم أمورها، ولما استقر بطبرستان راسل محمد بن زيد وصالحه ووعده أن ينجده بأربعة آلاف رجل من شجعان الديلم، بلغ خبر مصالحة محمد بن زيد ورافع بن هرثمة إلى عمرو بن الليث، فأرسل إلى محمد يذكره ما فعل به رافع ويحذره منه، فعاد محمد عن إنجاده بعسكر. ورد رافع نيسابور في ربيع الآخر سنة ٢٨٣هـ وجرت بينه وبين عمرو حربا شديدة انهزم فيها رافع إلى أبيورد، وأراد المسير إلى هراة أو مرو فعلم عمرو بن الليث بذلك فأخذ عليه الطريق بسرخس، فلما علم رافع بمسير عمرو عن نيسابور سار على مضايق وطرق غامضة غير طريق الجيش إلى نيسابور، فدخلها وعاد إليه عمرو من سرخس فحاصره فيها وتلاقيا، واستسلم بعض قواد رافع إلى عمرو فانهزم رافع وأصحابه، وسير أخاه محمد بن هرثمة إلى محمد بن زيد يستمده ويطلب ما وعده به من رجال فلم يفعل ولم يمده برجل واحد، وتفرق عن رافع أصحابه وغلمانه، وكان له من الغلمان أربعة آلاف غلام وفارقه محمد بن هارون إلى اسماعيل بن أحمد الساماني ببخارى، وخرج رافع منهزماً إلى خوارزم وحمل معه ما بقي من مال وهو في شرذمة قليلة، وذلك في رمضان سنة ٢٨٣هـ، فلما بلغ رباط جبوه وجه إليه خوارزم شاه أبا سعيد الدرغاني ليقيم معه ويخدمه في خوارزم، فرماه أبو سعيد في قلة من الرجال وغدر به وقتله في شوال ٢٨٣هـ، وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث وهو بنيسابور فأنفذ عمرو رأسه إلى الخليفة المعتضد بالله فوصل إليه سنة ٢٨٤هـ فنصب ببغداد وصفت خراسان إلى شاطئ جيحون لعمرو بن الليث الصفاري. كان هرثمة بن أعين جوادا عالي الهمة امتدحه البحتري فبعث له بألف دينار.

ضرب رافع بن هرثمة دراهم من الفضة نقشت عليها عبارات مختلفة حسب الظروف التي مر بها وحسب الدويلات التي أصبح من رجالها، فنجده ضرب دراهم عندما كان تحت إمرة الدولة الطاهرية، وكذلك الدولة الصفارية، وتحت سلطة محمد بن أحمد باينجور، وهناك بعض الدراهم التي ضربها في الفترة التي كان مستقلاً بها عن تلك الدول، فضرب دراهم، كتب في أحد وجهي القطعة عبارة النجيب رافع بن هرثمة، وكان أحياناً يرد ذكر اسمه تحت اسم الخليفة مباشرة دون الإشارة إلى اسم أي حاكم محلي، وهذه هي الدراهم المستقلة. وقد امتازت دراهم رافع بجمال خطها والعناية في سكها، وضربت من معدن فضة نقي. تضم مجموعتي ثلاثة دراهم لرافع، وتعد دراهمه نادرة جداً وخاصة المستقلة منها.■

مأثورات الدرهم

نموذج درهم النجيب رافع بن هرثمة هراة سنة ٢٧٣هـ



الوجه الأول:

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

المركز: لله – محمد رسول الله– المعتمد على الله – رافع بن هرثمة.



الوجه الثاني:

الهامش الأول: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الهامش الثاني: بسم الله ضرب هذا الدرهم بهراة سنة ثلاث وسبعين ومائتين

المركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له – محمد بن أحمد.

الاستعراض..

لمسات الجمال..
على وجه الصارم



■ بقلم/ممدوح الشيخ

احتل السيف مكانة مرموقة في التاريخ العربي كرمز للفروسية والشرف، ويحفل الأدب العربي بالكثير والكثير من ذكر السيف موصوفا ومشبها ومشبها به، وكما اشتهر في التاريخ العربي شعراء وفرسان، اشتهرت سيوف بأسمائها، وبطبيعة الحال اشتهرت مدن بهذه الصناعة لكون السيف – ولقرون متعاقبة – بقي الأداة الرئيسة للحرب، وللتعبير عن أهميته وشهرته سمي بأسماء كثيرة منها:

الحسام والصمصام والمهند والصارم وغيرها. كما نسبت بعض السيوف لموطن صناعتها، فكان هناك من السيوف: اليمانية، القلعية، الهندية، البصرية، الخراسانية، الدمشقية، المصرية، والكوفية. وبقدر ما كان السيف أحد أهم صناع تاريخ الحرب قبل الإسلام وبعده، كان أحد أهم مفردات تاريخ الفن العربي الإسلامي.

فمع ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لم تتوقف مسيرة تطور صناعة السيف عند ضرورات الحرب، بحيث يكون أصلب أو أكثر فتكاً، بل صار السيف بما له من مكانة في التراث العربي الإسلامي تحفة فنية فرصع حده ومقبضه وغمده بالجواهر الثمينة، ونقشت عليه الكتابات والرسوم ليكون رمزاً من رموز تفرد الفن الإسلامي، إذ حول أداة الحرب إلى رمز من رموز الجمال، حتى لا يكاد متحف من متاحف الفن العربي الإسلامي في العالم تخلو معروضاته من سيف أو سيوف.

ذكر السيوف وأجناسها

من النصوص الأدبية الجميلة في وصف السيف وبيان أهميته ما كتبه محمد بن منكلي الناصري تحت عنوان «ذكر السيوف وأجناسها» في كتابه: «الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب»، يقول: «لا شيء من السلاح يوصف بالكرم والجوهر ويبلغ من الثمن ما يُتباهى به ويُستنصر به كنصرة السيف. وله الهيئة وله الفضل على جميع الأسلحة، والسلاح الذي يعمل به كل الناس ممن عمل بالفروسية ومن لم يعمل، ويبقى في يد الشيخ الكبير ويعمل به الحدث الغر وإليه يلتجيء الناس أجمع عند المواطن التي تكل فيها وتعطل وينفد فيها بعض الأسلحة. وهو الأخ الصديق الذي لا يتعطل في سعة ولا مضيق ولا زحام ولا بحر ولا بر ولا ريح شديدة ، فقد يثقل الرمح في الريح ويطيش النشاب فيها، وكل من معه سلاح لا يستغني عن السيف، وصاحب السيف يستغني عن جميع السلاح».

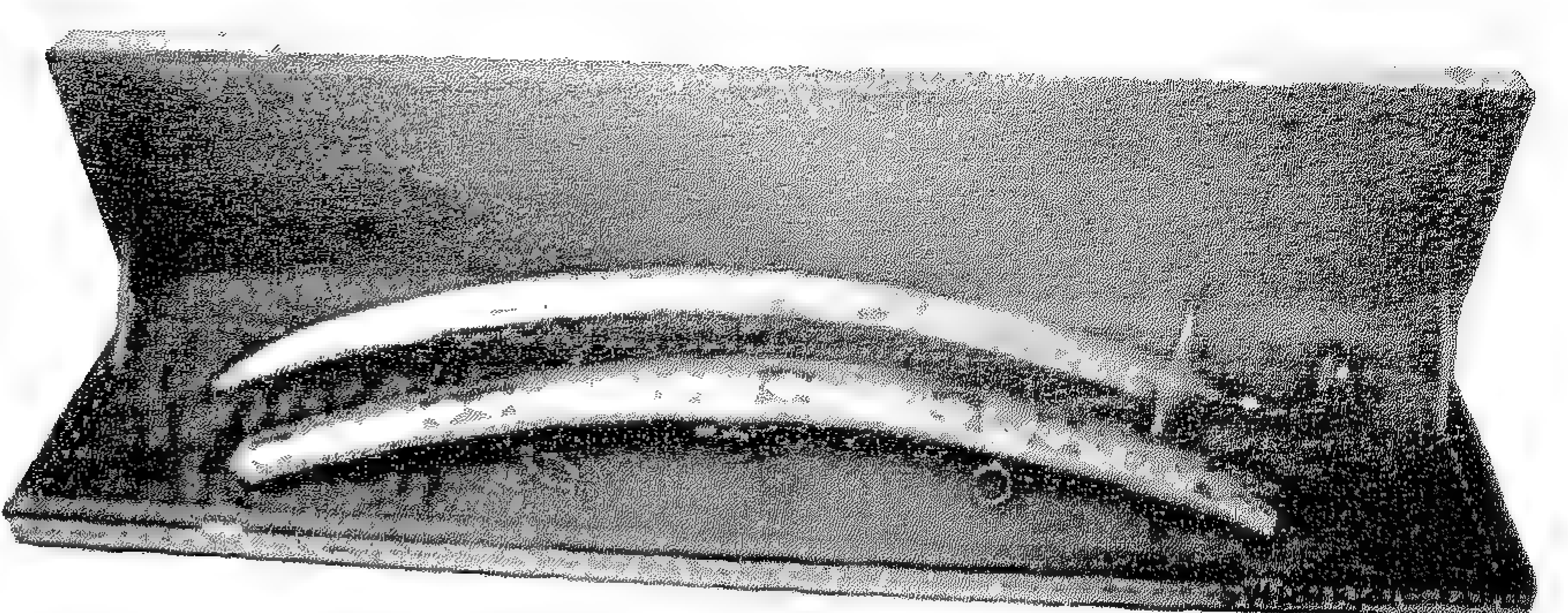
وقد تميز العرب بصناعتهم المتقنة للسيف العربي الذي يصنع من الحديد فيقال له «السيف الأنيث»، أو من الفولاذ أو من الحديد ورأسه من الفولاذ ويقال له «السيف المذكر». وقيد الكندي من أنواع السيوف خمسة وعشرين نوعاً تتبع تسميتها لنوع الفولاذ المستخدم في صناعتها، والمكان الذي صنعت فيه كالسيوف القلعية واليمانية والهندية والبصرية والخراسانية والدمشقية والمصرية وهكذا. وقد صنعت السيوف العربية قبل الإسلام في أراضي مؤاب وعرفت باسم «المشرفية»، وفي الوقت نفسه كانت تصنع سيوف عربية عند المناذرة في الأبلة وهي قرية صغيرة على نهر دجلة في العراق، وفي حمير عرفت السيوف اليمانية الشهيرة التي عرفت بمرونتها وحسن صناعتها.

وقد أورد أبو يوسف يعقوب الكندي في رسالته «السيوف وأجناسها» كيفية صناعتها، حيث يكلف الحداد طائفة من أعوانه بجمع الخشب الأخضر ثم تجفيفه وتكسيره إلى قطع صغيرة ثم تكويمها ودفنها تحت التراب، وإشعال النار فيها من جانب واحد وهي مدفونة بحيث تسري الحرارة فيها أياما. وبعد ذلك يتم إخراجه وقد تحول إلى فحم. ثم يذهب الحداد للبحث عن حجر الحديد الذي لا تميزه إلا العين الخبيرة، فإذا جمع منه كمية طحنها ومزجها بشيء من الدهن الساخن. ثم يأتي دور العمل الخطير، دور صهر الحديد، وهو عمل لا يقوم به إلا الحداد نفسه ويساعده فيه أحد أولاده ليحفظ أسرار الصناعة. وقد كانت الهند أهم بلدان الشرق في صناعة الحديد، واستخدمه الحدادون منذ القدم في عمل النصال الجيدة. ويصف الفيلسوف البيروني ذلك قائلا: «لا توجد أمة أبصر بأنواع السيوف من الهند»، وأشار الإدريسي إلى سيوف الهند المشهورة بجودة الصقل، وقد ذكر أنواع الحديد ثم قال إنه لا يوجد شيء أمضى من الحديد الهندي.

وما وصل إلينا من المراجع العربية القديمة عن المعادن – وبخاصة الحديد – قليل جدا ومعظم ما عرفه المسلمون القدامى عنه نقلوه من الهنود والفرس، ولم نعثر على رسالة تتناول الموضوع قبل القرن التاسع الميلادي، وقد يكون ما كتبه الكندي اقدم ما وصل إلينا، وقد تطرق في رسالته إلى تعدينه وطريقة تصنيعه، كما عدد أنواع الحديد مستعملا الألفاظ الإيرانية والهندية أحيانا. ولم تزد معرفة المسلمين بعد عدة قرون عما كتبه الكندي، فعندما تعرض القلقشندي (١٣٥٥– ١٤١٨) للموضوع نفسه لم يزد عما قاله الكندي. ولم تخل كتب الجغرافيين المسلمين من ذكر مواضع مناجم الحديد من كابل وفرغانة إلى شاهق في بلاد فارس التي ذكر المقدسي أنها اشتهرت بطبع النصال الجيدة، إلى بيروت وجزيرة صقلية وبلدة مجانة على الحدود التونسية الجزائرية، وصنعاء موطن السيوف الحميرية، ومن شبه جزيرة سيناء كانت تخرج قوافل البدو تحمل خام الحديد الذي اكتشفوه فيها ليباع في مدينة صعدة اليمنية التي كانت مركزا لصناعة السيوف.

العتيق والمحدث

ويعد كتاب: «الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ



الدروب» لمحمد بن منكلي الناصري، وكان نقيبا للجيش المملوكي في عهد الأشرف شعبان بن محمد بن قلاوون (١٣٦٢ - ١٣٧٢م) مرجعا مهما لغزارة المعلومات التي يقدمها عن أدوات الحرب عموما آنذاك. وهو يبدأ حديثه عن أنواع السيوف بتقسيمها إلى:

١- عتيقة، وهي أرفع السيوف، وأولها اليماني ثم يليه القلعي ثم الهندي، وأكثر ما يكون من علامات العتق ثقبان أحدهما عند طرف النصل والآخر عند مقبضه.

٢- وسيطة، وهي المتوسطة من السيوف، وتصنع باليمن من خامات منها السرنديبي.

٣- محدثة، وهي الرديئة.

السيف الدمشقي

ومن السيوف التي أحيطت في التراث العربي بهالة كبيرة «السيوف الدمشقية»، وقد ذكرها ابن منكلي الناصري فوصفها بأنها قواطع، وأن عرضها أربعة أصابع أو أقل قليلا، وكان العرب يطلقون على السيف الدمشقي أسماء كثيرة منها: الحسام والمهند والفيصل وغيرها، وهي أسماء تنم عن اعتزاز وفخر. وقد انفردت النصال الدمشقية عن غيرها بميزات من أهمها ظاهرة الجوهر وتسمى أيضا «الفرند» وماء السيف والسفسفة والأثر. و«الجوهر» اصطلاح يستخدم لوصف ظاهرة الخطوط المتداخلة المتباينة المختلفة الألوان وأشكال والأوضاع على صفة النصل. فهي نائمة متداخلة على شكل النسيج الشبكي أو على نحو يقسم النصال إلى مسافات قصيرة ومتساوية أو على شكل عقد متناسقة متقاربة أو متلاحقة. وربما كانت على شكل خطوط عريضة أو متعرجة أو متوازية. ويرجع هذا الاختلاف إما إلى التغيير في نسب الشوائب الداخلة في الخليط الفولاذي للنصل الذي تدرس كميات مكوناته بدقة من الماء والكربون والمغنيسيوم والسيليسوم والكبريت والفسفور وبعض المواد العضوية الأخرى، وقد ترجع إلى التغيير في الطرق الحرارية من إسقاء وتبطين، ويتحكم في درجة حرارة كل منها منهج. وتختلف أنواع الجواهر باختلاف مصادرها واختلاف مناطق الاستخدام وحسب الضرورات القتالية. وللجوهر ثلاثة أنواع رئيسة هي:

١ - الجوهر الدمشقي.

٢ - الجوهر الفارسي.

٣ - الجوهر الهندي.

ويأتي في الدرجة الأولى الجوهر الدمشقي ومنه يصنع السيف الدمشقي.

ويمتاز الجوهر الدمشقي ببعض الخواص من أهمها التموجات الرائعة التي تشبه البقع الهندسية المحكمة، وألوانه المائلة للبياض وعدم قبوله الصدأ، ولينه ولدانته وتركيبه الذي يتكون من حبوب ناعمة متقاربة المسام رمادية اللون مع ميلها إلى البياض. ومن خواصه أيضا أنه يتكون من معدنين يتحد كل منهما بالآخر دون أن يفقد أي من المعدنين خواصه، وللسيف الدمشقي الذي اشتهر باسم «سيف دمشق الذهبي» صفة خاصة معروفة لدى أرباب المهن في البيع والشراء وهي أنه ذو قيمة ثمينة. وربما كان ذلك لصفاته العملية فهو سيف قاطع مصنوع من الفولاذ يستعمل للحرب والنحر، منه ما هو مستقيم ذو حد واحد ومنه ما هو بحدين وهو الأكثر شيوعا. وهو من ناحية شكله الخارجي يتميز بعرض كبير ورأس ذات حدين للطعن وظهر سميك، أما غمده فيصنع من هيكل خشبي يتم تلبيسه بالصفيح منزل عليه ذهب أو فضة، ويصنع المقبض من العاج أو قرن الجاموس. ومن أسماء السيوف التي يصنعها الدمشقيون: الفارسي، الهندي، اليماني، التتري، المغولي، القفقاسي، واليقطان، ويصنعون كذلك: القامات ذات الحدين وذات الحد الواحد.

أما طريقة صناعة السيف الدمشقي فتكون على عدة مراحل:

تحمى قطعة الفولاذ المراد تشكيلها التحمية الكافية

بنار الكير، ثم تشكل بالشكل الذي يرغب به الصانع، ثم تنظف على حجر الجلخ، ومن ثم تسن لإكسابها الحد القاطع. ثم تأتي عملية السقاية حيث تسقى قطعة الفولاذ بخليط من الزيت المعدني والماء ويعطى حد السيف عناية خاصة في عملية السقاية ليكتسب القساوة اللازمة، أما إذا كانت القطعة التي يتم تشكيلها من الحديد فتسقى بالماء بعد احمرارها. وبعد انتهاء صناعة النصل يصنع الغمد والمقبض.

صعود الدمشقي وهبوطه

برزت مزايا السيف الدمشقي خلال الحروب الصليبية حيث كان السيف الصليبي بسيطاً جدا وقصيراً يصنع من الحديد المطروق أو من البرونز بينما كان السيف الدمشقي يصنع من الفولاذ الجوهر، فأخذ المحاربون الصليبيون يبحثون خصائصه وطرق صنعه وكانت المادة الأساسية التي يصنع منها الفولاذ الدمشقي الذي كتب عنه المؤرخون آنذاك موضحين الفرق بينه وبين الفولاذ الهندي ما يؤكد أصالة الفولاذ الدمشقي. وكان الروس يولون اهتماماً شديداً بالسيف الدمشقي الذي كانوا يسمونه «الفولاذ العظيم» أو «اللامع القوي». وانتقل السيف الدمشقي إلى الغرب عن طريق الصليبيين، واشتهرت صناعته في الغرب تحت اسم Damascinage أي الدمشقية، وبدءاً من القرن العاشر ازدهرت هذه الصناعة التي أصبحت تعرف بالفرنسية Damascinuge وتعرضت صناعة السيوف الدمشقية منذ عام ١٤٠٠م إلى التدهور بفعل ثلاثة: غزو تيمور لنك، انتقال الصناع المهرة، وفرة الفولاذ الصناعي.

وعندما جاء الغزو التتري أسر تيمور لنك جميع العمال الفنيين في سورية – وبخاصة صناع السيوف – ونقلهم إلى سمرقند بهدف إضعاف صناعة السيوف في الشام وإحيائها في بلاده، وهو ما دفع هذه الصناعة خطوات في طريق الاضمحلال. ثم ظهر الشاه عباس (١٥٥٧ – ١٦٢٨) فضم العراق إلى ملكه، واهتم بالعمران والفنون والصناعات واستجلب لذلك الصناع المهرة من كل مكان، وبخاصة الشام. ومن المعتقد أن السيف الشمشير الذي اشتهر في عهد الشاه عباس وبعده كان محاكيا للسيوف المصنوعة من الفولاذ الدمشقي، وكان السيف المسمى «شام» أو الدمشقي السوري يشمل أنواعا ونماذج كثيرة. ومن أشهر الصناع في تاريخ صناعة السيف الدمشقي «أسد الله» وهو واحد ممن سباهم الغزاة من دمشق، قد اشتهر في الصناعة نفسها في مطلع القرن السابع عشر أحد أحفاده أو تلاميذه وأصبح يمهر السيوف التي يصنعها بالعلامة نفسها التي كان يستخدمها ويضعها على نصل السيف، حيث أصبح اسم «أسد الله» كالعلامة التجارية.

تطور صناعة السيف الدمشقي

ليس من السهل تحديد مدة انتقال السيف الدمشقي من شكل لآخر وحصر العناصر التي خضعت للتغيير في بنيته وكذلك تنوع طرق وتقنيات إنتاجه ، وقد كانت الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر للقرن السابع عشر فترة انتقال الصنعة من دمشق للعالم. فبعد أن كانت طريقة صناعته سرا مغلقا على الصناع الدمشقيين انتقل وظهرت سيوف مشابهة له، فظهر السيف الرشيق «قليج» (وتعني قاطع الشجر) عند المماليك، ثم ظهر لدى الأتراك في شكل ممسوخ أقل طولا وأكبر عرضا وأسمك نصلا وسمي «باك». أما في فارس في عهد عباس الثاني فأصبح السيف أكثر بساطة، ذا سطح أملس وأصبح وزنه وعرضه أقل وسمي «شمشير». ولما لم تكن هناك دراسات تصنيفية دقيقة بشأن أنواع السيوف، فقد كان من الصعب الاعتماد كليا على التصنيف الارتجالي الذي وضعه التجار الذين كان همهم الأول ترويج بضائعهم. وترسم المؤلفات التاريخية للسيف الدمشقي صورة أسطورية لا تخلو من المبالغة، فيتحدثون عن مزايا وأسرار، لكن ما يمكن الاطمئنان إلى صحته أن عمال



المرحلة الأخيرة من صناعة السيف الدمشقي

دمشق كانوا يتقنون صناعة السيوف أكثر من صناع المدن التي كانت تنافسهم رغم كثرتها في الشام وخارجها، كما أن الدمشقيين شأن غيرهم استوردوا الحديد من الأماكن التي اشتهرت بتعدينه، وقد عثر على عملات نقدية عربية قديمة في السويد وهو ما اعتبره بعض المؤرخين قرينة على أن العرب استوردوا خام الحديد من السويد التي اشتهرت به واستخدموه في صناعة السيوف.

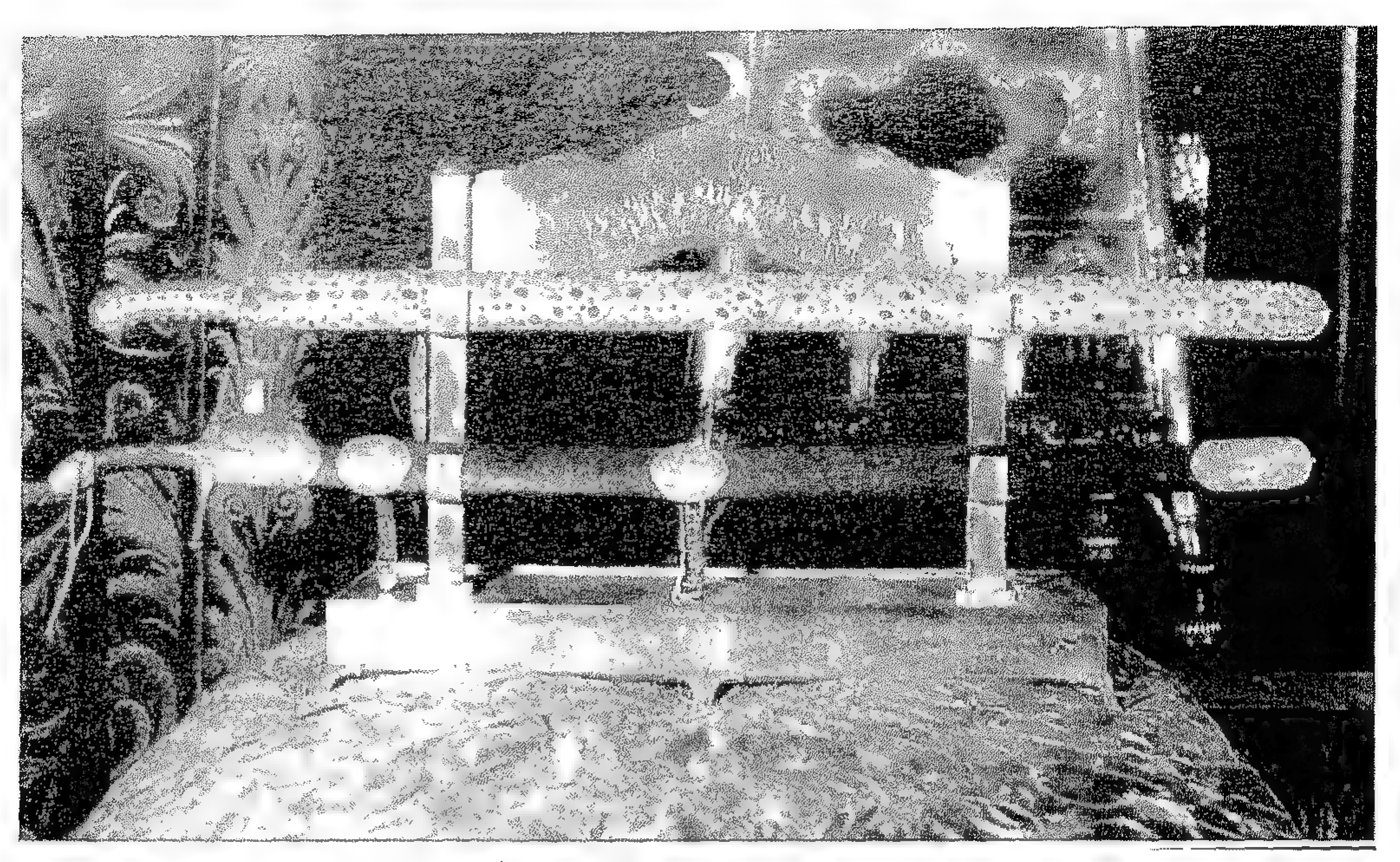
وقد اشتهرت طريقة الصنع التي اتبعها الصناع الدمشقيون فعرفت في العالم باسم «الدمشقة»، وظلت حتى القرون الوسطى سرا، ويصفها أحد الصناع الدمشقيين فيقول: «كان السيف الدمشقي أو الفولاذ الدمشقي بصورة عامة يصنع عن طريق دمج قطع من الحديد بعد تحميتها في بوتقة حتى تصبح لينة قليلا، ثم تضاف إليها مواد عضوية (قش الأرز - الخشب - أوراق خضراء) والفولاذ الذي نحصل عليه هو الفولاذ الدمشقي الهندي، ويصنع في الغالب أيضا بواسطة قضبان من الفولاذ ذات صلابة مختلفة، وذلك بسبب طبيعتها المختلفة التفحم، ثم تعقد هذه القضبان بصورة متساوية ثم تلحم مع الاستمرار في العقد والطرق مع ثني جميع هذه القضبان على بعضها. وعندها لا يبقى إلا صقل هذه السبيكة الناتجة لكي يقدم لنا هذا السطح مظهرا متموجا». وقد حاول الجنرال الروسي أنوسوف أن يدمشق السيوف الروسية وقام بتجارب لسنوات حتى اكتشف «سر الدمشقة» عام ١٨٣٧م. ولم تكن أبحاث هذا الجنرال الوحيدة في روسيا بل ظهرت دراسات علمية مثل «وصف طريقة للحصول بواسطتها على نوع من فولاذ السيوف الشرقية المدمشقة)، ونمت في روسيا صناعة سيوف مدمشقة في روسيا.

سيوف في ذاكرة التاريخ

وكان لبعض السيوف في التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده مكانة منحتها شهرة مدوية وانتقلت أوصافها بدقة، ومن هذه السيوف التي اشتهرت في الجاهلية «صمصامة» عمرو بن معدي كرب الزبيدي وضرب به المثل في كرم الجوهر وحسن المخبر والمضاء، وقد أهداه عمرو بن معدي كرب بعد إسلامه إلى خالد بن العاص عامل الرسول صلى الله عليه وسلم على اليمن، وظلت أسرته تتوارثه حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمبلغ كبير، ولم يزل عند بني مروان حتى زالت الدولة الأموية، فبحث عنه الخلفاء العباسيون (السفاح والمنصور والمهدي) ولم يجدوه ووجده الخليفة الهادي فاشتراه ثم أهداه للشاعر أبي الهول الحميري.

واهتم مؤرخو السيرة بأشهر السيوف في تاريخ الإسلام فذكروا سيوف الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي فصل عنوانه «ذكر سلاحه وأثاثه صلى الله عليه وسلم» في كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» قال الإمام ابن قيم الجوزية: «كان له تسعة أسياف: «مأثور» وهو أول سيف ملكه ورثه من أبيه، و«العضب»، و«ذو الفقار» بكسر الفاء وفتح القاف، وكان لا يكاد يفارقه، وكانت قائمته وقبيعته وحلقته وذؤابته وبكراته ونعله من فضة. و«القلعي»، و«البتار»، و«الحتف»، و«الرسوب»، و«المخذم»، و«القضيب»، وكان نعل سيفه فضة، وما بين ذلك حلق فضة. وكان سيفه ذو الفقار تنفله يوم بدر».

وللسيف المسمى «ذو الفقار» شهرة مدوية في التاريخ الإسلامي، وقد سمي بهذا الاسم لأنه مصنوع على شكل الفقرات التي في ظهر الإنسان، وعدد فقرات هذا السيف ثماني عشرة فقرة. وقد وصفه الأصمعي وصف مشاهده، فقال: «رأيت الرشيد بطوس متقلدا سيفا فقال: يا أصمعي ألا أريك ذا الفقار؟ قلت: بلى جعلني الله فداءك. فقال: استل سيفي هذا فاستللته فرأيت فيه ثماني عشرة فقارة. وكان ذو الفقار لأحد مشركي قريش واسمه منبه ابن الحجاج، وقد قتله علي بن أبي طالب وأخذ منه السيف، وعندما رآه الرسول في الغنائم أعجب به لكنه أهداه بعد ذلك لعلي ابن أبي طالب. وقد بقي ذو الفقار مع علي حتى استشهد فتوارثه أبناؤه وأحفاده من بعده إلى أن قام أحدهم واسمه محمد بن عبد الله ليحارب جيش أبي جعفر المنصور، وجرح في المعركة. فلما أحس دنو أجله أعطى السيف لتاجر كان له دين عليه مقداره أربعمائة درهم وقال له: «خذ هذا السيف فإنك لا تلقى أحداً من آل أبي طالب إلا أخذه منك وأعطاك حقك»، فاحتفظ به التاجر لنفسه، لكن حفيدا آخر من أحفاد علي بن أبي طالب اسمه جعفر بن سليمان سمع به فاشتراه منه بعد جهد شديد. ولما استخلف المهدي سمع بالسيف فأخذه من جعفر حياء، ثم انتقل من المهدي للهادي ثم هارون الرشيد حيث رآه معه الأصمعي ووصفه كما مر. وقد أصبح هذا السيف مضرب المثل فقيل: «لا



سيفان من سيوف النبي صلى الله عليه وسلم "مأثور" و"القلعي"

سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي».

وفي فترات تالية من التاريخ الإسلامي ظهرت السيوف التي تصنع كتحفة فنية وبعضها بقي حتى الآن ووصل لقاعات المتاحف العالمية، ومن سيوف العهد الأموي لم يصل للمتاحف إلا عدد يسير جدا من السيوف معظمها ضمن مقتنيات متحف طوبقابو باستنبول:

١ – سيف ينسب لمعاوية بن أبي سفيان.

٢ – سيف مؤرخ في عام ١٠٠هـ منقوش عليه اسم مالكه وصانعه لكن النقش غير مقروء.

٣ – سيف منقوش عليه اسم الصحابي الجليل سعد بن عبادة مع كتابات دمشقية أخرى متأخرة.

٤ – سيف ذو مقبض مذهب وواقية حديدية منقوش عليه تاريخ عام ١٠٥ هـ مع اسم هشام بن عبد الملك.

٥ – سيف عليه نقوش متتابعة لأسماء: عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد والسلطان قايتباي.

على أن نسبة هذه السيوف لأصحابها ليس أمراً مقطوعا بصحته من الناحية التاريخية، ذلك أن فئة من المشتغلين بالفنون الإسلامية يعتقدون أن بعض هذه السيوف حديثة إلى حد ما، وأن طراز الكتابة والنقش عليها تمت إضافته لتزيد قيمتها.

وفي العصر العباسي نجد في خزانة الأمين عندما تولى الخلافة عشرة آلاف سيف محلاة بالذهب، ولم يصل للمتاحف من سيوف العصر العباسي إلا سيف مستقيم النصل له واقية من الحديد ومقبض من الذهب. وبشكل عام تعد المعلومات المتوفرة عن السيوف المزينة قليلة في المراجع التاريخية حتى العصر المملوكي، ففي الدولة الطولونية نجد معلومات عن استخدام المعادن النفيسة في تزيين السيوف وتجميلها، وكانت المقابض تصنع من الذهب والفضة.

وفي الفترة الفاطمية يذكر المقريزي أن جوهر الصقلي قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي قدم له هدايا ثمينة عند قدومه مصر بينها مائة سيف محلاة بالذهب والفضة. واحتفظ لنا مؤلف مجهول بصورة مفصلة إلى حد ما عن تزيين الأسلحة في الدولة الفاطمية في رسالة عنوانها: «كتاب الذخائر والتحف»، ويروي فيها أن بعض المارقين استطاعوا عام ١٠٦٧م الوصول لخزانة ترجع لعصر العزيز بالله الفاطمي فوجدوا فيها الكثير من السيوف «المجوهرة النصول». ويقال: إن خزانة السلاح الفاطمية ضمت سيوفا ذات شهرة تاريخية مثل: صمصامة عمرو بن معدي كرب وسيف عبد الله بن وهب الراسبي وسيف كافور الأخشيدي وسيف المعز لدين الله الفاطمي وسيف أبيه وسيف الحسن بن علي بن أبي طالب، والكثير من السيوف المحلاة بالذهب.

زخرفة السيف حتى العثمانيين

وكما احتل السيف الدمشقي مكانة خاصة في تاريخ السيف العربي كأداة قتال، احتل مكانة لا تقل عنها كتحفة فنية واحتفظت لنا المراجع التاريخية بمعلومات فنية وافية عن عملية تزيين السيوف الدمشقية، فبعد الصنع كان يهيأ للزخرفة بحيث ترسم عليه زخارف ذات أشكال هندسية وآيات قرآنية أو أشعار وحكم ورسوم أخرى. وتنفذ هذه الرسوم بطرق متعددة منها التزميت أو التكفيت أو التنزيل، ومنها ما يتمثل في حفر الرسوم المطلوبة على سطح المعدن ثم ملء الشقوق الناتجة بأسلاك ذهبية أو فضية على أن تكون أغلى من معدن النصل ومختلفة عنه في اللون. يتم سحبها بعناية ودقة بالغتين، إضافة إلى ما قد يستعمل من حجارة ثمينة كالياقوت وما شابهه. ثم تطرق الخيوط المنزلة بمطارق دقيقة خاصة لهذا الغرض لتثبت في أخاديدها. ثم يصقل السلاح بحجر خاص لإماتة الأخاديد على سطح القطعة وللمساعدة على التمام الخيوط جنبا إلى جنب فتصبح كأنها مصوغة قطعة واحدة، وأحيانا تعاد القطعة إلى نار الكور لتقوم بصهرها، ثم ينظف السلاح بالأحماض ويدهن بمادة لتثبيت اللون الداكن على السلاح وحفظه من الصدأ فترة طويلة.

ويعد العهد المملوكي الأزهى في التاريخ الإسلامي في صناعة التحف عموما، وبينها السيوف، ورغم ذلك لم يصل إلينا إلا مجموعة ضئيلة من سيوف سلاطينها وأمرائها، وما وصل إلينا يغلب عليه الطابع الإيراني. وقد ضاع الجانب الأكبر من التراث الفني لصناعة السيوف في العهد المملوكي في حادثين:

الأول استيلاء تيمور لنك على دمشق عام ١٤٠٠م حيث نهبها وأحرقها.

الثاني عامي ١٥١٦-١٥١٧م عندما احتل العثمانيون الشام فحملوا كنوزها إلى استنبول.

يضاف إلى ما سبق أن المماليك اعتادوا تقسيم كل ما يتركه السلطان أو الأمير الذي يتوفى بعد عام من وفاته ما كان يعني توزيع مقتنياته من التحف.

ولعل أجمل صفحات صناعة السيوف المزينة هي الفترة العثمانية، إذ تفنن العثمانيون في صنعها وزخرفتها على نحو غير مسبوق، وتشهد على ذلك مقتنيات المتاحف الأوروبية مما غنمه الأوروبيون في حروبهم مع العثمانيين. ويغلب على الظن أن هذه السيوف لم تكن تصنع أداة حرب بل ليحملها أصحابها في البلاط العثماني في المناسبات العامة، فزخارفها الكثيرة وأحجارها الكريمة والتأنق الفائق في صنعها يحمل على ترجيح أنها صنعت للزينة أساساً. وأهم السيوف العثمانية المزينة وأقدمها سيف السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) وهو مصنوع من الصلب ويزدان بزخارف نباتية جميلة وكتابات عربية منزلة بالذهب، وهو من أجمل معروضات متحف طوبقابو.

وفي الأندلس كان سلاطين غرناطة يهدون السيوف للملوك المسيحيين كهدية تليق بأن يتبادلها الملوك، ومن السيوف التي تبودلت بين الطرفين سيف مقبضه مكسو بصفائح الذهب ومرصع بالزمرد والياقوت والعقيق، وقد أهدى أبو الحجاج يوسف عام ١٤٠٩م سيوفا من الفضة الخالصة إلى دون خوان الثاني. وينسب لآخر ملوك غرناطة أبي عبد الله سيف محفوظ في متحف الجيش الإسباني هو أروع السيوف الإسلامية على الإطلاق، ولعله مما انتزعه الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا عندما سقطت غرناطة. وهذا السيف تحفة فريدة في تاريخ صناعة التحف الغرناطية، فمقبضه من العاج تكسوه زخارف دقيقة، ويزدان غمده بتوريقات وكتابات منها البسملة وآيات قرآنية. وفي متحف الجيش الإسباني كذلك عدة سيوف مقابضها من العاج وأغمادها من الفضة والنحاس مغطاة بتوريقات رائعة وكتابات.

وربما كان من بقايا الفن العربي الإسلامي الراقي في تزيين السيوف ما اعتاد عليه فرسان قبائل الطوارق المعروفة في أفريقيا إذ يتحلى رجالها غالبا بخنجر أو سيف، هم يصنعون مقابضها من عاج الفيل أو قرن وحيد القرن ويتفننون في تزيينها، أما غلاف السيف فقد يرصع بالذهب والفضة والأحجار الكريمة وينحت عليه اسم مالكه.

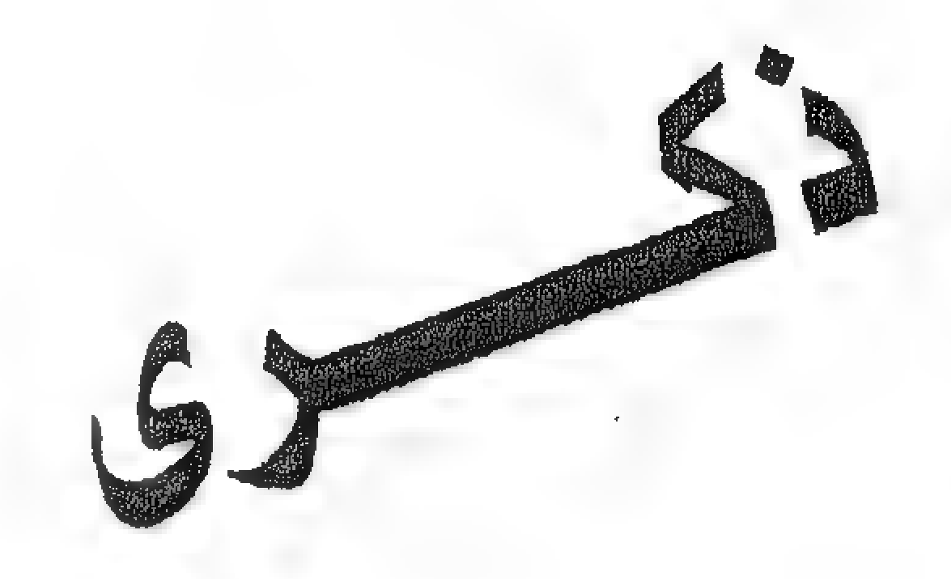
وهكذا يمكن أن يعيش التاريخ خارج جدران المتاحف! ■

* «تراث» تعتذر عن عدم نشر الهوامش لضيق المساحة.

فيض المشاعر



إشراف:
محمد إبراهيم الحديدي
m_alhadidi@hotmail.com



ذكرى

قصـــرٍ مُـــعـــوّد بــــالخرابـــي ... كـــل مــن بــنــاه الــدَّهــر هــدِّم

آزم عــــلــــى روس الـــروابـــي ... وان جـــاد فـــيــــه الحظ مَـــازَم

تـــرتـــاد غـــزلان الشـــبـــابـــي ... في فَـــيّ ظـــلّـــه حين مَـــا تَـــم

هـــذاك حـــال المســـتـــصـــابـــي ... إن كـــان مـــعـــنـــى الجيـل تـفـهـم

أنـــــا الـــــذي طـــال اغترابـــي ... عـــن وصــلــهــم وافـضـابـي الـهـم

نـــاسٍ تـــعـــزّوا عـــن جـــوابـــي ... لي مـــن هـــجـــرهـــم حـــالي إنْـــسَـــم

أخـــلا لـــهـــم فـــســـح الـــرحـــابـــي ... قـــفّـــوا وخـــلّـــوني مـــتـــيَّـــم

لي مـــــن ذكـــرت امّـــا جـــرابـــي ... يـــا حـــيـــف يـــوم الشـــمـــل مـلْـتـم

لي جـــدّم الحـــســـنـــى ثـــنـــابـــي ... هَـــــلّ اعبراتـــــه وامـــــتـــــزج دَمّ

عـــلـــيـك يـــا غـض الجنـــابـــي ... يـــلّـــي عـــلـــى طـــول الـــدَّهـــر شَـــمّ

■ شعر/ أحمد بن سلطان بن سليّم

طيور الأماني

قصيدة لأحمد رامي

(١)

اشتهر أحمد رامي بثلاثة أمور في عالم الأدب والإبداع، نظم الشعر الفصيح، ونظم الزجل (المنظوم باللهجة الدارجة) وترجمة الشعر غير العربي، ونقله إلى العربية منظوماً.

بدأ رامي شاعراً بالفصحى، وطبع ديوانه أول مرة سنة ١٩١٨م، وفي غيابه في باريس غنت له أم كلثوم قطعة من شعره، وكان التغني بشعره منها سبباً في نظمه بالدارجة، حتى صار واحداً من ناظمي الأغاني المعدودين.

وفي كلمة للشاعر الأديب صالح جودة تصنيف لألوان شعره وأنها ثلاثة:

- الشعر الوجداني.
- الشعر العاطفي.
- الشعر الوطني

وكان أول نظم دونه أحمد رامي لنفسه من الشعر الوطني، ثم اشتهر بأشعاره الوجدانية والعاطفية، ولكثرة ما نشر من شعر في مجلة الشباب اشتهر رامي بـ (شاعر الشباب)، ولازمه اللقب في سائر مراحل حياته.

وقد ترجم رامي نحو خمس عشرة مسرحية قدمها للمسرح المصري في حينه وترجم رباعيات الخيام ترجمة حسنة، وأرى أن ترجمته هي أقرب الترجمات إلى روح الشعر، وقد أضفى عليها من بيانه ووجدانه.

(٢)

عنون أحمد رامي لقصيدته المختاره هذه بالعنوان المذكور «طيور الأماني» وهي من شعره الوجداني، وهي تدل على هذا الجانب من شعره، كما تعبر عن نمط واضح من آرائه ومواقفه.

وقد بدأ رامي قصيدته ببيت فيه عبارة (طيور الأماني) وختمها ببيت فيه العبارة نفسها، فقد حَبَك القصيدة ما بين أولها وآخرها بالعبارة التي دارت حولها أبياتها.

وإذا كانت الحياة كما يستقرئها الإنسان المفكر بين صعود وهبوط وبين نجاح وإخفاق، وبين إقبال وإدبار، فإن الشاعر يوجه نفسه وسامع شعره وقارئه إلى تغليب الوجه المشرق، والملمح المتفائل، والنظرة الإيجابية، واستفاد مما هو شائع في تراث الشعر العربي فإن الشعراء قد يصفون أصوات الطيور بما يدل على الحزن، ويصفونها أيضا بما يأتلف مع الفرح، كل واحد منهم بحسب حاله، ومشاعره عند النظم، وقد قال المعري:

أبَكَتْ تلكُمُ الحَمامةُ أمْ غَنْـ..
..ـتْ على فَرْعِ غُصْنِهَا المَيّاد؟

فقال رامي يخاطب طيور الأماني

فارفعي الصوّت بالغناء قليلاً
بَدّلَ النوح يا طيور الأماني!

واختار رامي لقصيدته حرف النون روياً مع الكسرة التي تسمح بمد النفس واستخراج المخبأ، ووزن بحر الخفيف المنسجم كثيراً مع الموضوعات الذاتية والوجدانية.

ولاحظت لجوء الشاعر إلى بحر الخفيف ظاهراً بارزاً.

(٣)

عمّر أحمد رامي عمراً مديداً، فإنه ولد سنة ١٨٩٢ وتوفي ١٩٨١ في مدينة القاهرة، وقد كرّم من جهات عديدة، ونال أكثر من جائزة

طيور الأماني *

هتَفتْ في الدُّجَا طيورُ الأماني ... باكياتٍ على النَّعيْم الفَاني
حائراتِ العيُونِ رفّافةَ الأجْنُح ... مطرودةً عن الأكَنان [1]
كُلّما أوشكتْ تقاربُ غُصْناً ... ذَادها حاصِبٌ عن الأفْنان [2]
أو أسفَّتْ تريدُ نقع ظماها ... حلأّتها الأيدي عن الغُدْران [3]
فهي - العمر- حائمات ترى الأثّـ ... ـمارَ والماءَ نائياتٍ دَوانِ [4]
ولو أنَّ الرّياضَ خِلْوٌ لَعزّتْ ... نَفْسها بالقنوط والسُّلوانِ
غير أنّ الغصونَ ناضجة الأثـ ... ـمارِ والنّهرُ طافحُ الفيضانِ
هكذا نحنُ في الحياةِ نريد الصّـ ... ـفوَ فيها والصَّفْوُ نائي المَجَانِي [5]
ونريدُ النّعيمَ فيها ومِنْ دو ... نِ مُنانا سدٌّ من الحِرْمانِ
ونشيدُ البِنَا من الأمَلِ السّا ... مي وفأس الزمان في الجُدْرَانِ
ونَبُتّ البذورَ في الأرض والدّهْـ ... ـرُ ضنينٌ بالعارضِ الهتّانِ [6]
ومن الزّرْعِ باسقٌ جفّت الأثـ ... ـمارُ فيهِ وما جَنَتُهُ يَدانِ
ومن الماءِ دافقٌ جَفّ فوقَ الـ ... أرْضِ ما مَسَّ قطْرَهُ شَفتانِ
لو نظرنا إلى الحياةِ بعين الـ ... ـحَقّ راحَتْ بالكُرْهِ والشّنآنِ [7]
غيرَ أنّا نعيش فيها بآما ... لٍ تُسَرّي لواعَج الأشجانِ [8]
وإذا أخطأتْ ظنونٌ فيارُبّ ... ظنونٍ تريحُ قلب العَانِي [9]
فلنعش بالمُنى فكم صَدَعَ البَدْ ... رُ حجابَ السَّحابةِ المِدْجانِ [10]
ولنعِش بالمُنى فكم جرَت الأقْـ ... ـدارُ بالعزّ بعدَ طول الهَوانِ

(١) الأكنان جمع كن وكنان: كل ما يرد الحر والبرد من الأبنية والغيران (جمع غار) وما شابه. وأراد به بيوت الطيور: من عش وكن ووكر.

(٢) ذادها: منعها. الأفنان جمع فن: غصن. الحاصب: اسم فاعل من حصب (رمى بالحصا) والحاصب: الريح الشديدة، والسحاب يرمي بالبرد والثلج.

(٣) حلأه عن الشيء: منعه. والغدران جمع الغدير من الماء.

(٤) نائيات من (نأى) ودوان من (دنا: اقترب).

(٥) المجاني جمع المجني من (جنى). يقول: نريد الصفو، وهو بعيد المنال.

(٦) العارض: السحاب المطر. والهتان: الغزير الانسكاب. وضنين: بخيل.

(٧) الشنآن: البغض والكراهية.

(٨) لواعج جمع اللاعج: الهوى المحرق، وتسري: تسلّي، وتذهب.

(٩) العاني: الأسير.

(١٠) المدجان مبالغة من دجى السحاب وأدجى: دام مطره (طويلاً).

(*) ديوان أحمد رامي: ١٥-١٦.

النبطي الفصيح

هذه الصفحات تقف على الشعر النبطي ثم تغوص في أعماقه لالتقاط كلمات يظنها البعض عامية غير عربية لكثرة ما وجدوها في الشعر النبطي غير الفصيح أو لبعدهم وبعدنا عن الفصاحة وأساليبها وألفاظها، أو لأن بعض تلك الألفاظ مع فصاحتها ما عادت مستخدمة في الفصحى لكنها بقيت مما بقي من الفصاحة في لغتنا اليومية وأشعارنا غير الفصيحة.

ونحن هنا نقتفي آثار تلك الألفاظ في الشعر النبطي ونردها إلى أصلها الفصيح ولنا من ذلك فوائد عدة:

الأولى قراءة الكثير من الشعر النبطي ومعاودة مطالعته.

والثانية الغوص في قواميس العربية للبحث عن أصول تلك الألفاظ المتناثرة في الشعر النبطي.

والثالثة مطالعة الشعر العربي للبحث عن تلك الألفاظ في أدبنا العربي.

والرابعة إثبات أن العامية والشعر النبطي عربي لا ينفك عن أصله العربي.

والخامسة إعادة الفرع إلى أصله برد الألفاظ النبطية إلى أصلها العربي.

والسادسة تحقيق أمنية بعودتنا إلى لغتنا الفصحى وأدبنا العربي عن طريق البحث في الشعر النبطي عن الفصحى من ألفاظه.



■ سالم الزمر

salzomr@hotmail.com

والسابعة العمل على دراسة شعرنا النبطي دراسة لغوية مفيدة.

والثامنة ربط الأجيال القادمة بتراثنا الشعري النبطي بطريق بحث أدبي يحمل الطرافة والجهد العلمي معاً لإيصال ذلك التراث إلى الأجيال القادمة بجهد موثق موثوق به.

وأخيراً أقول لو شئنا أن نعدد الفوائد من ذلك لما انتهينا، لكنني أقف هنا للبحث وراء النبطي الفصيح في شعرنا النبطي.

هضيم

قال شاعرنا خلفان بن يدعوه في قصيدته الشهيرة التي مطلعها

واحسرتي ضاق الفضا بي
يوم ابعدوا بي عن حبيبي

قال في آخرها:

ريان من فرط الشباب
مع ذا وله شيٍ عجيبي
خصرٍ هضيم وكشح نابي
والعُود كالغصن الرطيبي

وقوله خصر هضيم أي خصر ناحل لا كرش له جاء في ذات المعنى في لسان العرب.

ورجلٌ أَهْضَمُ الكَشْحَيْنِ أي مُنْضَمُّهُما. والهَضَمُ: خَمَصُ البطون ولُطْفُ الكَشْحِ. والهَضَمُ في الإنسان: قلة انجفار الجَنْبَين ولطافَتُهما، ورجل أَهْضَمُ بيِّن الهَضَم وامرأة هَضْماءُ وهضيم، وكذلك بطنٌ هَضيمٌ ومهضوم وأهضم؛ قال طرفة:

ولا خَيرَ فيه غيرَ أنَّ له غِنىً
وأن له كَشْحاً، إذا قامَ، أَهْضَما

هزف

قالت الشاعرة شيخة بنت حمد

يابن علي لا تصور شمّات
وتكدّر قلوبٍ مهازيف
اسمع جوابك هوب ثبّات
عند الاجانب والمعاريف

وقولها مهازيف أي قلوب فيها خفة وضعف وهي فصيحة لها ذات المعنى.

جاء في اللسان: هَزَفته الريح تَهْزِفُه هَزفاً. اسْتَخَفَّه

زيغة

قال شاعرنا راشد الخضر:

صاد قلبي الود باصداغه
ماليه عن قبضته زيغه
ماشدق الثوب والياغه
غير لي في مهجته ديغه

وقوله ماليه أي ليس لي عن قبضته أي الامساك به زيغه يعني هروب اوميل

وزيغة كلمة تعني في الفصحى ذات المعنى وقد استخدمها الخضر هنا تماماً كما هي في أصلها الفصيح وإن كان أهل الإمارات يستخدمونها في معنى الخوف فيقولون فلان يزيغ أي يخاف وهو معنى أيضا مأخوذ من الفصحى لأن الذي يخاف يزيغ ايميل ليهرب، وجاء ذلك في اللسان:

الزَيغ: الميل، زاغَ يزيغُ زيغاً وزيغاناً وزيُوّغاً وزيْغوغة وأزَغْتُه أنا إزاغة، وهو زائغ من قوم زاغة: مالَ.

وقومٌ زاغة عن الشيء أي زائغون. وقوله تعالى: (ربنا لا تُزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا) أي لا تُملنا عن الهدى والقصد ولا تضلنا، وقيل: لا تُزغ قلوبنا لا تتعبدنا بما يكون سبباً لزيغ قلوبنا، والواو لغة. وفي حديث الدعاء: اللهم لا تزغ قلبي أي لا تميله عن الإيمان. يقال: زاغ عن الطريق يزيغ إذا عدل عنه. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: أخاف إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ أي أجور وأعدل عن الحق، وحديث عائشة: وإذ زاغت الأبصار أي مالت عن مكانها كما يعرض للإنسان عند الخوف. وأزاغه عن الطريق أي أماله. وزاغت الشمس تزيغ زيوغاً، فهي زائغة: مالت وزاغت، وكذلك إذا فاء الفيء، قال الله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. وزاغ البصر أي كَلّ.

والتزايغ: التمايل، وخص بعضهم به التماثيل في الأسنان. أبو سعيد: زيغت فلاناً تزييغاً إذا أقمت زيغه، قال: وهو مثل قولهم تظلَّم فلان من فلان فظلمه تظليماً.

يحّاد

جاء في قصيدة للشيخ سلطان بن زايد آل نهيان من الحكام الأوائل لإمارة أبوظبي

يزوروني من غير ميعاد
ويخالف أقوال الجلّه
ماهوب للمعروف يّحاد
غير عسى الخاين فدىً له
لو يطلب الدنيا له تُقاد
بمّا عليها في رضاً له

وقوله في البيت الثاني يحاد أي جحاد بعد قلب الجيم ياء حسب اللهجة وهي من الجحود فصيحة لا محالة جاء في اللسان:

الجحد والجحود: نقيض الإقرار كالإنكار والمعرفة، جحده يجحد جحداً وجحودا.

الجوهري: الجحود الإنكار مع العلم، جحده حقه وبحقه. والجَحْدُ والجُحْدُ، بالضم، والجحود: قلة الخير.

منضوح

جاء في قصيدة للشاعر علي بن قمبر

قفّا وخلّى الدمع منضوح
على بهار الخد ساجي
وامسى حليف رمول وُسيوح
في حال بشّه واندراجي

يعني أن محبوبه تركه دامع العين وذهب مبتهجا لاهيا وقوله في البيت الأول منضوح يعني فائضا على خده وهي كلمة فصيحة لاشك فلقد جاء في اللسان:

النضح: الرش

نضح عليه الماء ينضحه نضحاً إذا ضربه بشيء فأصابه منه رشاش. ونضح عليه الماء: ارتش. وفي حديث قتادة: النضح من النضح؛ يريد من أصابه نضح من البول وهو الشيء اليسير منه فعليه أني نضحه بالماء وليس عليه غسله؛ قال الزمخشري: هو أن يصيبه من البول رشاش كرؤوس الإبر، وقال الأصمعي: نضحت عليه الماء نضحاً وأصابه نضح من كذا. وقال ابن الأعرابي: النضح ما كان على اعتماد وهو ما نضحته بيدك معتمدا، والناقة تنضح ببولها.

والنضح: ما كان على غير اعتماد، وقيل: هما لغتان

بمعنى واحد، وكله رش. والقربة تنضح من غير اعتماد.. فوطئ على ماء فنضح عليه وهو لا يريد ذلك؛ ومنه نضح البول في حديث إبراهيم: زنه لم يكن يرى بنضح البول بأساً.

وحكى الأزهري عن الليث: النضح كالنضخ ربما اتفقا وربما اختلفا. ويقولون: النضح ما بقي له من أثر كقولك على ثوبه نضح دم، والعين تنضح بالماء نضحاً إذا رأيتها تفور، وكذلك تنضخ العين.

البور

جاء في قصيدة لعلي بن قمبر

تــركت درب الــــود يــــا احْــمَــــد
واحصـنـت نـفـسـي عـن هـوى الـبـور
والــيــوم لا شـــاهــد ولا اشْـــهــد
واصـــور كــــنّــي شـــاهـــد الـــزور
عــلــيك حــفــظ الــلّــه الاجــود
كـــانك نـــويت بصـــد وهُـــجـــور

وقوله في أول بيت هنا احصنت نفسي عن هوى البور أي حفظت نفسي عن محبة الفاسد الذي لا خير فيه ولقد جاء في العربية ذات المعنى، فكلمة بور عربية فصيحة لها ذلك المعنى وغير، فلقد جاء في لسان العرب:

البورُ الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. وقد بارَ فلان أي هلك. وأباره الله: أهلكه. وفي الحديث: فألئك قوم بور، أي هلكى، جمع بائر، ومنه حديث علي: لو عرفناه أبرنا عترته، وقد ذكرناه في فصل الهمزة في أبر. وفي حديث أسماء في ثقيف: كداب ومبير، أي مهلك يسرف في إهلاك الناس، يقال: بار الرجل يبور بوراً، وأبار غيره، فهو مبير. ودار البوار.

قُـتِـلَـتْ فـكـان تَـبـاغـيـاً وتَـظـالُـماً
إنَّ الــتَّــظــالُــمَ في الـصَّـدِيـقِ بَـوارُ

والبور: الأرض التي لم تزرع والمعامي المجهولة والأغفال ونحوها، وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومة: ولكم البور والمعامي وأغفال الأرض، وهو بالفتح مصدر وصف به، ويروي بالضم، وهو جمع البوار، وهي الأرض الخراب التي لم تزرع. وبار المتاع: كسد، وبار عمله: بطل. ومنه قوله تعالى: ومكر أولئك هو يبور. وبور الأرض، بالضم: ما بار منها ولم يعمر بالزرع وقال الزجاج: البائر في اللغة الفاسد الذي لا خير فيه، قال: وكذلك أرض بائرة متروكة من أن يزرع فيها، وقال أبو حنيفة: البور، بفتح الباء وسكون الواو، الأرض كلها قبل أن تستخرج حتى تصلح للزرع أو الغرس، والبور: الأرض التي لم تزرع، عن أبي عبيد وهو في الحديث.

ورجل حائر بائر: يكون من الكسل ويكن من الهلاك، وفي التهذيب: رجل حائر بائر، لا يتجه لشيء ضال تائه، وهو اتباع، والابتيار مثله. وفي حديث عمر: الرجال ثلاثة، فرجل حائر بائر إذا لم يتجه لشيء.

جاء في قصيدة لمحمد بن ثاني بن زنيد

مـــهــل يـــالــــطــــارش عســـى تجـزا
مـــــــن إلآهك خير واحســــــــان
قـــيس ســاعـــة واظــهـــر الــرمـــزا
مـــن خـــوافي لــبّـــت اجـــنــــاني
مـــثـــل طـــرزه مـــا يـــرى طـــرزا
كـــل مـــن ولّـــع بـــالافـــنـــان

وقوله في البيت الثالث مثل طرزه أي مثل شكله أو هيأته لا يرى له مثلاً أو شبيه وكلمة طرز عربية فصيحة الأصل لها ذات المعنى في الشعر النبطي، فلقد جاء في لسان العرب في هذا المعنى وغيره:

الطرز: البز والهيئة. والطرز: بيت إلى الطول، فارسي، وقيل: هو البيت الصيفي. قال الأزهري: أراه معرباً وأصله ترن.

والطراز: ماينسج من الثياب للسلطان، فارسي أيضاً. والطرز والطراز: الجيد من كل شيء. الليث: الطراز معروف هو الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجياد، وقيل: هو معرب وأصله التقدير المستوي بالفارسية، جعلت التاء طاء، وقد جاء في الشعر العربي، قال حسان بن ثابت الأنصاري يمدح قوماً:

بـيضُ الـوُجُـوه كَـرِيمَةٌ أَحْـسـابُـهـم
شُــمُّ الأُنُــوف مـــن الـــطِّـــرازِ الأَوَّلِ

تعقيب على موضوع الجزيرة الحمراء

بداية أود أن أشكر لكم جهودكم الملموسة في تطوير وإبراز تراث دولتنا الحبيبة، وأود أن أنوه لوجود أخطاء تاريخية في موضوع «الجزيرة الحمراء» للكاتبة مريم جمعة خلفان.

وأود أن أشكر ما أثارته الكاتبة من معلومات عن منطقة لها من التاريخ مئات السنين، حيث تجسدت الحياة السابقة للأجداد، غير أن اللافت للنظر اعتماد الكاتبة على رأي واحد عند الكلام عن أصل قبيلة الزعاب، والتي تعد من أكبر قبائل الإمارات حسب ما جاء في دليل الخليج للمستشرق الانجليزي لوريمر[١]. وأقول هذا الكلام بناء على الآتي:

أولا: جاء في صفحة ٢٧: «وهي من القبائل العربية الكريمة التي كانت تسكن في بند ريج على الساحل الشرقي من منطقة شمال الخليج، ثم جاءت واستوطنت هذه الجزيرة منذ تلك الفترة»، وأيضاً، «وتشير المصادر التاريخية إلى أنه منذ القدم هاجرت قبيلة (زعب) أو زعاب من الجزيرة العربية إلى بلدة (الريغ) في بر فارس، وقد هاجر جزء من هذه القبيلة من الريغ أو الريج وجاؤوا إلى ساحل الإمارات، وتوزعوا في عدة مناطق، واستوطنوا في منطقة (بو بقرة) في الباطنه – وأشارت الكاتبة هنا إلى كتاب مايلز «الخليج وبلدانه وقبائله»».

هذا الرأي جديد حيث لم يذكر مايلز من أين جاءت قبيلة زعاب، والوحيد الذي اجتهد هو السيد حميد الشامسي بسبب التباسه بنسب الأمير الثائر مهنا بن حمد بن ناصر، وهو رأي له معارضوه كما سوف نوضحه لاحقاً كالآتي:

«وقد ذكر السيد/ حميد بن سلطان الشامسي: إن وصول قبيلة زعاب إلى الساحل كان في القرن الثاني عشر الهجري، أيام وصول الدعوة الوهابية من نجد إلى عمان تحت قيادة مطلق المطيري – وأشارت الكاتبة هنا إلى حميد بن سلطان الشامسي، «نقل الأخبار في وفيات المشايخ وحوادث هذه الديار». وهذا الاستنتاج يجانبه الصواب ولكي نوضح ذلك سوف نسوق الدلائل على وجود القبيلة قبل قدوم مطلق المطيري في سنة ١٢٢٢هـ.

فالبنسبة لوجودها قبل قدوم مطلق المطيري تؤكده الأدلة التالية:

– وثائق الوجود البرتغالي حيث تؤكد تلك الوثائق وجود القبيلة على ساحل عمان، في عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربي حيث يقول أحد ولاته من عشيرة الصوارم وهي من قبيلة زعاب، وهو الشيخ محمد بن مسعود الصارمي: إن بلاده سمد الشأن[٢].

كذلك في زمان الإمام ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العرب، تم الاستيلاء على الصير أو جلفار من العجم والبرتغال حيث كان في الحملة خميس بن محزم الصارمي، وهو جد الشيخ محزم شيخ الزعاب في الجزيرة الحمراء، وهو ابن عم الشيخ مطر بن حمد في خور كلباء.

معركة خورفكان ومقتل قيس ابن الإمام مع سلطان بن صقر، حيث كان الزعاب من جماعة قيس ومن

الحزب الهنائي[٣] ١٨٠٨م تقريباً ١٢٢٩ هـ.

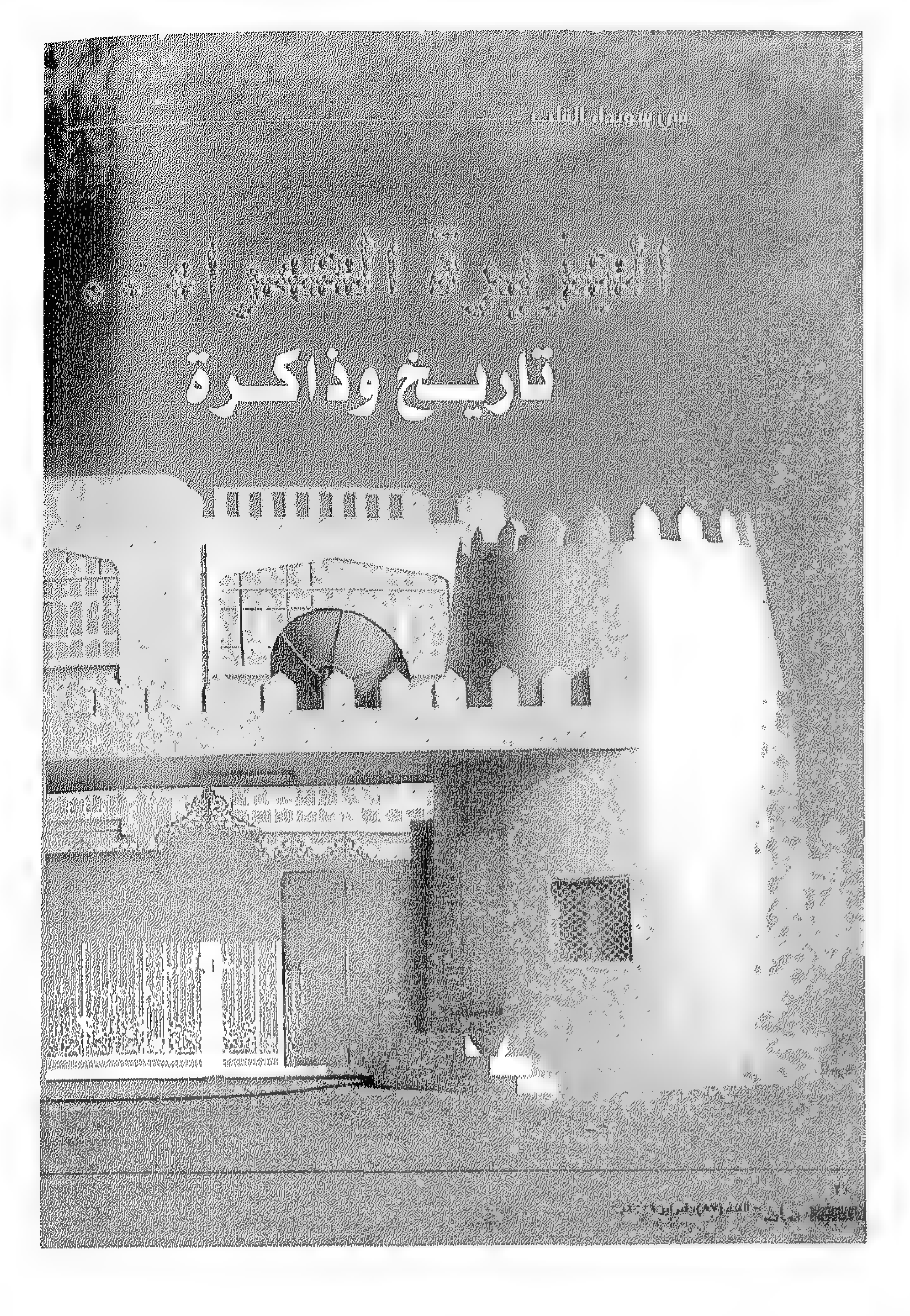
تصنيف الزعاب على أنهم هناوي سياسياً مسلمون سنة على المذهب الحنبلي (٤٥٠٠ نفر)، ولهم حدائق نخيل في قرية خت في سهل جري[٤]، يثبت بأنهم موجودون قبل وجود مطلق المطيري، حيث بدت الأحزاب تتكون عام ١١٣٥هـ، بينما جاء مطلق المطيري عام ١٢٢٢هـ، حيث تمثل القبائل الهناوية أصلها اليمني هذا ما حدا بأحد المؤرخين هو عبد الكريم الوائلي لأن يقول في كتابه عن قبيلة الزعاب: إحدى قبائل سلطنة عمان من قبائل عبد القيس من العدنانية، يقيمون في الشرقية في سمد الشان، ومنهم من يقيم في الإمارات[٥].

نشأ التحزب زمن يعرب بن بلعرب المتوفي سنة ١١٣٥ هـ فمنهم من تعصب إلى محمد بن ناصر الغافري وسموا الحزب الغافري، وهم القبائل النزارية، ومنهم من تحزب للحزب الهنائي نسبة لخلف بن مبارك المعروف بالقصير، وكان رحمة بن مطر صاحب الصير من الحزب الغافري والزعاب من الحزب الهنائي.

ثانيا: كثير من المؤرخين ذكروا أن الزعاب انطلقوا من برا من الجزيرة العربية إلى عمان وتفرقوا في المنطقة وفقا لانتمائهم الحزبي كالآتي:

- الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، كتاب «بني سليم»، مجلة المنهل. ص٧٦ قال ما نصه: «وصل بني سليم في استيطانهم إلى أقصى نقطة في شرق شبه الجزيرة العربية على الخليج العربي، واستقروا بمشيخة رأس الخيمة شمال أم القيوين وعلى مسافة ٨٠ كيلو متراً للشمال الشرقي من الشارقة، وهؤلاء السلميون المقيمون في مشيخة رأس الخيمة، هم من البقية الباقية في شبه الجزيرة، وهم يقيمون في قرية (جزيرة) زعاب، كما قدمناه، وسميت بهذا الاسم، نسبة إلى سكانها الذين ينتمون إلى (زعاب) من بني سليم، وتقع هذه القرية على مسافة (١٩) ك.م من رأس الخيمة. ويذكر أنها تتفق مع طبيعة أرضها الخصبة المتوافرة فيها المياه العذبة، مع طبيعة أرض بني سليم الأصلية من هذه الناحية.

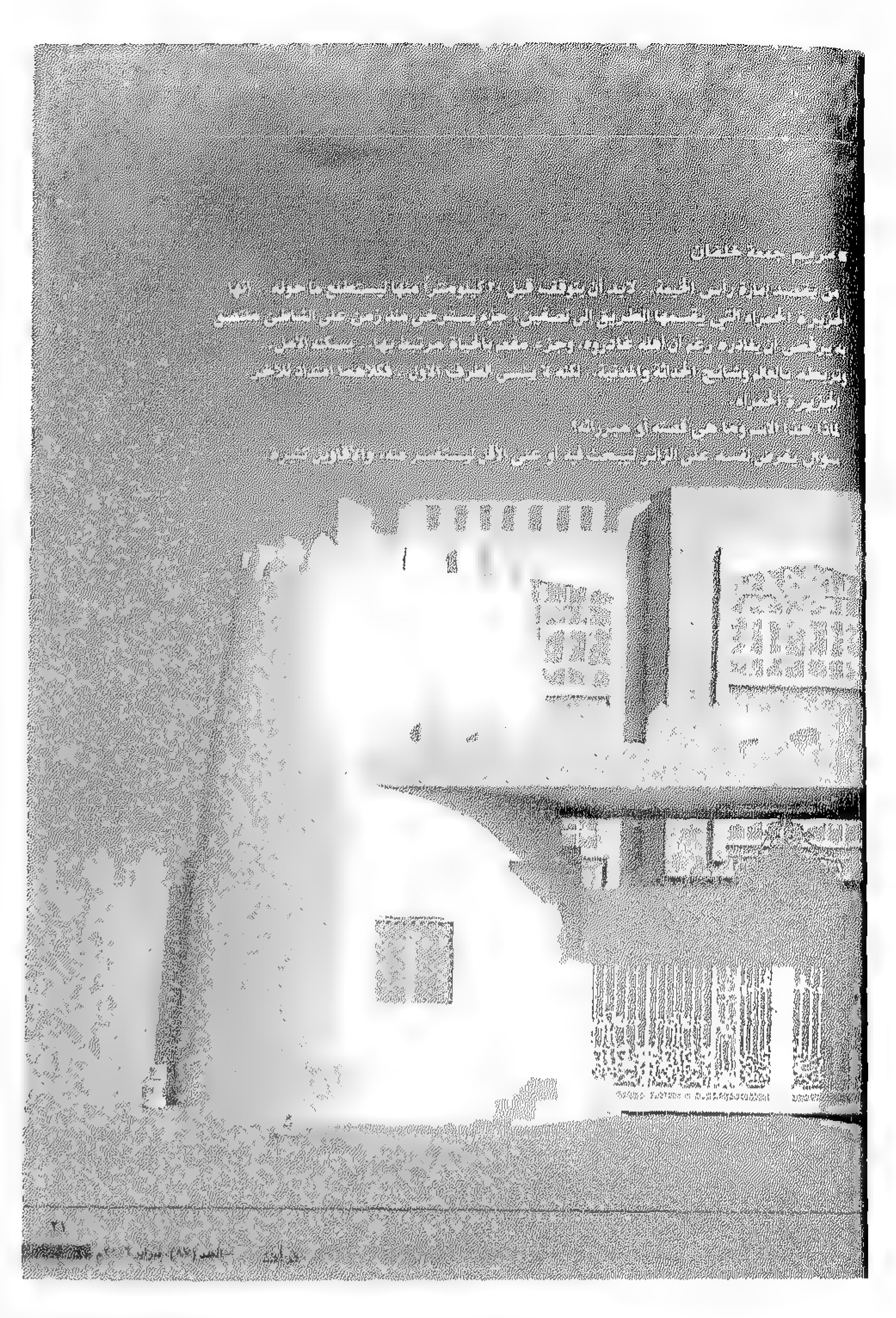
- ابن الكلبي المتوفى عام ٢٠٤هـ في كتابه، «جمرة النسب»، هم بنو الزعاب بن مرة بن عبيد بن سليمة بن مالك بن عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة ابن لكيز بن أفضي بن عبد القيس بن أفضي بن دعمي



ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

- أما المستشرق جي جي لوريمر صاحب كتاب «تاريخ وجغرافيا الخليج العربي». قال: زعاب ومفرده زعابي، وهي إحدى قبائل ساحل عمان، ويقيم قسم منها في سلطنة عمان، وهم هناوية سياسياً، ومقرهم الرئيسي جزيرة الحمراء، ومنهم في كلبا، وأضاف: ويملك بعض الزعابيين من سكان جزيرة الحمراء مزارع نخيل في قرية الخط في سهل جري، ويوجد الزعاب أيضا في سلطنة عمان في ولاية شناص. ج / ٧ ص ٢٥٧٢-٢٥٧١.

- مجلد محمد سليمان الطيب في «موسوعة القبائل العربية» المجلد الأول الجزء الأول ض ٤٩٧: «هاجرت بعض من بني سليم عامه ومن بني زعب خاصة إلى رأس الخيمة، واسم بلدة بني سليم (جزيرة زعاب) نسبة إلى سكانها من بني سليم الذين ينتمون إلى زعب من بني سليم وتقع بلدة جزيرة زعاب على مسافة ١٩



كلم من رأس الخيمة ولهم بها مدرسة أنشئت سنة ١٩٦٠ / ١٩٦١م ويدرس فيها منهم ١٢٣ طالباً سلميا حسب العدد القديم.

ثالثا: عدم صحة فرضية انتقال عرب بندر رج (المياه الضحلة) إلى ساحل الإمارات وهذه هي الأدلة:

– لوزيمر صاحب دليل الخليج قال في وصفه لقصة الأمير الثائر مهنا بن ناصر بن حمد: أعدم سنة ١٧٦٩م، ويشابه تاريخ الأسرة التي كانت تحكم ريج سنة ١٧٥٥م تاريخ شيوخ البحرين، فقد كانوا عرباً من «زعاب» من الساحل الذي يعرف الآن بإمارات عمان المتصالحة، ص١٨٠ دليل الخليج الأول.

– عرب الزعب الموجودون في بندر رق (المياه الضحلة) لا يزال لهم وجود في بندر الرج حتى عام ١٨٢٠م حسب مذكرات الكابتن بروكس سنة ١٨٢٧م، علما بأنه وكما أثبتنا قبيلة الزعاب موجودة في الإمارات قبل ذلك التاريخ بعقود، وأيضا في الوقت نفسه، كان الشيخ قضيب بن أحمد قد وقع وثيقة الإمارات المتصالحة في رأس الخيمة في نفس تاريخ وثيقة الكابتن بروكس، وهو نفسه أثبت وجود خور الزعاب في خور كلبا، وأن عرب الزعاب يسكنون الجزيرة الحمراء[6]، وقدم أحد قادة الأسطول الانجليزي وصفا لهذه الحوادث[7].

– وجود وثيقة جديدة تثبت وجود القبيلة سنة ١٦٠٠–١٧٠٠م، وهي بصدد النشر من قبل الكاتب الأستاذ أحمد راشد ثاني من المجمع الثقافي في أبوظبي، حيث إن شيخ الزعاب في تلك الفترة هو شبانة بن مقرن بن مانع الزعابي المتوفى عام ١١٩٤هـ أيضا قبل وصول القائد الوهابي مطلق المطيري.

رابعاً: قسمت الكاتبة قبيلة الزعاب إلى ثلاثة بطون هي:

– الرياقة الذين هاجروا من الريج.
– عيال صقر وهؤلاء هاجروا من قصبية بعمان.
– زعاب الحجاز وهم جاؤوا من المدينة المنورة.

ولا أدرى من أين لها بهذه التقسيمات حيث من المعروف أن القبيلة فيها أربع عشائر وهي: «آل غاشم ومنها بيوت الإمارات» – «بنو همام» – «المصاقرة» – «الصوارم». ولا يوجد ما يسمى زعاب الرياقة والحجاز، وقرى الزعاب في الماضي كانت كالآتي: الجزيرة الحمراء، خور كلباء، أبو بقرة، رويلة زعاب، قصبية زعاب، سمد السان.

وعليه أتمنى من سيادتكم معالجة الموضوع بما ترونه مناسباً حفاظاً على حقوق أفراد القبيلة. ■

عبيد سيف الزعابي

الهوامش

(١) ج ج لوريمر، دليل الخليج.
(٢) الشيخ نور الدين عبدا لله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان، مكتبة الاستقامة، ١٩٩٧.
(٣) الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين حميد بن محمد بن رزيق – وزارة التراث القومي – سلطنة عمان – ١٩٧٧م، ص٤٩٣.
(٤) دليل الخليج، مرجع سابق، الجزء السابع، صفحة ٣٢٤٤–٣٧٢٥.
(٥) موسوعة قبائل العرب، عبد الكريم الوائلي.
(٦) دليل الخليج، ج ج لوريمر، مرجع سابق.

(7) The Persian Gulf Pilot 1870-1932, Archive Edition: an imprint of Archive International group, 1989 compiled by Captain C.G. Constable and Lieutenant A. W. Stiffe of H. M. Late Indian Navy.



مقال

طارق بن زياد لم يحرق سفنه

و.. تعقيب على الشهاوي:

بين طارق.. وهند

مرّ في العدد (٨٣) من مجلة (تراث) الغرّاء مقال بعنوان «طارق بن زياد لم يحرق سفنه» لصلاح عبد الستار الشهاوي، ولم أطلع على المقال المذكور في حينه، وتنبهت إليه عرضاً وأنا أصوّر نسخة من عرض كتاب «برديات قرّة بن شريك» في العدد نفسه، ولابد من إيضاح أقدمه على إشارتين أشارهما كاتب المقال إليَّ، وإلى زاويتي عن اسم طارق في «أسماء لها تاريخ» التي كتبتها في العدد (٦٨) تموز ٢٠٠٤.

فالإشارة الأولى: جاءت في أول المقال المذكور إلى عبارة حفظتها عن أستاذنا عمر فرّوخ رحمه الله من إحدى محاضراته علينا في جامعة دمشق حين كان يدرسنا التاريخ الأندلسي (في جملة ما درسنا من التاريخ الإسلامي)، وكان يعلمنا التاريخ باعتباره أحداثاً متفاعلة، ويعلمنا التحليل والتعليل دون الاكتفاء بالسرد والحفظ، وقال في معرض إنكاره لفكرة حرق السفن من طارق بن زياد، «كيف يحرق طارق السفن وكان بعضها مستأجراً»؟ وهو تعليل لم أقرأه لغيره، أو قبله.

ولم أستوف في تلك الزاوية ذات الصفحة الواحدة الكلام على قضية إحراق السفن لأن المقام كان لا يحتمل أكثر من تلك الإشارة العابرة الدالة، ولأن الموضوع قد أشبع بحثاً وفرغ الناس منه.

ولم أعرف سبب إقحام ما ذكرته عن طارق، وعن الدكتور فرّوخ في مقدمة المقال المذكور، فإن فهم الكاتب أنني أقول بإحراق السفن فقد أخطأ الفهم، وإن كان فهم أنني أقول بعدم إحراقها فأين الإشارة الرابطة بين ما كتب وبين ما نقل من زاوية (أسماء لها تاريخ)؟ ولماذا نقل ذلك إذن؟ وكيف وظّف ذلك النقل؟ ولماذا أقحم اسمي، وما كتبته في صدر ماكتبه هو؟ ما زلت أستغرب ذلك!

والإشارة الثانية كانت في الحاشية (١) من حواشي الصفحة ١٠٨ تحت كلمة «هوامش» لكاتب المقال المذكور، وقد قال ما نصه، وهو يقصدني «وفي نفس المقال (كذا): أسماء لها تاريخ: طارق، ذكر الكاتب قطعة حماسية نسبها إلى هند بنت بياضة بن رياح الإيادية، أوردها الكاتب بدون (كذا) ترتيب مما أفقدها المعنى. والحقيقة أن هذه القطعة هي (كذا) لهند بنت

عتبة بن ربيعة تحرّض قومها على الثبات في معركة أحد، وهذا هو ترتيب الأبيات كما ورد في كتب التراث (كذا).. ثم سرد كاتب المقال المذكور أبيات الرجز.

أقول:

١- بعد أن بدأ كاتب المقال بالكلام على ما نقلته عن د. عمر فرّوخ أضاف كلاماً يعادل ثلث المقال المذكور عن أصول كتابة التاريخ. ولم أجد صلة بين ما نقله عني وبين ما سرد بعد ذلك، وهذا غريب جداً.

٢- عبارة «كما ورد في كتب التراث» مبهمة، ومن حق القارئ وهو يقرأ اعتراضاً أن يعرف وجه الاعتراض ومصادر المعترض ليتضح وجه الصواب وتقارن الأدلة.

٣- هذا الرجز الذي يختلف ترتيب أبياته في بعض المصادر (كما سأذكر) ليس من شعر هند بنت عتبة حتماً، نعم هي تمثلت به في يوم أحد، وهو شعر قيل قبل وقعة أحد بزمان، ولكنه ليس من شعرها وأستغرب أن يضع كاتب المقال المذكور كلمة «الحقيقة» وهو لم يتأكد من صحة ما يقول، ولم يستوفِ النظر في المصادر والمراجع.

وأول مبادئ البحث العلمي استيفاء المصادر والمراجع فإذا كان البحث رداً أو نقضاً كان ذلك الاستيفاء ضرورياً طبعاً، ومعه القدرة على النظر والتحليل، والتعليل والمقارنة.

٤- لابد من القول إن الخطأ في نسبة الرجز إلى هند وقع من باب السهو أو عدم التدقيق في بعض الأصول القديمة، وتولى الباحثون من قديم الرد على هذا الخطأ أو السهو. وأضرب مثالاً على ذلك:

نسب الجوهري صاحب الصحاح هذا الرجز إلى هند بنت عتبة، وذلك منه وهم، ومرجع الوهم في ما أقدّر إلى:

أ- تشابه الاسمين فهذه هند، وتلك هند، وإن اختلفت بقية سلسلة النسب، فبعض المؤرخين لم يذكروا اسم القائلة أصلاً (كالطبري ٢:٢٠٨).

ب- وتشابه المناسبتين: الإنشاد في المعركة تحريضاً للمقاتلين.

ج- شهرة هند بنت عتبة قال ابن بري: هي هند بنت بياضه بن رياح بن طارق الإيادي».

وظاهر أن ابن منظور أدخل تصويب ابن بري في كلام الجوهري، على طريقته في الجمع بين المصادر.

٥- ومن علماء اللغة المشهورين الحسن بن محمد الصغاني (المتوفى سنة ٦٥٠ هجرية) ومن مؤلفاته كتاب: التكملة والذيل والصلة، وهو تكملة للصحاح، وفيه ردود وملاحظات أيضا، ونقرأ في هذا الكتاب في مادة (طارق) في الجزء ٥ الصفحة ١٠٤:

وقال الجوهري أيضا، ومنه قول هند (يعني بنت عتبة):

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق

وليس هو لهند، وإنما هو للزرقاء الإيادية، قالته حين حارب كسرى إياداً وتمثلت به هند بنت عتبة يوم أحد، وهي تحرّض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تمثل بشعر لا ينسب إليه».

٦- المقام هنا لا يتسع لاستيفاء النقول من التواريخ وكتب اللغة ولا يتسع أيضاً لذكر اختلاف رواية الرجز، روته المصادر: في ترتيب الأبيات وفي عددها، وهو يحتاج إلى مساحة أوسع، ومجال خاص لعلني أستوفيه حين تجيء مناسبته.

ولكنني أقول شيئاً آخر مفيداً في تحقيق النص، إضافة إلى الرواية، والنقل، هو أن في الرجز إشارة إلى اسم طارق الذي فسّره اللغويون بالنجم، أو كوكب الصباح (وهو غالباً الزهرة)، وهي إشارة تسمح بها اللغة، وتدل على الأصل الذي نقل منه اسم طارق ليدل على اسم القلم، ومن الواضح أيضا، وهو أمر لم يرد في ما قرأت في المصادر والمراجع أن هند بنت بياضة تحث النساء اللواتي يرددن معها، وتشجع الرجال فإنهن حفيدات «طارق» الجدّ الأعلى لهند، «نحن بنات طارق»، فقد كان - كما نلمح من الرجز- رجلاً ذا مكانة وشجاعة وكان شخصية مهمة في القبيلة يفتخرون في الانتماء إليها.

ونذكر أيضا أن والد هند «بياضة» كان قائد قبيلة إياد في معركة ذي قار، ونقرأ في المفصل للدكتور جواد علي (٤:٤٧١-٤٧٢) «وكان على إياد يومئذ بياضة بن رياح بن طارق الإيادي، فلما التقى الناس ارتجزت هند شعراً مشهوراً معروفاً أوله

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق

ثم هجمت إياد على الفرس....» إلخ.

٧- أكتفي بهذا، وإن كان الموضوع يحتمل الإفاضة والزيادة، ثم أقول إن تحقيق النصوص مطلب صعب، وهو لا يتاح لكل أحد.■

أ. د محمد رضوان الداية





خَرْشَنَة

■ أ.د. محمد رضوان الداية

اسم «خَرْشَنة» من الكلمات التي ترددت في أشعار عدد من شعراء العصر العباسي، وخصوصاً شعرآء القرن الرابع، في أيام دويلة حلب مع سيف الدولة الحمداني.
و«خرشنة» موضع في الثغور، وهي المناطق الساخنة كما يقال اليوم، في الحدود المشتركة أو المتداخلة بين بلاد المسلمين وما يجاورها من بلاد الروم (التقاء شمال بلاد الشام مع أطراف آسية الصغرى- الأناضول).
ونتعرف إلى هذه المناطق عادة في كتب الجغرافية والمعاجم الجغرافية. فإذا قلّت المعلومات فيها استفدنا مما يرد في كتب التاريخ وفي كتب الرحلات، وفي الرسائل السياسية، وفي دواوين الشعر، وغير ذلك مما يُدعى «المراجع الثانوية». وكثيرة هي الفوائد التي نجدها في هذه المصادر والمراجع.

والمعلومات عن «خَرْشَنة» في معجم ياقوت وفي الرّوض المعطار وفي (نزهة المشتاق) للإدريسي معلومات قليلة، ولكنها تحدد موضع خَرْشَنة وطبيعتها، وما حولها. ففي معجم البلدان (٢:٣٥٩) «خَرْشَنة بلد قرب ملطية من بلاد الروم (آسية الصغرى - تركية اليوم)، غزاها سيف الدولة بن حمدان، وذكرها المتنبي وغيره في شعرهم.. ونسب إليها عبيد الله بن عبد الرحمن الخرشني.
وفي نزهة المشتاق (٢:٨٠٣) «وعمل خرسيون» وهو مما يلي ملطية، وفيه من المدن: خرشنة وأربعون حصناً...».
وأول خبر قرأته عن هذه المدينة أن معاوية بن هشام (والد عبد الرحمن الداخل) غزا الصائفة سنة ١١٢ مئة واثنتي عشرة فافتتح خرشنة من ناحية ملطية (الطبري ٧:٧٠ والكامل لابن الأثير ٥:١٧١).
فاسم (خرشنة) يطلق على المدينة المذكورة، وعلى ما حولها من جبال وامتداد طبيعي. ونسبة بعض العلماء إلى خرشنة يشير إلى دخول هذه المدينة (ومنطقتها) في حدود الدولة الإسلامية. وصارت المنطقة كلها منطقة ساخنة في القرن الرابع بعد أن دبت صحوة عسكرية في الدولة البيزنطية، وظهرت آثار ذلك في الهجمات

المتكررة -وبعضها شديد القوة - على البلدان والمناطق الإسلامية بين حلب وعمق مناطق النفوذ الرومية (البيزنطية).

ونقرأ في معجم ياقوت عند ملطية (أم البلاد التي منها خرشنة) وقد بنيت ملطية سنة ١٤٠هـ على يد المنصور العباسي، وخربها الدمستق (قائد بيزنطي) سنة ٣٢٢هـ. وقيلت فيها أشعار كثيرة تذكرها وتطلب النجدة لها. وظاهر أن المنصور بناها بعد خراب لأنها قديمة وكانت مأهولة.

في سنة ٣٤١هـ اخترق سيف الدولة الحمداني الثغور ووصل إلى خرشنة، وتجاوزها إلى مناطق موغلة في بيزنطة، والروم ينهزمون منه. قال (ديوانه المنسوب للمعري ٣:٢٧٧):

جازَ الدّروب إلى ما خَلْفَ خَرْشَنةٍ
وزال عنها وذاك الرَّوْعُ لم يَزُلِ
فكلّما حلمت عذراء عندهم
فإنما حلمت بالسَّبي و الجَمَلِ

فالدروب هي المسالك بين بلاد المسلمين وبلاد الروم. فسيف الدولة جاوز الدروب والمضايق ووصل إلى عمق بيزنطة، وخَلّف مدينة خرشنة ومنطقتها وراءه. ثم قال إن الرعب من سيف الدولة وصل إلى نفوس الروم وقلوبهم، حتى إن النسوة يرين في النوم أنّهن صرن سبايا (من شدّة خوف جيش سيف الدولة):

فكلّما حلمت عذراء عِنْدَهُمُ
فإنما حلمت بالسَّبْي والجمَلِ

وذكر المتنبي خرشنة في قصيدة مدح بها سيف الدولة الذي خرج غازياً غير أنه لم يتسن له الوصول إلى خرشنة بسبب كثافة الثلوج. ومن هذه القصيدة:

وأشقى بلاد الله ما الروم أهلُها
بهذا وما فيها لمجدك جاحِدُ
شَنَنْتَ بها الغارات حتى تركتها
وجَفْنُ الذي خَلْفَ الفِرَنْجَةَ ساهِدُ
مُخَضَّبَةٌ والقومُ صَرْعى كأنها
وإن لم يكونوا ساجِدِيْنَ مَساجِدُ

يقول إن غارات سيف الدولة في بلاد الروم أخافت (فأسهرت) من خلف بلاد الفرنجة (في وسط أوربة).. وشبه قتلى الروم بالساجدين لانكبابهم بعد القتل على وجوههم.

ولخرشنة ذكر في شعر أبي فراس الحمداني (ابن عمّ سيف الدولة وأحد أعوانه. وكان محارباً وشاعراً، ووالياً لبعض جهات حلب لابن عمه).

وقد اشتهرت قصيدته الرائية، وقد أنشدها في بعض أحوال أسر الروم له. وبدأها بذكر مروره بـ (خَرْشَنة) على تلك الحال.

وعقب بالكلام على مروره بها على حال أخرى هي حال المقاتلة والإغارة.

إن زُرْتُ خَرْشَنَةَ أسِيْرا
فلكم حَلَلْتُ بها مُغِيْرا
ولقدْ رأيتُ النّار تَنْـ
ـهَبُ المنازلَ والقصورا
إن طالَ ليلي في ذَرا
كِ فقد نَعِمْتُ بهِ قصيرا
ولئن لقيت الحزن فيـ
ـكِ فقد لقيتُ بكِ السُّرورا
ولئن رُمِيْتُ بحادث
فَلأُلْفِيَنَّ له صَبورا
صَبْراً لعلَّ اللهَ يَفْـ
ـتحُ هذه فتحاً يسيرا

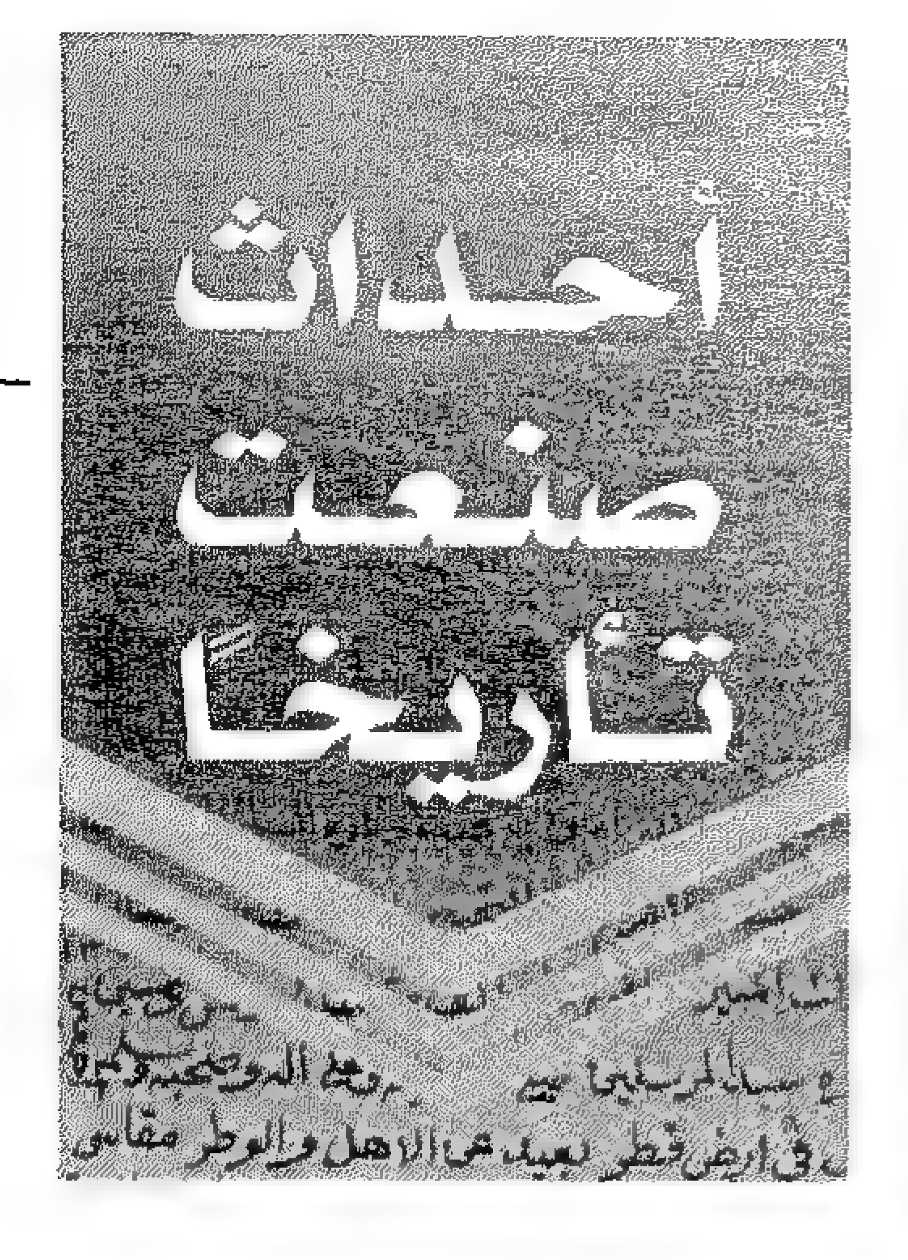
والأبيات أكثر من هذا. وشعره يوضح وقوع خَرْشَنة على طريق الصراع بين الدولة الإسلامية (أيام العباسيين) والدولة البيزنطية.

وذكر أبو فراس خَرْشَنة على لسان والدته في شعره الذي نظمه في أسره في بيزنطة، يسلّي أمه عن غيابه، وكانت متعلقة به، ويحث سيف الدولة على الإسراع في فكّ أسره:

عليلةٌ بالشام مُفْردةٌ
بات بأيدي العِدا مُعَلِّلُها
تسأل عنا الركبان جاهدةً
بأدمعٍ ما تكادُ تمهلُها
يا مَنْ رأى لي بحصن خرشنةٍ
أُسْدَ شرى في القيود أرْجُلُها
يا مَنْ رأى لي القيود موثقة
على حبيبِ الفؤادِ أثْقَلُها

وذكر غزوةً له في الروم وصل فيها إلى خَرْشَنة وتجاوزها إلى ما وراءها في بيزنطة:

وسِرْنا مُعْلِميْنَ إليك حتّى
ضربنا خَلْفَ خَرْشَنةَ الخياما■



■ د. فالح حنظل

في حياة الشعوب وقائع وأحداث كبيرة.. شكلت بصمات لا تنمحي من ذاكرتها.. ولأهميتها ولتأثيرها اتخذتها الشعوب تأريخاً لها.. فيقال: فلان ولد في سنة الجراد.. وفلان توفي في سنة السيل، وفلان تزوج في سنة الزلزال. ولأهمية تلك الأحداث ومغزى اتخاذها تأريخاً.. قررنا أن نفتح صفحاتها لنتعرف عليها.. لأنها جزء من التاريخ.

سنة الحريجة

الحريجة، أي الحريقة وهي الحرق بالنار، وهي مؤنث حريق وجمعها حرائق أي اشتعال النار في مكانٍ ما، ويرد لفظ (حريجه) على ألسنة العامة بقلب القاف جيماً، كما يقلب القاف إلى (ك) أيضا فيقال (إحترك) أي احترق، ويقلب إلى غين فيقال غصر أي قصر. ولا توجد ضوابط لغوية ثابتة في لغة العوام لمعرفة كيفية قلب هذا الحرف.

وسنة (الحريجة) عند أهل الإمارات أي سنة الحريق والمقصود بها السنة التي شب فيها حريق أو عدة حرائق في الإمارات، وهم لا يتذكرون بالضبط السنة التي شب فيها هذا الحريق، ولكنهم يؤرخون للأحداث والوقائع بشكل تقريبي بتلك السنة.

ويبدو من تتبع أقوال الناس وما تركه الشعراء من وصف للحريقة، أنها لم تحدث مرة واحدة في سنة واحدةً وبمكانٍ واحد، بل كانت عدة حرائق بعدة سنوات في عدة إمارات.

إن أول من أرخ لسنة الحريجة، كان المرحوم حميد بن سلطان الشامسي في كتابه المعنون (نقل الأخبار في وفيات المشايخ وحوادث الديار)، إذ يقول عن أحداث ١٣١٣ هـ «شبت النار في (ديرة) واحترقت جميع بيوتها وتلف الكثير من المتاع».

ويؤكد هذا الخبر (لوريمر) في مصنفه المشهور (دليل الخليج)، إذ يتحدث عن أخبار عام ١٨٩٦م وهو ما يوافق عام ١٣١٣-١٣١٤هـ فيقول ما يلي:

«وفي هذا العام حدثت حرائق مفتعلة في مدن الشارقة وأبوظبي ودبي. ففي الشارقة دمر الحريق ٤٠٠ بيت ووصلت النار إلى قصر المحلوسه وأوشكت أن تلتهمه وكانت الخسائر أكثر من ثلاثين ألف ربية. وفي أبوظبي احترق ١٧٠ منزلاً. أما في دبي فقد احترقت منطقة ديرة بكاملها ودُمِّر نصف المدينة الآخر المسمى (النييف) أو

بر دبي».

ومن الجدير بالذكر هو أن أهالي الشارقة وأبوظبي لا يتذكرون أن حريقاً كبيراً شب عندهم، إنما يرد ذكر الحريق عند أهل دبي. ويبدو أن دبي تعرضت إلى ثلاثة حرائق إذ يذكر الأستاذ سلطان بن بخيت العميمي، نقلاً عن الأستاذ بلال البدور في مقال كتبه لمجلة شؤون أدبية، أن ثلاثة حرائق شبت في دبي في أعوام ١٨٩٣ و١٩٣٩ و١٩٤٠. وإن المعاصرين من أهل دبي يتذكرون حريق عام ١٩٣٩ أو ١٩٤٠، وقد أرخ لهذا الحادث الشاعر المرحوم علي بن قنبر في قصيدة بعنوان (أمس الضحى شفت القيامة قامت)، إلاّ أنه لم يحدد السنة التي حدث فيها الحادث.

ويتحدث الرواة عن أن الحريق شب بسبب امرأة من العبيد اسمها (شيرين)، وهذا ما أشار إليه بن قنبر، إلاّ أن هناك رواة آخرين يقولون إن حريقاً آخر شب في دبي افتعلته امرأة اسمها (چحال)، ومن غير المؤكد أي الحريقين شبّ أولاً.

ويتحدث عن حريق دبي، وبالتخصيص في منطقة ديرة، الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن حافظ وهو أحد أعيان دبي وكان تاجراً وإماماً وخطيباً، فيقول عن الحادثة.

«أذكر مرة أنني خرجت عصراً باتجاه المزرعة وعند الاقتراب منها التفت خلفي وإذ بدخان كثيف يغطي البلاد ومن تحته النيران ملتهبة، وقد كانت المساكن يومها عبارة عن عشش من سعف النخيل، وعدت أدراجي على الفور وعرفت أن الحريقة قد بدأت من سكة الخيل وحملتها الرياح بعجلة فائقة لتلتهم العشش والخيام في المناطق المجاورة للسكة ثم ما بعدها. وقد كانت عشتنا في المنتصف، وكنت أعرف أن الوالد في السوق ولا يوجد في البيت إلاّ الأطفال الصغار، وكان لابد لي من أن أفعل شيئاً. ومن هول المفاجأة والخوف كدت أن ألقي بنفسي في النار. إلاّ أن حرارة اللهب لم تسمح لي بالاقتراب منها. وكان أصحاب مراكب الصيد قد حملوا أطفالهم وعائلاتهم ومن رافقهم من الأهالي وكذلك ما تيسر حمله من الممتلكات ولجأوا إلى البحر بعيداً عن النيران الآخذة في الانتشار والتمدد، والبعض الآخر لجأ مع حيواناتهم إلى (البراحه) أي الساحة الواقعة في ناحية المصلى القديم وبقيت المنطقة المشتعلة شبه خالية. وبينما أنا في رعب وقلق شديدين وجدت لي ممراً بين الحجر والنيران ووصلت قرب الغروب إلى البيت الذي تحول إلى رماد، فصرخت منادياً على الأطفال وأنا أجري في الخارج حين قابلني أحد الجيران وطمأنني بأن الأطفال والعائلة بخير، فحمدت الباري على ذلك، علماً بأن الحريق التهم أكثر من مئتي بيت ولم تقع خسائر في الأرواح بفضل الله تعالى».

وقد أكد لي هذه الرواية أحد الأفاضل من أهل دبي فقال: «وقعت الحريقة عندما كان أغلب الرجال في طريقهم بحراً إلى البلد بعد انتهاء موسم الغوص، وأغلب ما كان موجوداً في منطقة (ديرة) النساء وكبار السن والأطفال، فلما ارتفع دخان الحريق شاهدته بعض السفن، فهرع رجالها بالتجديف وبالشراع نحو البلد، ونزلوا إلى البر والتقوا بالنساء اللاتي كن يحاولن جاهدات أن يهربن مع أطفالهن وبعض متاع البيت نحو البحر، فأنقذوهن وأنقذوا كل من استطاع أن يهرب من النار الآكلة التي أتت على كل (العرشان) أي البيوت المصنوعة من جريد النخل والتي كانت مقامة في ديرة».

ومن المفيد أن نورد في هذا المقال، القصيدة التي نظمها المرحوم علي بن قنبر يصف فيها (الحريجة) التي أشعلتها المرأة المسماة (شيرين)، وقد وردت في ديوان (باقة من الشعر الشعبي) للمرحوم أحمد بن خليفة الهاملي، كما أوردها الأستاذ سلطان بن بخيت العميمي في كتابه (علي بن قنبر حياته وشعره). وهي على وزن المربوعة.

أمس الضحى شفت القيامه قامت	نيران شبّت ولبُّقت ثم قامت[1]
شفت اللّي من خلقْ ما قد شيفي	وأيقنت إيلن القيامة قامت[2]
شفت الوفي ظاهر بليّا لحافي	ويقول يا والي الأمر يا كافي[3]
ليتك نظرته كامل الأوصافي	يوم المنيّة في بلدنا حامت
نار إلبقت والعقربي ما قصّر	مر يزيد ومرّ يتنحّر[4]
سوى بناقصّه حشر بخنصّر	شرتا سموم وحالةٍ قد حالت[5]
اللّه الأحد كم من صبي شابي	يوم ألبقت ثم أزفرت وتشابي[6]
الناس طاحوا في بلاو انشابي	وكم مقلةٍ من حرها قد سالت[7]

شبت وسوّت في فعلها افناني
كم واحد طاح وبقى حيراني
يارب فرّج ذي الأحوال بشيفه
كم جادلٍ قد خربّت له كيفه
عالت وسوّت عِلَّه في الديره
يا لابتي يا اهل الوفا والغيره
توالت الخيرات وسوّت شاره
سلم اللي منهم ظهر بقشاره
حالت ولا تم عربي وبلوشي
برح الغطي يمشي بليّا كوشي
هالت ولا خلّت فريج وحاره
تموّا فقرا من هالبلاوي شاره
برحت منازلهم خلا تنشافي
جالت وذا أمر الكريم الباري
جل الذي في ذا الملا مختاري
النار ما تعرف عهود وذمه
هامت ولا خلّت هدم وكتابي
الله الاحد ذي محنة وانشابي
نادت وقالت يا إلهي المعونه
هذي سبايب سِفلَه ملعونه
قالت أنا غصبٍ عليَّ شبّيت
ذي عيده تبّت يداها وتبّت
صارت بليّةً وابتلت الاشرافي
يا شيخ من شبره طويل ووافي
أشغالهم راحت وخسروا المالِ
كانت وباعزي بوعبيد الشيمه
حامت ويا شيخي حشر بانحراكم
وأيضاً خليفة صفوة الأمجادي
صلّوا علي هادي جميع الأمة
والآل ثم عمّوا كذا الاصحابي
ما حن رعد وهطل سحّابي

من بيت بوهاشم إلى السوداني[٨]
من يوم صوبه بالخباثه مالت[٩]
لقشار سيّج وامنوه بالسيفه[١٠]
ساعة نظرها صوب بيته عالت[١١]
كم مال خيرٍ هلكت في ديره[١٢]
عينوا الفقير اللّي حلاله توالت[١٣]
شف حكم ربي يوم تيك اقداره[١٤]
واللي أولته مالت عليه وحالت[١٥]
حتى الدجاج اللي اطوته والهوشي[١٦]
من روعة منها العباد اهتالت[١٧]
والكل بقشاره زبن بَقّاره[١٨]
يوم ألبقت بامر القضا ثم غارت[١٩]
وبيوتهم مرّت عليها وجالت[٢٠]
سبحان من أمره علينا جاري
بأمره وهي بأمره عليهم كانت
من حين شبّت في فعلها هامت
حتى لمطوّع صابته الاسبابي[٢١]
كم جادلٍ هَلّت دموع ونادت[٢٢]
وش حال بوملحه الذي يطرونه[٢٣]
لي سببت هذي الأمور وقالت[٢٤]
حين البقت ما صرفت واشتبت[٢٥]
اللي فعلت هذي الامور وصارت[٢٦]
وبيوتهم يذري عليها الساقي[٢٧]
عين الجماعة لك حياةٍ دامت[٢٨]
وهذي القضية ياسنادي كانت
بيت الكرم جمعه وراعي الشيمه[٢٩]
وانتو ذرى من يلتجي بحماكم
ذخر العباد إذا الحوادث دارت
يشفع لكم إذا ما القيامة قامت
بازكي صلاة فاقت الأطيابي
واعدا ما اعواد غصنٍ مالت

المعاني وشرح الأبيات:

(١) لبقت: يقال لبُقت النار إذا شبّت واندلعت.

(٢) معنى الشطر الأول: رأيت مالم أر مثيلاً له منذ أن خُلقتُ، إيلن: إلى أن.

(٣) يقصد أنه رأى نساء يخرجن بلا غطاء الرأس (الشيلة).

(٤) العقربي ما قصّر: أي أن الرياح الشديدة التي تهب عندما يحل الجو بموسم العقربي، ما قصرت أي فعلت فعلها.

(٥) حشر بخنصر: هكذا كتبت في الأصل. شرتا سموم: رياح السموم الحارة.

(٦) صبي شابي: شاب الصبي من هولها.

(٧) بلا وانشابي: بلاءٌ ومحنٌ.

(٨) بيت أبوهاشم: قال الاستاذ سلطان العميمي إنه بيت السيد يوسف الهاشمي. أما السوداني: فلعله أحد أهالي دبي من قبيلة السودان المعروفة.
(٩) بقى حيراني: بقي حائراً.
(١٠) لقشار: القشار أي متاع البيت. سيّج أي وضعوه داخل سياج. أمنوه بالسيفه: أي وضعوه بمكان آمن في سيف البحر أي ساحله.
(١١) جادل: الفتاة الحسناء.
(١٢) عالت: نادت عيالها وأهلها.
(١٣) يالايتي: يا أهلي يا عائلتي، اللابة أي الأسرة والأهل.
(١٤) تيك أقداره: تأتيك الأقدار.
(١٥) بقشاره: القشار أي متاع البيت والأثاث. أولته: وَلّتْهُ أي قدرت عليه، النار أصبحت والياً عليه.
(١٦) الهوشي: الهوش أي المواشي كالأغنام والأبقار.
(١٧) الغضي: الفتاة الحسناء. بليا كوشي: بدون كواشي وهو نوع في الحلي النسائية.
(١٨) فريج: فريق، حارة. ومعنى الشطر الثاني أن الكل اتخذ ملجأ له ولمتاعه في (بقاره) وهي نوع من السفن.
(١٩) يوم البقت: عندما شبت النار.
(٢٠) معنى الشطر الأول: غدت منازلهم خالية والنار جالت في بيوتهم.
(٢١) هدم: هدوم، ملابس. لمطوع: المطوع، رجل الدين.
(٢٢) انشابي: النشب أي المصيبة.
(٢٣) بوملحة: هو فضيلة العالم المشهور عبد الله بوملحه رحمه الله.
(٢٤) معنى الشطر الأول: أن سبب هذا الحريق هو امرأة سافلة وملعونة.
(٢٥) ادعت أن النار شبت بدون أن تقصد ذلك.
(٢٦) إنها امرأة من العبيد.
(٢٧) معنى الشطر الثاني: إن بيوت الأشراف تهب عليها العواصف التي تحمل الرمال.
(٢٨) معنى الشطر الأول: إنه يستنجد بالحاكم المرحوم الشيخ سعيد بن مكتوم، وقوله شبره طويل، أي كريم اليد سخيها.
(٢٩) كما يستنجد بهذا البيت بالمرحوم الشيخ جمعة بن مكتوم شقيق الحاكم.■



رسوم وطور

إعداد أ. د.
عبد الرحمن علي الحجي

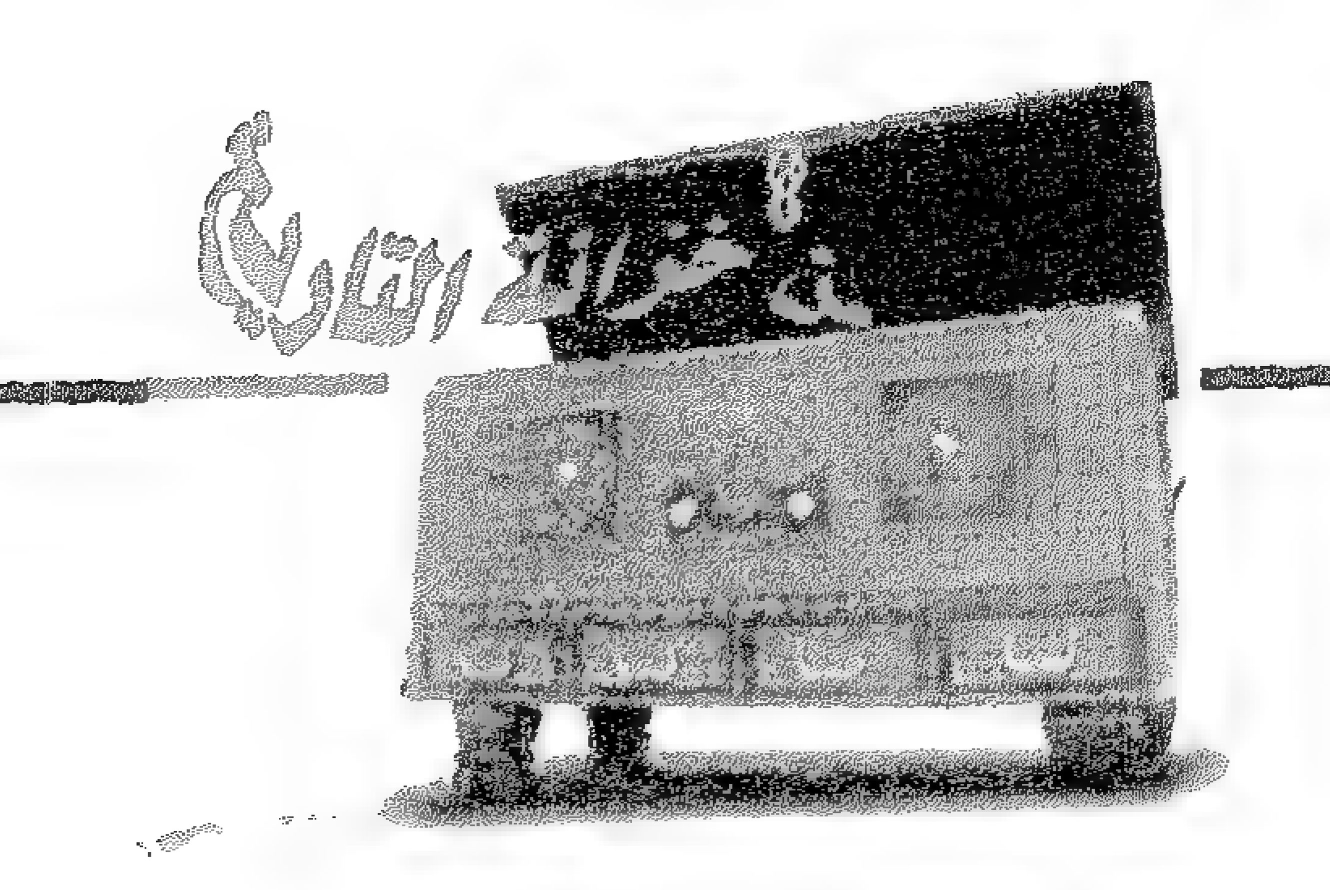


أثر إسلامي باق حتى اليوم في مدينة طليطلة Toledo الواقعة جنوب غرب مدريد ٧٠كم.

وهي من أوائل ما فتح المسلمون من مدن سنة ٩٢هـ - ٧١١م، بقيادة طارق بن زياد وكانت أول مدينة أندلسية سقطت سنة ٤٧٨هـ-١٠٨٥م.

وهي تقع على نهر تاجه Tajo، الذي يصب في المحيط الأطلسي عند لشبونة (عاصمة البرتغال).

الصورة لبوابة باب المردوم، أحد مداخل المدينة الرئيسية، وتسمى اليوم Puerta del Sol تدخل منها إلى المدينة لتجد نفسك صاعداً في طرقها القديمة الضيقة، ومسالكها المرتفعة المحتفظة بكثير من معالمها وآثارها ومواقعها القديمة المتنوعة الدالة على معماره الرائع وهندستها الراقية.■



ضُيِّعت .. فوجدها العلماء

■ أ.د. عبد الرحمن علي الحَجّي *

كان ملوك الطوائف في الأندلس القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي قد تفرقوا شِيَعاً، كلٌّ محلةٍ فيها أميرُ المؤمنين ومنبرٌ، وألقوا بأيديهم إلى عدو الأمة، طلبوا معاونته على أمتهم.

وقد أدرك العلماءُ -أول مَن أدرك- خطورة ذلك، فهبوا داعين إلى تجديد المعاني الإسلامية، واقتضاهم ذلك سنوات كثيرة. وكان أولهم أبو الوليد الباجي (٤٧٤هـ) صاحب العلم الواسع والمعرفة والمؤلفات، والرحلة إلى المشرق -كعادة الكثير من أهل الأندلس- فرحل سنة ٤٢٣هـ وعاد منها سنة ٤٤٠ هـ، لمدة ثلاثة عشر عاماً، وأقام ببغداد ثلاث سنواتٍ، دَرَسَ ودرَّس. وهناك أجَّر نفسه لحراسة الدروب، يستعين بذلك على تكاليف معيشته «ولما قدم من الشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم في الصلح وهم يُجلُّونه في الظاهر ويستثقلونه في الباطن ويستبردون نزعته... فالله تعالى يجازيه عن نيته» وكانوا يلقونه بالترحيب لهيبته «مقامه مقام مؤمن آل فرعون... كان يرجو حالا تثوب ومذنباً يتوب».

ولما كثر عيث الطاغية الفونسو السادس Alfonso VI ملك قَشْتاله ästilla وتطاوله واستنزاف الأموال منهم، انتدب أبا الوليد الباجي عمرُ المتوكل، أحد ملوك الطوائف في سَرَقُسْطه Zaragoza للتطواف على أولئك الرؤساء... يندبهم إلى لَمِّ الشعث ومدافعة العدو ويطوف عليهم واحداً واحداً وكلهم يصغي «إلى وعظه».

فكان الباجي يتجول في الأندلس كلها لدعوة الناس والأمراء للنهوض والأخذ بالأسباب، واحتضان ما في الكتاب، فلم يترك مدينة إلا وزارها، يجدد معاني الإسلام في أهلها، ويرتقي بنفوسهم، عاونه في ذلك آخرون منهم أبو عمر يوسف بن عبد البر (٤٦٣هـ) عالم المغرب، وابنُه أبو محمد عبد الله، فأخذت الأمة تستجيب له شيئاً فشيئاً.

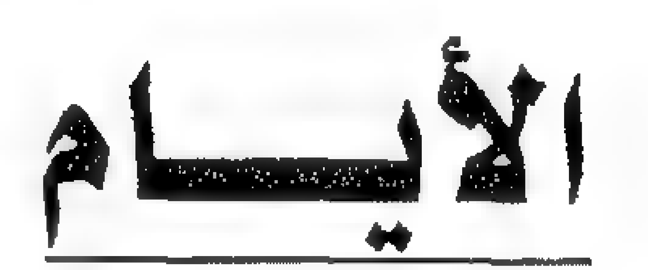
وكانت دعوة الباجي وإخوانه من علماء الأندلس قد أتت بحياة رشيدة وولادة جديدة للأندلس، ليس فقط أدت إلى توحيده وإزالة حالة التشتت، بل ورَّثت كيدَ الأعداء، مما قاد إلى استمراره في البناء والتقدم والانتصار -وإن تعثر أحياناً- لكنه عاش بكثير من العافية حتى أتاه اليقين.

فنهضت الأمة، ترفض حالة التمزق، قامت ضد ملوك الطوائف التي جعلت الأندلس مهدداً من الداخل والخارج، فردت -بعد التوحد- أهل تلك العاديات، الذين أرهقوها تهديداً واستنزافاً واستنزالاً.

فهب الناس بتلك المعاني حتى نضجت جوانبها التي كان منها الوجهة الشعبية الناضجة، لاستدعاء جيش المرابطين -إخْوَة العُدْوة المغربية- لإنقاذهم بقيادة الأمير يوسف ابن تاشفين لاسيما بعد سقوط طُلَيْطُلَه Toledo سنة ٤٧٨هـ -١٠٨٥م. وكان لابد من الإعداد لذلك، الأمر الذي تُوِّج بمؤتمر حضره العديد من أمراء الطوائف والعلماء والقضاة ومنهم القاضي الوزير أبو بكر محمد بن أبي الوليد ابن زيدون (وهو ابن الشاعر أحمد بن عبد الله بن زيدون)، وبزعامة المُعْتَمِد بن عَبّاد الذي قال كلمتَه المشهورة حين حُذِّر من المرابطين «لئن أكونَ راعيَ الجمال في صحراء إفريقيا خيرٌ من أن أرعي الخنازيرَ في قَشتالة». أي أن يأسره المرابطون فيرعى جمالهم في إفريقيا أفضل من أن يأسره الفونسو ليرعى له الخنازير في قشتالة. تلك كلمة أنطقه بها روح الجهاد والتضحية والاحتساب.

فكانت معركة الزَّلَّاقة Sagrajas 7 التي تَوَّجَت ذلك كلَّه بالانتصار في ١٢ رجب ٤٧٩هـ - ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م، حيث وُصِفت بأنها مدت في عمر الأندلس أربعة قرون.■

* أستاذ التاريخ الأندلسي- مدريد



معركة الجسر

وقعت هذه المعركة في سنة (١٣هـ/٦٣٤م) بعد أقل من شهرين من تولي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة، وكان الجيش آنذاك بقيادة أبي عبيدة بن مسعود متوجهاً لقتال الفرس.

ويبدو أن جيش المسلمين البالغ عددهم (٩٠٠٠ مقاتل) تسرع في عبور نهر الفرات من أجل قتال الفرس بالقرب من مدينة الحيرة في العراق، فشتت العبور صفوف المسلمين، وكان الفرس يتحينون الفرصة فهجموا على المسلمين من كل صوب فحدثت الهزيمة التي استشهد فيها حوالى ٤٠٠٠ شهيد.

اختراع التليسكوب

يعتقد أن أول منظار صنعه صانع نظارات هولندي من ميدلبرغ، يدعى هانز ليبرشي كان في عام ١٦٠٨م. فبعد أن ثبّت زوجاً من عدسات النظارات وجههما نحو برج الكنيسة وجد أنها تبدو أقرب من المعتاد، فحضنهما في أنبوب، بفاصل بينهما وأنتج التليسكوب، فأخذ غاليلو هذه الفكرة وحسّنها.

نظرية كيبلر في حركات الكواكب

خلف تيكو براهي (كيبلر) كأستاذ في الرياضيات وعلم الفلك في جامعة براغو الذي نشر قبل ذلك (البرودمات) عام ١٥٩٦م عندما كان (كيبلر) في الخامسة والعشرين من عمره.

اعتمد كيبلر بادئ الأمر إلى درجة كبيرة على براهي، الذي كان أستاذاً له. ونشر اكتشافه العظيم الرائع في عام ١٦٠٩م، بأن كل كوكب يتبع مساراً إهليليجياً وليس مداراً دائرياً.. كما أوضح بأن الخط المرسوم من مركز الكوكب نحو الشمس، يستغرق الزمن نفسه ليتحرك من مناطق مساوية من القطع الناقص، وأن مربع فترة المدار يتناسب مع مربع مسافته الرئيسية عن الشمس، وتعد هذه القوانين أساس علم الفلك الحديث.

سُليك المقانب

إن السُّليك بن السُلكة، والسلكة أمه كانت أمة سوداء. أحد صعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يلحقون ولا تلحق بهم الخيل إذا عدوا، وهم السليك والشنفري وتأبّط شراً وعمرو بن براق ونفيل بن براقة وزيد الخيل.

وكانت العرب تدعوه سُليك المقانب، والمقْنَب جماعة الخيل والفرسان. وكان يقول: «اللهم إنك تهيئ ما شئت لما شئت إذا شئت، اللهم إني لو كنت ضعيفاً لكنت عبداً، ولو كنت امرأة كنت أمة». والسُليك تصغير السُلك وهو فرخ الحجل والسلكة الأنثى. والروايات عنه كثيرة شيقة، منها أن السليك أملق حتى لم يبق له شيء، فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غرّة من بعض من يمر به فيذهب بإبله. حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة، فنام ولم يحظ بشيء.

المرجان حجر كريم

المرجان حجر كريم من الصنف النادر، لونه أحمر قان أو أبيض ناصع أو ما بينهما، ويستخرج من البحر. ويكثر المرجان في أعماق البحر الأبيض المتوسط. ويتكون داخلياً في أفراد شعبة حيوانية تسمى (جوفمعويات) ذات هياكل كلسية

خارجية لتعيش في المياه الرائقة في المواقع الضحلة التي لا يزيد عمقها عن ثلاثين متراً وفي درجة حرارة معينة لا تزيد عن ٣١. والمرجانيات أبسط الحيوانات البحرية العديدة الخلايا من حيث النظام التكويني والتركيب النهائي، ويعم فيها التكاثر الجنسي المألوف إلى جانب التكاثر اللاجنسي بالانشطار والبرعمة.

ويمكن استخراج المرجان بعد عمليات غوص دقيقة إلى حيث يوجد في أماكن ليست بعيدة في أعماق البحر عند شعب رأسية وصخور قريبة من السطح وعلى عمق حوالي ٥٠٠ قدم. في هذه المناطق يرتاد الغطاسون صخوراً خضراء مطحلبة، بعد أن يكونوا اجتازوا دروباً متشعبة وممرات مائية مسقوفة تحت السطح، ويصلون أحياناً، إلى قاع رملي أو صخري محاط بظلمة حالكة أو نور خافت. ومن الضروري أن يكون الغطاسون متمرسين ماهرين في معرفة المرجان وتمييزه عن سواه من شجيرات البحر الخادعة الكثيرة. وينمو المرجان في مغاور وكهوف مصونة في الأعماق، وهو يتراكم في هذه الأماكن على شكل رواسب كلسية مدلاة من السقوف إلى القاع السفلي، ويتولى الغطاسون قطعها بوساطة مجارف خشبية. وتبدو أعراف المرجان ذات لون أسود يميل إلى الزرقة وبها أزهار صفراء زعفرانية أو ممتقعة اللون لا تلبث أن تنكمش وتختفي إذا تعكرت المنطقة.

تابوت

صندوق يضم رفات الموتى، صنعه قدماء المصريين من أعواد النبات أول الأمر ثم من فخار، وفي أيام الدولة القديمة صنعوه من مختلف الصخور ثم من الخشب أيضا. وكان للمملوك ومن إليه من الأمراء وأهل اليسار أكثر من تابوت بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من الخشب الموشى بالذهب والحجر شبه الكريم.

والتابوت عند الفراعنة اسم يدل على عقيدتهم في الآخرة ويشير إلى آمالهم في الخلود فهم يسمونه (ذو الحياة) أي أن من فيه حي، على حين يسميه الإغريق (كل الجسد).

يكره أمه

غريب أمر شوبنهاور الفيلسوف الألماني وصاحب مذهب التشاؤم وتعليله وجود التناقض بين العقل والإرادة، فقد كان يعتقد أن الرجل العظيم هو الذي يفضل الموت على البقاء ورغم ذلك كان شديد الحرص على حياته فقد فر من وباء الكوليرا الذي انتشر في برلين ومن وباء الجدري الذي انتشر في نابولي.

ومما يروى أنه لم يكن يحب أحداً يدخل غرفته حتى أنه كسر ذراع خادمته حين رآها بداخلها ترتب له فراشه.

كما عرف أنه كان يتحدث إلى نفسه في الطريق بصوت مرتفع، وبكراهيته الشديدة للنساء خاصة لوالدته التي كان دائم النزاع معها. ■

محمد رجب السامرائي



المراجع :

١- كاميليا سلوم عكاوي: كشكول المعارف والعلوم، دار الحرف العربي، ط١ بيروت، ٢٠٠٠م.

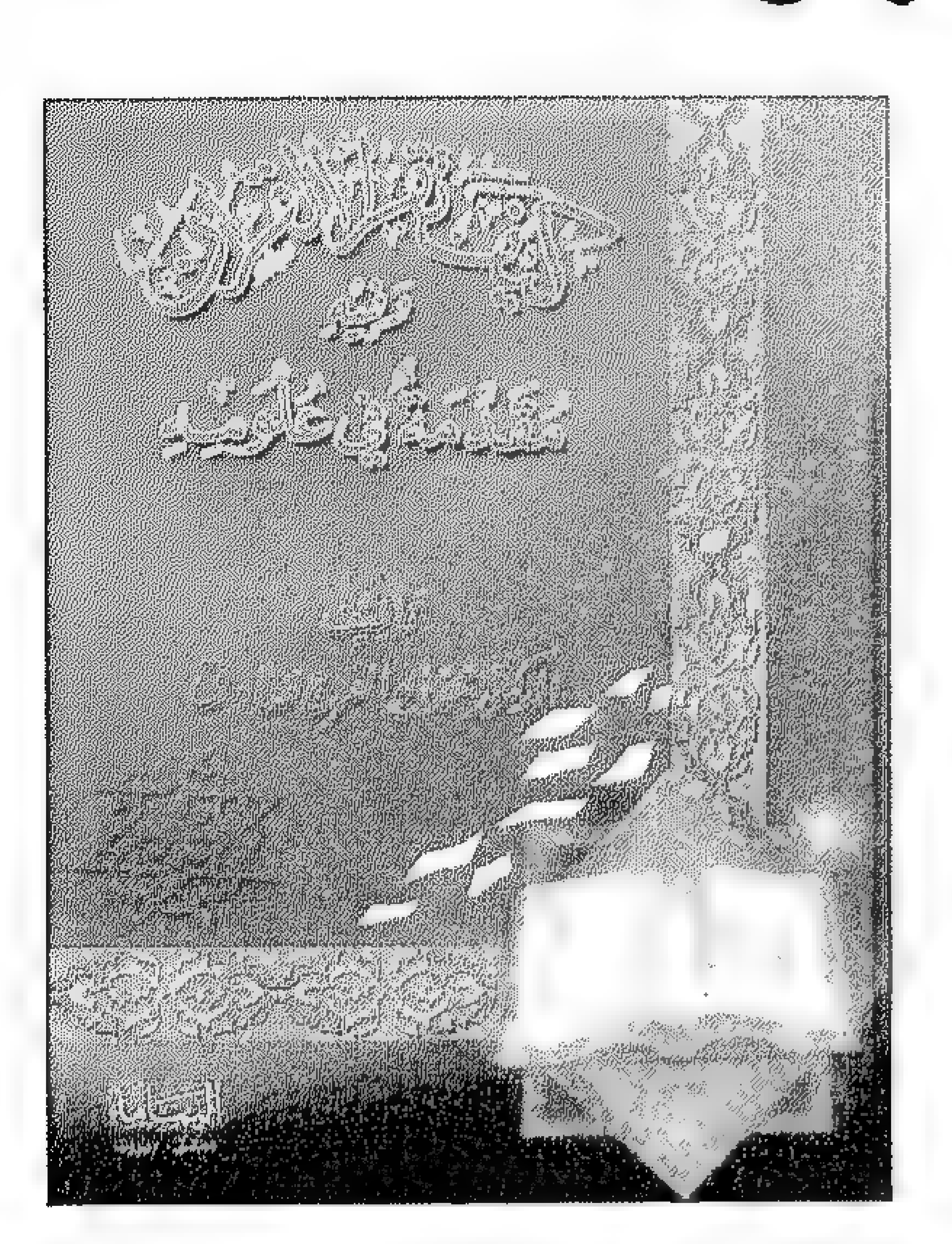
٢- محمد العايدي: موسوعة بنك المعلومات «١-٢»، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.

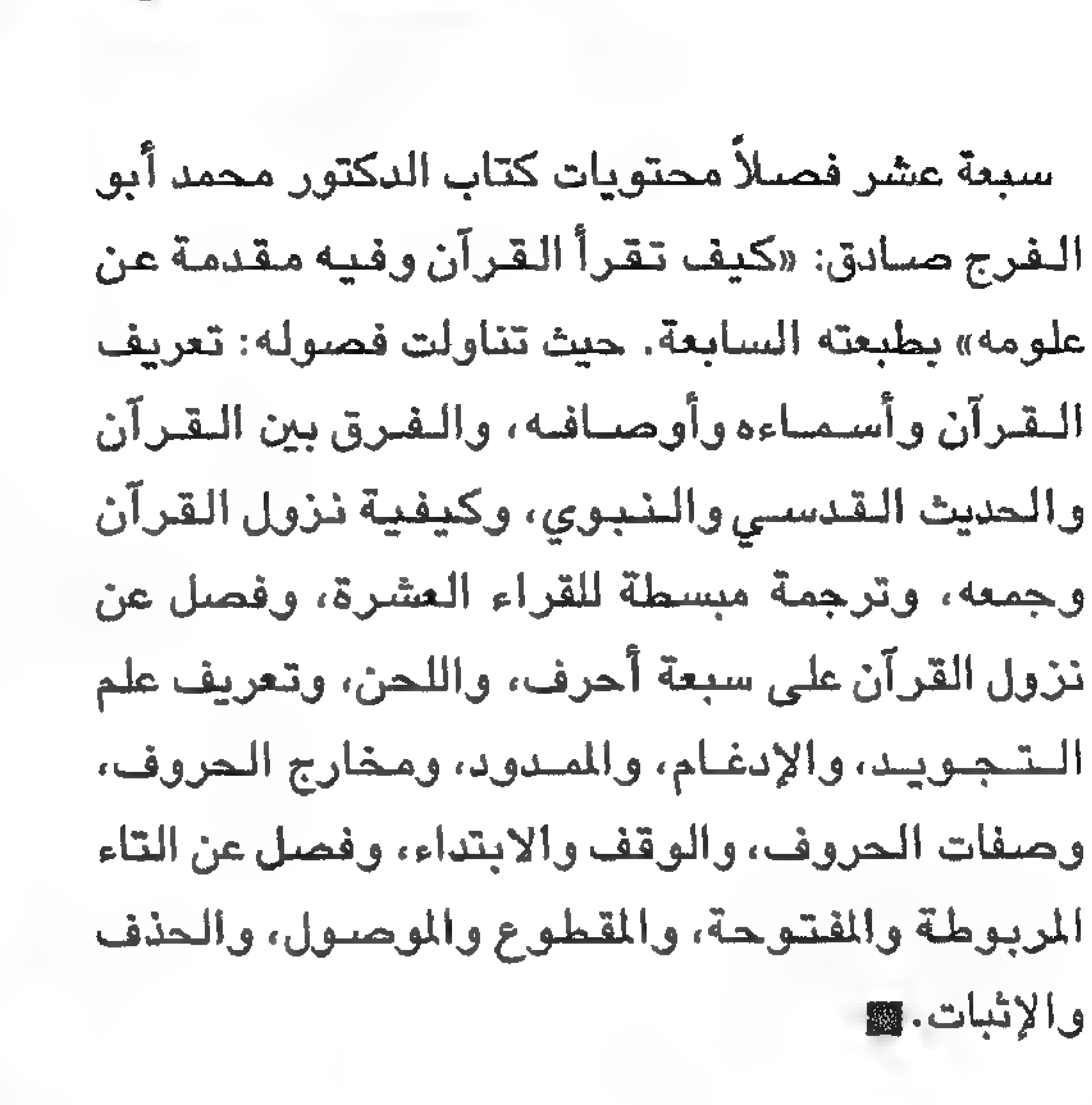
٣- حمدو طماس: أهم الأحداث التاريخية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

٤- سمير شيخاني: التاريخ الصغير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.

٥- خليل البدوي: صدق أو لا تصدق، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.

كيف تقرأ القرآن...





سبعة عشر فصلاً محتويات كتاب الدكتور محمد أبو الفرج صادق: «كيف تقرأ القرآن وفيه مقدمة عن علومه» بطبعته السابعة. حيث تناولت فصوله: تعريف القرآن وأسماءه وأوصافه، والفرق بين القرآن والحديث القدسي والنبوي، وكيفية نزول القرآن وجمعه، وترجمة مبسطة للقراء العشرة، وفصل عن نزول القرآن على سبعة أحرف، واللحن، وتعريف علم التجويد، والإدغام، والمدود، ومخارج الحروف، وصفات الحروف، والوقف والابتداء، وفصل عن التاء المربوطة والمفتوحة، والمقطوع والموصول، والحذف والإثبات. ■

■ اسم الكتاب:	**كيف تقرأ القرآن وفيه مقدمة في علومه**
■ المؤلف:	**د. محمد أبو الفرج صادق**
■ الناشر:	**دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت**
■ الطبعة والسنة:	**الطبعة السابعة، ٢٠٠٤م.**
■ الصفحات:	**٢٣٨ صفحة من القطع الاعتيادي**
■ العنوان:	**ص.ب ٣٧٧، برا مكة، جانب الهجرة والجوازات، دمشق، سورية.**

المصطلحات في العيالة الإماراتية

بدأ سعيد مبارك الحداد كتابه «المصطلحات في العيالة الإماراتية» الصادر عن مركز زايد للتراث والتاريخ التابع لنادي تراث الإمارات بتقريظ الباحث والمخرج المسرحي سامي الحسناوي، والأستاذ عبدالجواد محمد، ثم تلاه بتمهيد الكتاب، ثم أوضح المصطلحات في العيالة الإماراتية، التي بدأها: «بعلِّق أو نَشْبٍ، والمِقْصَب أو المِزْمَل، وبلَّغْ، ورُصٍّ أو ضُـمْ، وارِكْـزْ، وارْزِف، والْعَبْ، وقَابِل، وعودٍ، وحَمِّل.

كما تناول الحداد مصطلحات: جَلِّسْ، والكَسْرَة أو اكسرْ، وقَالِبْ، أو تقلب، وازْحَفْ، أو ازْحَمْ، وطَيِّح، والعدَّة أو الزَّانة أو الحَطَبْ، وأخيراً وَاقِفَهْ». ■

■ اسم الكتاب:	المصطلحات في العيالة الإماراتية
■ المؤلف:	سعيد مبارك الحداد
■ الناشر:	نادي تراث الإمارات، مركز زايد للتراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية المتحدة
■ الطبعة والسنة:	الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م
■ الصفحات:	١٢٠ صفحة من القطع المتوسط
■ العنوان:	ص.ب ٢٣٨٨٨، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة

Email: zcHH@zayedcenter.org.AE

نبش الغراب لمستجاب



صدر العدد «٦٣» لكتاب العربي «نبش الغراب- المجموعة الثانية» لمؤلفه الكاتب الراحل محمد مستجاب، والصادر عن مجلة العربي الكويتية. واشتملت المجموعة مقدمة للمؤلف بعنوان: مولانا مستجاب «صورة عن قرب»، بقلم محمد مستجاب الابن، وتوزعت على فصلين: الأول «الإنسان وأشياؤه» تحدث فيها المؤلف مستجاب عن أربعين موضوعاً تخص الإنسان وأشياءه وحاجياته منها: «القلب، الدم، العين، القدم، الجسر، البريد، الذهب، الصحن، النوم، العيال، الخبز، اللحم، العصا...».

كما تحدث مؤلف الكتاب في الفصل الثاني: «طيور الواحة وحيواناتها» عن عشرين موضوعاً مستوحاة من عنوان الفصل، نحو: «العُش والعُشة، الحَمام، الغراب، الدودة، الضفدع، السلحفاة، الثعبان، البقرة، الثور، البغل، الحمار، الحصان، الجَمَل، القرد، القط، ...» ■

■ اسم الكتاب:	نبش الغراب- المجموعة الثانية
■ المؤلف:	محمد مستجاب
■ الناشر:	وزارة الإعلام، مجلة العربي، كتاب العربي «٦٣»، دولة الكويت
■ الطبعة والسنة:	الطبعة الأولى، ١٥ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٦م
■ الصفحات:	٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط
■ العنوان:	ص.ب ٧٤٨، الصفاة- الرمز البريدي ١٣٠٠٨، دولة الكويت



حكايات واقعية من الحياة يرويها:

■ خميس بن زعل الرميثي

الدايخة

يقول خميس بن زعل الرميثي: في الماضي كان الصيادون يتنقلون بين موانئ الخليج بلا جوازات سفر ولا تصاريح دخول.. وذات يوم سافر جدي الذي سميت على اسمه مع عدد من البحارة بسفينة ضخمة من نوع البقارة يسمونها «الدايخة» يملكها محمد بن جمعة بن كنيت إلى ميناء البصرة في العراق لبيع ما لديهم من خيرات الله وصيد البحر.. وبينما هم يبيعون حصيلتهم داهمتهم الشرطة وسألتهم عن «المنافيس» (تصريح الدخول) وكانوا لا يعلمون عنه شيئاً.. فسمحت لهم الشرطة ببيع حصيلتهم لكنها منعتهم من السفر حتى التحقيق معهم باعتبارهم دخلوا البلاد بدون تصريح.. محتجزة شراعهم الكبير حتى لا يتمكنوا من الهرب.. لكن بحاراً أراد الكيد لهم فوسوس إلى الشرطة بأن حجز الشراع الكبير لن يعوقهم.. والأفضل حجز «السكان» (الدفة) فبدونه لن يستطيعوا الإبحار.. وفعلا اقتنعت الشرطة بكلامه فأعادت لهم الشراع واحتجزت «السكان».. مرت ثلاثة أشهر على هذا الحال.. ولأنهم بحارة لا تعوزهم المهارة.. كانت معهم كل أدوات النجارة.. فكانوا يأخذون قياسات «السكان» نهاراً بهدوء ودون أن يلحظ أحد.. ويدخلون إلى خن (جوف) البقارة يصنعون سكاناً جديداً.. حتى انتهوا منه تماماً.. ولخبرتهم في عالم البحر.. جلسوا ينتظرون قدوم شمل الستين.. وهي رياح قوية من السرّايات تهب ليلاً وتستمر ثلاثة أيام.. وعندما هبت.. رفعوا الشراع الصغير.. وأبحروا ناحية مركز الشرطة.. وكل من رآهم كان موقنا بأنهم ذاهبون إليه فلم يعترضهم أحد ولم يشك في نواياهم إنسان.. وعندما اقتربوا منه.. رفعوا الشراع الكبير وأنزلوا الصغير بسرعة البرق.. وانطلقت الدايخة إلى عرض البحر.. فأرسل المركز مركباً يعمل بالفحم لملاحقتهم.. لكن الدايخة كانت من مراكب زمان القوية.. وتلك المراكب كانت صغيرة.. والرياح عاتية فلم تستطع اللحاق بها.. فصدرت إليها الأوامر بالعودة.. وأرسلوا مركباً أكبر للحاق بالدايخة فلم تستطع.. فقررت إطلاق النار عليها ورمتها بالقذيفة الأولى التي جاءت خلفها.. ورمتها بالثانية التي جاءت بعيدة.. والثالثة كانت أبعد.. وعندما جاء الليل الذي كان البحارة ينتظرونه.. وضعوا كومة كبيرة من الخيش على لوح خشبي كبير.. وصبوا الصل (من زيت السمك) على كومة الخيش وأشعلوا فيها النيران ورموها إلى البحر فظلت عائمة مشتعلة.. وظل مركب الشرطة يتابعها منشغلاً عن الدايخة التي غيرت مسارها واتجهت ناحية أبوظبي حتى وصلت إلى جزيرة قصار الصل.. وهناك رفعها البحارة إلى الشاطئ بسرعة.. وعمدوا إلى كسر بعض أخشابها ورشها بالرماد.. ثم حملوا أهلهم وأبحروا بسرعة إلى أبوظبي.. ظل مركب الشرطة يتابع الدايخة حتى وصل إلى أبوظبي.. وهناك سألوا أحد الرجال الذي قال لهم بعد سماع حكايتهم: لا تفعل ذلك إلا الدايخة.. ودلهم بحسن نية على مكانها!!.. فوجدتها الشرطة وقد كُسرت بعض أخشابها وعليها أكوام من الرماد فأنكروا أن تكون هي وقالوا: إن هذه لها شهوراً على هذه الوقفة.. وتابعوا بحثهم عن الدايخة حتى وصلوا إلى مسقط.. لكن الدايخة دوختهم.. ونجت بقوة بحارتها وعزيمتهم.. وخبرتهم في البحر. ■

اقرأ في العدد المقبل :

عـدد خـاص عـن المتاحـف
في الوطـن العربـي (قــارة آســيا)



- متاحف الإمارات... بوابة التاريخ والتراث
- المتاحف السعودية تروي حكاية الزمان والإنسان.. ورحلة الإيمان
- متاحف الكويت.. دفتر الوطن في ذاكرة الأجيال
- متاحف البحرين والشوق إلى دلمون
- المتاحف القطرية ذاكرة الإنسان والأيام
- متاحف سلطنة عمان.. تراث الماضي والحاضر
- متاحف اليمن.. شهادة ميلاد بتوقيع هواة التراث
- متاحف العراق.. لم تفقد الذاكرة رغم عواصف الصحراء
- متاحف فلسطين والواقع المر
- المتاحف في سوريا ولبنان

(وفي عدد يونيو تكملة المتاحف في البلاد العربية الأفريقية)



لوحة للفنان التركي ممتاز أوردو ..

تراث